KAMAL SOBEH

كمال صبح

رواية
Novel

إيفانوف في إسرائيل

شاهد على النكبة

مكتبة
سمير منصور
للطباعة والنشر والتوزيع

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
٢٠٢٣م - ١٤٤٤هـ

مكتبة
سمير منصور
للطباعة والنشر والتوزيع

غزة - فلسطين - شارع الوحدة ت: 97282825688+
شـــارع الثلاثيني ت: 97282824152+
جـوال: 9720599732212+

Samir@mansour.ps

/samirmansourbookshop

كمال صبح
إيفانوف في إسرائيل / كمال صبح. - غزة: مكتبة سمير منصور، 2023.
(240) ص، 14×20 سم

لا يجوز نقل أو نسخ أي شيء من مادة الكتاب
إلا بعد الحصول على إذن خطي من الناشر

الترقيم الدولي: 0 - 476 - 04 - 9950 - 978

مقدمة المؤلف

يقول مايكل هولي إيجل[1]:

(تاريخنا مكتوب بالحبر الأبيض. إن أول ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزومين، يا الله، ما أغزر دموعهم فوق دماء ضحاياهم، وما أسهل أن يسرقوا وجودهم من ضمير الأرض! هذه واحدة من الإبادات الكثيرة التي واجهناها وسيواجهها الفلسطينيون كذلك، إن جلّادنا المقدّس واحد)

استوقفني هذا النص، لأنني أدركتُ لمَ أستهل مايكل هولي إيجل وصف تاريخه "أنه مكتوب بالحبر الأبيض"، إنه التاريخ القاني، قد تم تزوير لونه كي لا يُرى، إنه تاريخ اندثار العالم الفطري، ووأد ثقافة انفردت بالتكوين الأولي لمحض إنسان نمت جذوره، فتمدد حتى أصبح يبحث عن ريش أكثر. في كل صيف، يتسلل طفلٌ أنتجته آلة الليالي الصيفية، ليكون بعد صيفٍ آخر قادرٌ على الحبو، وبه من الفضول ما يدفعه لأن يرفع طرف الخيمة، فينظر بعينين وليدتين إلى النسر الأول مشرعٌ في سماءٍ بدأ يتعرف على لونها، لذا استحق الوليد ريشة أخرى، كي تُلصق على جبينه، ولكن الجلاد المقدس صار يذرو الريش الناعم، ويخفي عظام النساء في حفر بيضاء، أو يصنع قلائد من عظام الطفل الذي كان يحبو، لا شيء غير الحبر الأبيض يمكنه أن يعزز ديمقراطية رعاة البقر، دم لا يمكن تجاهله ولا يمكن كتابته بلونه القاني، سيشوه وجه الديمقراطية الوليدة، ويدنس قدسية السيد الجلاد، ديمقراطية كتبت تاريخ الحكمة ولكن بالحبر الأبيض، لذلك قال الحكيم الذي لم يسر عليه حكم ديمقراطية الدماء- فعاش ردحاً- يحمل بعض الريش، يوزعه على الأطفال اَلشُّقْر في الحدائق، ويوصي كل من يأخذ منه ريشة: "خذ فقط الشيء الضروري لك واترك الأرض كما وجدتها"، في الحقيقة

---

[1] مايكل هولي إيجل هو أحد مناضلي الهنود الحمر

كان الحكيم العجوز يبحث عن بقايا لغة، عن ريش تناثر في الريح، وعن فراء ثعلب، تركه يوماً على شاطئ المحيط، لكنه لم يبحث عن الأرض، قد أقابله وأنصحه، ابحث عن الأرض أيها الهندي العجوز، إن وجدتها ستجد الناي والريش والقوس وقلائد نسائك، وربما تعثر على بعض الرماح

كمال صبح

إهداء

تحيط بنا دوائر تتفاوت في قدر تأثيرها على حياتنا ، ولعل أصغر الدوائر، هي تلك التي لا متسع فيها إلا لنا ، ألجأ إليها فهناك تكمن القوة

إلى عائلتي، هالة القوة والحب التي تحيط بي، إلى عالمي الصغير المفعم بالتجدد والأمل

لن تتنفس في هذا الضباب الكثيف حتى تشرق
شمسكَ فينقشع، ولن تتبدد الظلمة من حولك ما لم
تشعل نارك لتضيء لك الطريق.

إيفانوف في إسرائيل

على شاطئ مدينة طرابزون[2]، جلست إلى جوار ابنتي "ناتاشا"، كان وجهها الأبيض المستدير نسخة مصغرة عن وجه والدتها، كذلك صمتها وتطرف مشاعرها، لكن جرأة متوثبة تكاد تقفز من عينيها، كنت أرقب وقت انفجارها، كمن يرقب نضج ثمار بستانه، أبنائي "أندرو" و"بيتر"، "أندرو" كان قد أكمل عامه التاسع عشر، أما "بيتر"، فلم يتجاوز الثانية عشرة من عمره بعد، رافقاني في رحلة الهروب، كانت طريقنا طويلة، وها نحن على بعد ألفي كيلومتر من موسكو، لا بأس ستكون رحلتنا أيسر عندما ندخل الحدود الروسية.

لم تكن ناتاشا قادرة على السير أو ركوب الحافلة، مشينا مسافات طويلة، وبعض الطرق لم نجتزها إلا سيراً على الأقدام، لذلك اقترحت ناتاشا أن نمكث في طرابزون عدة أيام، وافقت على اقتراحها، أنا أيضاً كنت متعبا وأحتاج إلى الراحة، كانت أسئلة "بيتر" أثقل حملاً من طول الطريق، لماذا نعود؟ سؤال سمعته عشرات المرات، ولم أكن قادرا على الإجابة، إجابتي طويلة، ستتكأ

[2] مدينة طرابزون هي مدينة تركية، شمال شرق تركيا على شاطئ البحر الأسود.

جراحا حاولت طمسها مراراً، كنت أهرب بوجهي عن كل ما يعيد نبش ذاكرتي، الناس تهرب من واقعها إلى عالم الذكريات والأحلام، وأنا أهرب من خيالاتي وذكرياتي إلى الواقع، كنت أتمنى أن أفقد ذاكرتي كما يحدث في الأفلام، أن أعود إلى نفسي، إلى "إيفانوف" الذي أعرفه، "إيفانوف" الوديع، الصامت، ولكن ما جدوى الهروب من ذكرى أحمل بعضها معي ولا تفارقني، اسمي كان كافياً، حين يناديني أحدهم، كأنه يستدعي كل ذكرياتي، كان النداء يعيد المشهد كخطٍّ موشى بين الرحمة والتعسف، بين الحقيقة والخيال، وبين التمني واليأس، عاد أبنائي الذين أحملهم معي، كقط يحمل صغاره تباعاً، ليبتعد بهم عن أي خطر، أنا أحملهم معي، وأحمل في صدري خوفي عليهم، بعض المشاعر أثقل من وزن حامليها، خوفي عليهم كان أثقل من أوزانهم، أنا أحملهم مرتين مرة بثقل الخوف في صدري ومرة أخرى بوجودهم أمامي، لم تكن كل الإجابات لترد على أسئلة بيتر، بعض الإجابات لا تقال، كل الكلمات لا تحتوي شعوراً يضج به صدر يكتظ بالهموم.

عاد أندرو وبيتر بعد أن وجدوا منزلاً صغيراً، سنقضي فيه عدة أيام حتى نسترد شيئاً من عافيتنا، ثم نكمل طريقنا إلى موسكو، سرنا معاً حتى وصلنا المنزل، في المدخل، كانت تقف سيدة عجوز،

تفرست في وجوهنا، ثم جالت بعينيها كأنها تعدنا، وانصرفت بصمت إلى غرفتها الملاصقة للمنزل.

قال أندرو:

- هذه العجوز وافقت على تأجيرنا بيتها لمدة شهر بعد جهد في إقناعها، واشترطت ألا نحضر معنا حيوانات أليفة، وأخبرتني بعد أن دست قيمة الإيجار في جيب ثوبها أن قيمة الإيجار ستتضاعف إذا انقضى يوم واحد من الشهر التالي.

على أي حال لم نكن نحتاج لأكثر من شهر، ثم نكمل رحلتنا وبعد أن تناولنا طعام العشاء، اقترب بيتر مني وسأل:

- لماذا تركنا بيتنا هناك؟ ولماذا لم نصطحب أمي معنا؟

رمقنا أندرو بنظرة صامتة، صمته كان يسألني، لماذا لا تخبره، عليك أن تتكلم، بعض الكلمات تنتزع معها قطع من الهموم الملتصقة بجدران القلوب حين تخرج.

كنا متقابلين على طاولة خشبية تتوسط المطبخ الصغير، ما زلنا نلوك ما تبقى من الخبز، كنا نسترق النظر إلى وجه بيتر وناتاشا، ثم تلتقي أحداقنا في حوار صامت، كان على أن أجيب على سؤال بيتر، لكن أسئلة أندرو الصامتة كانت ملحة، طارئة، وأكثر حضوراً، لا بأس فالصمت أيضاً حوار، أجابته نظراتي المترنحة

في أتون حيرة تدور كدولاب ضخم في رأسي، شعرت بدوار الكلمات، كحلقات طنين تعلو وتنخفض، وبذات اللغة الصامتة أجبت أندرو:

- أخشى يا بني ألا يتسع صدر إخوتك لهذه الصخرة، سيزيف كان مرغماً على دحرجة صخرة ضخمة إلى أعلى تل منحدر، وقبل أن يبلغ قمة التل، كانت الصخرة تتفلت من يديه، ويكون عليه أن يبدأ من جديد مرة أخرى، كانت تلك عقوبته، لأنه أفشى أسرار زيوس، وادعى زوراً أن "أيجينا" ابنة إله النهر "أسوبوس" تمارس شهواتها مع "زيوس"، كانت العقوبة التي حكم بها سيزيف بذات السمة الهستيرية والمثيرة للجنون، أنا مثله يا ولدي، أخشى أن أحمل الصخرة إذا أخبرتهم بالحقيقة.
- أنت تقامر بحياتهم يا أبي، هم سيخسرون، لكنك لن تكون رابحاً.
- لن تغير معرفتهم شيئاً من حقيقة أننا هاربون، سيأخذون نصيبهم من ثقل الصخرة حين يشتد عودهم. لكني رغم ذلك سأخبرهم بكل شيء، وعليك أيضاً أن تحمل معي ثقل الصخرة.

جلسنا في الغرفة الوحيدة في المنزل، تفرست في وجوههم، كانوا صامتين، يبدو في أحداقهم بريق التوثب وكأن صمتهم يحثني على الحديث، فقلت لهم:

- سأجيب أسئلة بيتر، سأخبركم بقصتي من بدايتها.

بدأت حديثي معهم كأم تعرض صور زفافها لبناتها وتحكي قصة كل صورة:

في قرية فياتسكو في الريف الروسي البارد، لفظت أمي أنفاسها الأخيرة، ما زلت أذكر صرخة "إيستر"، جارتنا الأرملة اليهودية الشابة، حين انفجرت تزلزل جدران الإسطبل الصغير، اهتزت جدران الصفيح، وبملامح جامدة وباردة كنت أنظر إليها تتلوى فوق بساط من الصوف في الباحة الصغيرة داخل باب الإسطبل، أبي كان في مزرعته، لم أذهب لإحضاره كما طلبت "إيستر" التي كانت تمسح عن أمي عرقها المتفصد من كل مسامات وجهها الشاحب رغم الثلوج التي كادت أن تغلق مدخل الإسطبل، خرجت تهرول إلى كوخها القريب، وعادت تحمل إناء نحاسي يفيض بالماء الساخن، صرخت وهي تمر بجواري كعاصفة باردة:

- اذهب يا إيفانوف إلى المزرعة وأخبر والدك أن يأتي بسرعة.

ككومة من الثلج كنتُ متراكماً بجوار الباب، كل شيء حولي يتناثر غضباً وألم، بهذا القدر من البلادة كنت أنظر إليها، محايداً، لم تنمُ في صدري أية مشاعر، ولم أكن أعلم ما الذي يتوجب فعله، كنت أعرف كيف يفرح الناس، في الأعياد كنت أفرح حين كان أبي يحملني بجواره وينطلق بحصانه بين المروج، وأفرح حين أعود إلى بيتنا فأجد أمي وقد أحضرت لي ملابس جديدة، وأفرح عندما يأخذني أبي إلى المدينة كي يبيع زجاجات العرق التي يصنعها في قبو منزلنا، وبعض المحاصيل، لكني لم أكن أعرف كيف أحزن، على أي شاكلة تكون أجسام المحزونين ووجوههم، هل يتوجب علي أن أبكي كما تفعل "إيستر"، تلك الحيرة البليدة أطبقت على صدري الصغير، هل أقترب من أمي، ربما أؤذيها لو اقتربت، أغمضت عيني، رفعت رأسي إلى أعلى، رجوت الله كي لا تموت أمي، أذكر أن بطنها كانت منتفخة ككرة ضخمة، بكيت حين غطت "إيستر" وجه أمي، كنت أعرف أن من يموت لا نلتقي به مرة أخرى، ولكني تساءلت أين ستذهب أمي، لم يسعفني الوقت لأعلم، ولم يكن بجواري من أسأله، اختفى الصوت الذي كان يقرع جدران الصفيح قبل قليل، "إيستر" أيضاً كانت صامتة، ترتكز بوجهها على كفيها، تنظر إلى الجسد المسجى الساكن، كنت أقف في مكاني صامتاً، رغم لسعة البرد التي كانت تنهش ظهري، والثلوج التي

بدأت تتراكم أمام باب الإسطبل، هذا الصمت الذي سيلازمني ما تبقى من حياتي.

وحين عاد أبي من المزرعة، وقف بجواري صامتاً، استمر صمتنا جميعاً، كنت أنظر إلى وجهه، كي أعلم ما يجب علي فعله، وحين انحدرت دموعه متلاحقة تسيل ثم تختبئ تحت لحيته الشقراء، بكيت والتصقت بساقه، لحظات من الوجوم البارد، كانت تكفي لتغرس في ذاكرتي بذرة الألم الأولى، انتفضت "إيستر" وهرولت إليه تحتضنه، ثم سرنا عائدين إلى بيتنا، كانت مراسم الدفن سريعة، وقفت على حافة القبر، ألقيت وردة أعطتني إياها "إيستر"، وحين نظر إلى كل المشيعين بكيت، لم أعتد على هذا العدد من الناس مجتمعين معا، وبعد أن عدنا إلى الدار، جلس والدي إلى طاولة كانت تتوسط باحة بيتنا، أتى على كل زجاجات العرق التي كان يخفيها في القبو، مرت أيامنا اللاحقة بكل صمتها الثقيل، وكآبة ليلها وطنين الصمت الموجع كصفير يذوي في كل ركن، كانت "إيستر" تقضي معظم وقتها في بيتنا، تطبخ وتعيد ترتيب الأشياء المنثورة في كل ركن، ثم تأخذ ملابسنا لتغسلها في دارها، تذهب إلى الإسطبل، لتطعم الحصان والماشية، ثم تعيد برنامجها الرتيب في كل يوم، ترافقها ابنتها الوحيدة إلى أي مكان تذهب إليه، إلى أن أتت يوماً ما، كنت مستلقياً على فراشي، اقتربت مني

"راحيل" وجلست على حافة سريري تؤرجح ساقاها الصغيرين واقتربت "إيستر" من أبي جلست إلى جواره، كان أبي ينظر إليها في صمت وينفث دخان غليونه من حولها، يداعب لحيته الكثة، ثم سمعته يقول:

- وما عساي أن أفعل، أنت تعلمين أن إيفانوف لم يبرح مكانه منذ ماتت أمه، كنت مخطئاً يا إيستر عندما أخذناه إلى المقبرة، منذ ذلك اليوم يسألني هل ستنمو أمه من قبرها كالشجر.

قالت إيستر بابتسامة خجولة:

- ما زال صغيراً، سيعرف كل شيء حين يكبر، أنظر إليه، إنه مجرد طفل، على أي حال لا تقلق بشأنه، سأبقى معه دائماً، لكن عليك أن تعود إلى مزرعتك، أنظر إلى وجهك الشاحب، أتيت على كل براميل العرق، الحزن لا يعيد الموتى.

- نظر أبي إليها مطولاً، لم يتفوه بكلمة واحدة، لكني استطعت أن أرى كيف استدارت "إيستر" تختبئ بوجهها وكأنها تتقي شيئاً ما انبعث من صمته وتحديقه بملامحها، عرفت عندما سارت بي السنين، أن المرأة تتقن كل اللغات الصامتة، تعرف طلاسمها وقادرة على فك رموزها، تحدد اتجاهات النظرة

كبوصلة بحرية، ثم تلقيها في ركن التأويل في أقصى زاوية من أنوثتها، تكفيك عناء البوح، إيستر أيضاً كانت قادرة على قراءة أبي، لذلك وقفت بجواره، ربتت على كتفه وقالت:

- أنا أحضر إلى هنا وفاءً لزوجتك، ليس لأي غاية أخرى، لعلي أستطيع أن أرد بعضاً من ديونها.

لا أعلم ما حدث بعد ذلك، لكني رأيت "إيستر" تنام في فراش أبي، وتلبس ذات الملابس التي كانت أمي ترتديها، راحيل ابنتها أيضاً كانت تنام على سرير جديد وضعوه بجوار سريري، لم يكن يزعجني هذا الترتيب الجديد لحياتنا، على أي حال تلاشت رائحة توباكو "بيتر الأول"[3] الكثيفة والكريهة، التي صبغت شاربي أبي الكثيفين بلون أصفر كريه، أذكر أني وقفت ذات يوم عاصف في ساحة المدرسة، كنت أعاني من نوبة برد بدت أثارها على وجهي الشاحب، تقدم مني مدرس العلوم ألكساندر، وصادف وقوفه بجانبي حضور أبي لسبب لم أعد أذكره، ما علق بذاكرتي أن أبي تقدم نحونا بقبعة الفراء التي تغطي أذنيه، وحذاءه المطاطي الطويل، كان ينتعله في الحقل، وفي الجلسات التي يدعو إليها مجلس البلدة، وفي زيارة مدرستي، بمعطفه الأسود الطويل، كان يحث الخطى

[3] نوع من أنواع التوباكو الروسي

نحونا، ينفث دخان غليونه الخشبي كقطار بخاري، ابتعد المعلم ألكساندر قليلاً، وقال لأبي وكأنه يتوعده:

- ستقتل نفسك وابنك بهذا الدخان.

لم يلتفت أبي إليه، كان يعتقد أن المدرسين والأطباء والمهندسين وغيرهم من المتعلمين مجرد كائنات طفولية، تأكل ما يزرع، مقابل كلمات يدسونها عنوة في رؤوس الأطفال، أرسلني إلى المدرسة رغما عنه، ما زلت أذكر يومي الأول وفي طريقي إلى المدرسة، كان ممسكاً بيدي، في الحقيقة كان يجرني خلفه، وكلما تعثرت كان يتمتم:

- ستذهب إلى أولئك الطفيليين، هم في الحقيقة يقايضون كلمات تافهة يغرسونها في رؤوسكم الصغيرة مقابل ما تتمزق يداي في زراعته، أنا أدفع الضرائب، واشتري الحبوب، وتتمزق يداي في حرث الأرض، وعليَّ أن أطعم البهائم قبل أن أفكر في طعامي، ثم يأتي أولئك الأوغاد ليأخذوا من الدولة ما أدفعه، لتعود إلى كل يوم تحمل في رأسك هواء.

رغم صغرى كنت أعلم أنه مجبر على إرسالي للمدرسة، قوانين التعليم هنا صارمة، لا فرق هنا بين الخدمة العسكرية الإجبارية والتعليم.

بعد موت أمي لم تكن إيستر بديلاً تاماً، لكن وجود ابنتها راحيل كان بديلاً عن جفاء أبي وفقد أمي، اعتدت وجودهم معنا، إلى أن أصبحت أخرج لأبحث عن راحيل إذا غابت عن البيت، كانت أصغر مني بسنة واحدة، وحين دخلت المدرسة للمرة الأولى في حياتي، كنت أصحبها معي، إلى أن اعترضت ناظرة المدرسة على وجودها، فدأبتْ على انتظاري عند أول الطريق إلى بيتنا، كنا كثيرا ما نذهب في صباحات الربيع إلى الجداول القريبة، حين تبدأ أكوام الجليد بالذوبان، نجري بمحاذاة جدول ضحل وكأن أسماك السلمون الهاربة إلى الدفء تلهو معنا، تسبح بمحاذاتنا وكأنها تسابقنا، كنت ألقى عليها بعض الحصى، فتغضب راحيل، أنت تخيفها وتعكر الماء، كانت تقول بصوت متموج أقرب إلى البكاء.

وعند أطراف البحيرة كنت أمسك بيدها ونعود راكضين إلى بيتنا، ولما كبرت راحيل دخلت ذات المدرسة، كنت أنتظرها بجانب باب المدرسة، وفي درس الرياضة كنت أتسلل من خلف معلمتي، لأذهب إلى فصلها، أراقبها من خلف زجاج النافذة، أقف بجوار الشباك إلى أن تخرج من فصلها، تبحث عني بين الرؤوس المتزاحمة عند باب الفصل، ثم تركض نحوي، تقبض على يدي وكأنها تحتمي بها، تحكم قبضتها الصغيرة علي يدي، ما زالت طويتي تعيد تلك اللحظات كلما لمست يد امرأة، لعل صفاء سريرتها

كان يدفعها، يحكم قبضته على سلوكها فتشعر بحاجة إلى التشبث بيدي، كذلك كنت أنا، أشعر أن غيابها يقتلع هدوئي، فلا أستكين إلا بعودتها، أصبحت الآن قادراً على فهم مئات الرموز في التصاقنا اليومي، في وقتها، ثمة شيء ما كان يحجب التأويل، الآن أعلم أنها البراءة، لم تكن تقبل بحضور منقوص، تحضر بكليتها أو تذهب، وهي كذلك تحسن اختيار القلوب، فتجلل حركاتنا وسلوكنا وخلجات صدورنا، الآن وبعد أن برزت أنياب الغرائز في صدري، أدركت كيف استطعت أن أعشق نبتة خضراء وليدة وغضة، دون غاية، لا ثمر أرجوه منها، عشقتها كنداء شاع في صدري، شاءت له البراءة أن يصيرني على هذا النحو، كنت مبتوراً في غيابها، وما زلت أستند على ذكرياتي الغضة معها، ثمة شعور كان يجعل حضورها مؤنساً، اعتدت أن أستعيض به عن فقد أمي، لقد أسرعت راحيل ووالدتها لسد ثغرة الفقد في كياني الغض، فلم أشعر برحيل أمي إلا بعد أن فقدتهن جميعاً.

وفي صباح يوم صيفي، ذهبت بصحبة "راحيل" إلى شاطئ البحيرة، استطعت أن أصنع لنفسي صنارة من بوصة قديمة وجدتها بجانب الإسطبل، وعلى شاطئ البحيرة، كانت صخرتي البيضاء تتسع لأجسامنا الصغيرة ملتصقة، وأمنياتنا كانت بحجم البحيرة، نقضي هناك ما يزيد عن ساعتين، ثم نعود بسلتنا الكبيرة فارغة،

كنا نملؤها بالأماني وأحلام غريرة، فلا تتسع بعد ذلك للسمك، لعل البحيرة كانت تعلم أن سلتنا تفيض بالأمنيات فأشفقت عليها ولم تعطنا سمكا.

أتى صوت "إيستر" من خلفنا، مرتجفاً، لم أر هذا القدر من الذعر إلا يوم رحلت أمي، كان نداءها المحموم ممزوجاً ببحة التوسل والرجاء، كأنها ترجو الأقدار أن تغير مسارها، كعاصفة تقترب من راع في عمق واد سحيق، ما جدوى عصاه في مواجهة الريح تستبيح أجساد الخراف الهشة، انزلقنا عن حافة الصخرة البيضاء، وركضنا إليها، استقبلتنا جاثية على ركبتيها، فلم نجد ما نلوذ به إلا ذراعيها المفتوحين لضمنا، مسحت وجوهنا الصغيرة بيدين راجفتين، وبكت، أنا أيضاً بكيت، بعض المشاعر لا تنتظر إذناً لتثور، تأخذك دون تفسير، وفي ذروة الانفجار لا ننتظر ردا، كفوهة بركان تثور صدورنا، دون إذن مسبق، نحن لا نملك أنفسنا في لحظات الصدق، نجملها في لحظات أخرى، متقمصين أدوار الفضيلة والبطولة، في الهدوء متسع لنحتال على مشاعرنا، وحدها لحظات الحقيقة تتجلى حين تقف عارياً أمام الحوادث، لا يتسع الوقت حينها للتمثيل وتقمص الأدوار، خوف إيستر آنذاك كان صادقاً وحقيقياً.

عادت "إيستر" بنا، تهرول وكأنها تجرنا خلفها، كان والدي يجلس أمام مدخل البيت، يضع بجانبه كيس التوباكو، يمسح غليونه الخشبي بقطعة قماش صغيرة، ثم يدنو به أمام عينيه، نظر إلينا، وعاد يقلب في غليونه وكأنه يستنكر على "إيستر" هذا القدر من الخوف، فاقتربت منه وقالت:

- إنهم قادمون يا رجل، وأنت منشغل بغليونك الكريه.

- نظر إليها صامتاً، بملامح هادئة ومحايدة، ثم عاد يقلب غليونه، كانت "إيستر" تعلم أنه لن يرد، تلك عادته في الأوقات العصيبة، وقفت للحظة صامتة ثم سحبتنا خلفها إلى داخل البيت، نزلت بنا إلى القبو، أزاحت بعض براميل النبيذ الفارغة، وهيأت لنا مكانا لنجلس فيه، تركتنا هناك وعادت إلى أبي، كان شباك القبو الملتصق بالسقف يفتح باتجاه مدخل البيت، سمعت أبي يقول:

- لن يأتوا إلى هنا، كفي عن هذا الذعر.

ردت إيستر صارخة:

- نحن نسمع هدير طائراتهم، وضجيج دباباتهم، إنهم أقرب مما تعتقد.

أشاح أبي بيده امام وجهه متذمراً، وبدأ يحشو غليونه بأكثر مما يحتمل من التوباكو، نفث غيمة من دخانه الأزرق، وانتفض واقفاً، أزعجه خوفها، ثم سار مبتعداً باتجاه الطريق المؤدي إلى قلب المدينة، لم تكن إلا لحظات مرت ثقيلة وبطيئة، حتى نزلت إيستر إلينا، كانت تحمل في يدها بعض الأوراق، طلبت منا ألا نخرج من القبو مطلقاً، ثم انصرفت مسرعة، ومن ذات النافذة الملتصقة بالسقف، ساعدتني راحيل في نقل أحد براميل النبيذ الفارغة، وقفت أنظر إلى مدخل بيتنا، استطعت بالكاد أن أرى إيستر تهرول نحو عربة حصان يقودها رجل يعتمر قبعة سوداء، ويلقي على كتفيه شال أبيض بخطوط سوداء تحد أطرافه، كنت أرى ذلك الرجل في بيت "إيستر" قبل أن تموت أمي، كانت أمي تغادر بيت إيستر بمجرد وصوله، أذكر أني سألت أمي عنه ذات يوم، فأخبرتني أنه من أقارب "إيستر"، لم أتبين وجه الرجل جيداً، غير أني ما زلت أحفظ هيئته، كانت إيستر تجلس بجواره، حين انطلق الحصان مسرعاً، كأنه هارب من عربته الخشبية التي يجرها خلفه، كمن يهرب من خوف يحمله في صدره، كذلك كانت "إيستر"، تهرب من خوف يسكن صدرها، تهرب منه فتذهب إليه.

- عدت إلى قعر القبو، انكفأت إلى زاوية مظلمة، ضممت ساقي إلى صدري، وجلست "راحيل" بجانبي، احتضنت ذراعي، وألقت برأسها على كتفي، سألتني بنحيب خافت:

- هل ستموت أمي كما ماتت أمك؟

نظرت إلى وجهها، لسبب ما، ابتعدت بعينيها عني، كنت قادرا على أن أرى لمعة الدمع في رموشها المتشابكة، مسدت شعرها، فزاد التصاقها بي، كأنها تلوذ بذراعي، أحكمت التصاقها بي حتى شعرت برجفة جسدها الصغير، انتشيت لقربها مني – رغم صغرى وضبابية المشهد- تعاظم في صدري الصغير شعوري بقوتي وإشفاقي على ضعفها، حدقت بها صامتاً، كلمات كثيرة تزاحمت بين لساني وشفتاي، لكن الصمت المطبق من حولي كان يفرض حضوره كطقوس قداس جنائزي، آثرت الصمت، كي لا أُخيفها، لم أكن أعرف ما الذي يجب أن أقوله، لذلك أمعنت في صمتي، لكن ضجيج الأصوات في صدري لم يهدأ، حدثت نفسي فيما كنت أمسد شعرها:

"أنا لم أعرف لماذا ماتت أمي، ما زال صراخها يعاودني كطنين مؤلم، ينخر رأسي كنصلٍ مغروس بين أذني، لا اعلم يا صغيرتي ما يدور حولنا، شيء ما أفزع أمك وأثار حنق أبي، أنا خائف مثلك،

وهذا الصمت يقتلني، بيد أني أعلم أن مصيبة ما ستصيبنا، وجودنا في هذا القبو في يوم صيفي إشارة أتت على نحو ما، كما يعلن الإعصار عن حضوره، يتقدمه برق ورعد كطبول جيش يزحف نحو مبتغاه، لا تسأليني يا صغيرتي، فأنا أكثر منك بحاجة إلى من يجيبني."

انقضى يومنا جالسين في القبو، كنت أعتلي البرميل الخشبي لأنظر من النافذة الصغيرة بين الحين والآخر، إلى أن زحف الليل يلف كل شيء حولنا، في القبو المعتم علا بكاء راحيل، أنا أيضاً بكيت، كنت أتضور جوعاً، تحالف الجوع والخوف على أجسادنا الصغيرة، فانكفأنا ملتصقين في ركن مظلم، إلى أن سمعنا صوت أبي، أسرعنا نمسك بساقيه، صعدنا معه إلى بيتنا، فبادرنا بالسؤال عن إيستر.

- أجبته أنها ذهبت مع الرجل ذي القبعة السوداء، ذلك الرجل الذي كان يزورها في بيتها قبل أن تسكن معنا.

- لم يكترث أبي بما قلت، أو لعله تصنع التجاهل، إذ تركنا وخرج ينظر إلى الطريق الوحيد المؤدي لبيتنا، بعد ساعتين تقريباً، توقفت عربة الرجل ذو القبعة، نزلت إيستر ودخلت إلى بيتنا مسرعة دون أن تلتفت إلى أبي، تجاهلت وجودنا أيضاً، دخلت

إلى غرفتها، كانت تبحث عن شيء ما بين ملابسها وفي أدراج خزانتها، وقف أبي مستندا بكفيه إلى جوانب باب الغرفة، ينظر إليها صامتاً، وبعد أن جلست على حافة سريرها، سألها:

- هل وجدت ما تبحثين عنه؟

أجابته بهدوء:

- نعم وجدت، كانت..........

صرخ بصوت مدجج وضخم:

- لا أريد أن أعرف عم تبحثين، أريد أن أعرف أين كنت كل هذا الوقت، كاد أبنائنا أن يموتوا جوعاً وخوفاً، ألم أنهك مسبقاً عن الحديث مع صديقك اليهودي المقيت.

ردت إيستر بذات النبرة الصارخة:

- "أربيل" ليس مقيتاً، هو من سينقذنا من براثن النازية.
- يا للمرأة الحمقى، أتعتقدين أن الجيوش النازية ستصل إلى هنا.
- إلى أن تصل جيوشهم سنبقى رهائن للخوف منهم، ملايين الجند والعربات العسكرية تقف قريبة منا، لن يمضي الكثير حتى يكونوا في مزرعتك.
- أي هراء أدخله في رأسك "أربيل" ذلك اليهودي الخرف.

- "أربيل" سيأخذنا مع آلاف اليهود إلى هناك، يقولون إن أرض اسرائيل مليئة بالخير، والأمن والطمأنينة، سنجد هناك بيت وعمل في مزارع التعاونيات.

رمقها أبي بنظرة غاضبة، وانسحب حانقاً، مر بجواري، فاستطعت أن أسمع تمتمات "مالي وهذه اليهودية العنيدة"، كيف أترك أرضي هنا لأعمل في أرضهم البعيدة ".

عاد أبي متأخراً، وكانت إيستر في انتظاره، سمعته يهمس لها، أخبار الحرب شاعت بين الناس كما تشيع النار في العشب الجاف، يقولون إن أربعة ملايين جندي يتقدمون نحونا.

ردت إيستر بصوت أقرب للهمس:

- لم تعطني فرصة الحديث لأخبرك، إنهم يتقدمون، وبعد عدة كيلو مترات سيكونون في الساحة الحمراء في موسكو.
- أشعر بأني عاجز يا إيستر، لقد شارفت على الستين عاماً، وما زلت أدفع ضريبة الإنجاب التي فرضوها بفعل الحرب، لم يعد لي متسع من العيش، لكنها أرضي كيف أتركها.
- اقتربت إيستر وقالت:
- بالأمس أخذني "أربيل" إلى مكتب الوكالة اليهودية، مئات اليهود يسجلون أسمائهم للسفر، بعضهم سيذهب إلى

بيروبيجان، لكن الهجرة إلى فلسطين تلقى دعم أكبر من الوكالة.

- كيف سأهاجر معك، أنا لست يهودياً.
- لقد أخبرتهم بكل شيء، هم متعاطفون معي، وسيسمحون لك بالهجرة معنا.
- لا أدري يا إيستر ما الذي يجب أن أفعله، أمورنا تزداد سوءاً بمرور الأيام، والأفق أمامنا موشح بالسواد، دعيني أفكر ملياً فيما يجب أن نفعله.

سار أبي متثاقلاً باتجاه كرسيه المهمل عند مدخل المنزل، بدأ يحشو غليونه بيدين مرتجفتين حتى أسقط الغليون من يده، التقطه عن الأرض والقى به بعيداً، صرخ في الفضاء الممتد امامه:

- تباً لهذا الغليون اللعين، تباً لحياتي كلها.

ثم عاد بعد لحظات قليلة يبحث عن غليونه بين الحجارة المتناثرة على الطريق، كنت مع راحيل في غرفتنا، نسمع كل ما يدور بينهم، أخافنا صراخه، فالتصقنا ببعضنا وكل منا يضع يده على فمه كي لا يسمع صوت أنفاسنا، إلى أن تلاشى خوفنا وسط موجة النعاس فلم نستيقظ إلا على صوت إيستر، تحثنا أن نجمع أغراضنا في حقيبة كبيرة، لا أعلم متى أحضرتها، كان أبي واقفاً أمام الإسطبل،

صامت كتمثال حجري، لا يتحرك منه إلا سحابات دخان ينفثها متلاحقة ومتسارعة، كان لقاؤه الأخير بالخراف وبحصانه الوحيد، لم يلتفت إلينا رغم ضجيج تنقلنا بين البيت والمخزن المحاذي له، ولم يبرح مكانه إلى أن أتى تاجر الخراف، لم يطل الوقوف مع أبي، دخل برفقة عماله إلى الإسطبل، وبدأ بنقل الخراف إلى عربته، عاد أبي يحكم قبضته على بضع أوراق نقدية، وقبل أن يصل إلينا، كان أريبل قد وصل بعربته الكبيرة، وقف أبي على بعد منه يرمقه بنظرات لم أستطع حينها أن أدرك معانيها، تلك النظرة الضائعة بين الرضى والقهر، وبين الرفض والموافقة، أدرك الآن أي ممر ضيق تزحف فيه مشاعرنا حتى تصل بنا إلى هذا القدر من الغضب، تكون مرغماً على فعل لم تجزه قريحتك، تلوم نفسك ثم تتمنى لو أنك تتلاشى كذرات غبار بعد أن تزدرد ريقا مرا ومسموما، كان بمقدورك أن تعب من الماء بقدر ما يتسع جوفك المحروق، كان بمقدور أبي أن يرفض، لكنه لم يفعل، كان كثيراً ما يغضب لنفسه، لكنه الآن غاضب عليها، كادت الأوراق النقدية من ثمن الخراف أن تتمزق في قبضته، كنت أرى توتر يديه في رجفتها، والعرق المراق على جبينه غزيراً ولزجاً، بقدر ما يشتعل في داخله من ظنون، لكن دموعه كانت أقدر على البوح، كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها دموع أبي، كنت أظنه من نوع

آخر من البشر، لا يبكي مثلنا، كنت أراه قوياً، ثابتاً ومغروساً إلى الأرض كجبل، أخبرتني دموعه كمْ كان هشا وضعيفاً، لم أدرك حينها لم بكى أبي، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يبيع فيها خرافه وحصانه، ما الذي أبكاه إذن، الآن فقط أدركت أنه كان مصاباً بوهم المعاني، توهم أنه مهزوم، وتوهم الفقر، وتوهم الموت في بقائه في مزرعته وبيته، تلك هي اللحظات التي سبقت قراره بالتنازل، فساقه الوهم إلى ما يبتغي.

أتى "أربيل" بعربته ليحملنا إلى محطة القطار، رفض أبي الجلوس بجواره، ألقى بنفسه فوق حقائبنا صامتاً متربد الوجه، خلال الطريق لم يسكت أربيل، كان يتحدث إلى إيستر ثم يستدير مخاطباً أبي، وفي كل مرة كان أبي يستدير برأسه إلى الجانب الآخر، وحين وصلنا إلى محطة القطار، بدأ أبي بإلقاء حقائبنا على الرصيف، متجهما وصامتا، كأنه يعاقب ذراعيه فيلوح بها في الهواء حتى تناثرت حقائبنا على جانب الرصيف، كانت إيستر تعي ما يدور في خلد أبي، لم تتأفف ولم تعترض، أسرعت إلى الرصيف تعيد ترتيب الحقائب، أرادت لكل شيء أن يتم كما خططت له، لا تود موجة من العناد قد تربك كل رحلتها، آثرت الصمت، وعلى الرصيف كانت مجموعة من الرجال يشبهون أربيل وكأنهم بذات الملابس نسخ متعددة منه، تقدموا نحونا، بدأوا بمساعدة إيستر في ترتيب

حقائبنا داخل عربة الشحن، وبعد لحظات انطلقت صافرة القطار، تقدم أحد الرجال من إيستر، وضع في يدها بعض الأوراق النقدية، كان أبي ينظر إليها من تحت إطار قبعته، بدا غاضباً ومضطربا، تنتفض يداه في حركات عفوية مفاجئة، ثم يرتجف كأنه يساق إلى الموت، أشفقت عليه، كنت أود أن أجري إليه، أن ألقي بجسدي الصغير بين يديه، كنت خائفاً منه وخائفاً عليه، لم يكن عقلي الطفل ليصور لي ما يحدث له، تلك القوة التي أجبرته على كتم كل هذا الغيظ أخافتني، صمته أخافني أيضاً، هذا الخوف الذي نما بداخلي، تفاقم بعد انتهاء رحلتنا، ومنذ ذلك الوقت لم تعد إيستر تلك السيدة الطيبة التي كانت تساعد أمي، وأصبحت فيما بعد زوجة أبي، الخوف الذي تربع في صدري صورها كأسطورة الساحرة الشريرة، تلك التي تجوب البراري تمتطي عصا من القش وقبعة متطاولة مثقوبة، بأنفها المعقوف وشعيرات كريهة تنبت من ذقنها، لم تفارقني تلك الصورة المخيفة، إلى أن أصبحت أخشى الانفراد معها في مكان واحد.

سار بنا القطار يشق الأفق المتسع أمامنا، كأن الأرض تدور حوله فلا تتغير الصور، الحقول متشابهة، وذات الدخان الأسود المنبعث من الأفق يدور حولنا كتعويذة شريرة، أصوات الانفجارات المتداخلة كانت بعيدة، تنقر مسامعنا ثم تبتعد، إلى أن وصلنا ميناء

نوفووسيسك[4]، لم يكن حال أبي من الشرود والصمت بأحسن حين انطلقت بنا باخرة العودة كما كانت تسميها إيستر، كلما ابتعدت بنا عن رصيف الميناء، حث أبي خطاه إلى مؤخرة الباخرة، ينفث دخان غليونه، ثم يطلق سيل من الشتائم ويبصق في البحر كأنه يوبخه، لم تفارقني تلك الصور التي حفرت لنفسها مكانا في رأسي خلال رحلتنا الطويلة، وأظنها باقية كشيطان يرصد كل كلمة أنطق بها.

كانت اللحظات الأولى التي نطأ فيها رصيف الميناء، موحشة رغم ازدحامه، رصيف خشبي يعج بالصناديق الخشبية الكبيرة، والحمالين، سقائل من الخشب تمتد من حواف البواخر إلى الرصيف، وعمال تميد سيقانهم تحت ثقل الصناديق، وصلنا إلى ما يشبه الثكنة، مساحة مسيجة بقدر كبير من الأسلاك الشائكة، تحيط بعدد من غرف الغرف الخشبية، يتناوب على الدخول إليها والخروج منها جند بملابس غريبة وقبعات عسكرية تتزين ببعض الريش الملون، كانت المرة الأولى التي رأيت فيها هياكل مشابهة، في ذلك المساء الذي رافقت فيه أبي إلى السيرك، كانت بنادقهم تفوق طول حامليها، وبنطال قصير لا يكاد يخفي دقة سيقان الجند البيض، كان الحوار الأول مع أبي منذ أن انطلقنا في رحلتنا

4 أشهر الموانئ الروسية على البحر الأسود

الطويلة، سألته من هؤلاء؟ أجابني بشفتين مغلقتين وأظنه كان يطبق فكيه حتى جاء رده ممزوجاً بصرير أسنانه، إنهم الإنجليز، على هذا النحو كان رده، استشعرت في الرد مقدار كرهه لهم، فأصبحت مثله أكرههم.

إيستر كانت أكثرنا بهجة، تدور حول نفسها، مأخوذة بالدفء والشمس، تتفرس في وجوه الجند كأنها تبحث عن شيء في ملامحهم الجامدة، لم نكن وحدنا على ظهر السفينة، ثمة عائلات تسللت من بين الصناديق وانحدرت بجانب الشاطئ كأنهم يعرفون وجهتهم، أنا وأبي كنا غرباء لم يفلح هذا الحشد الكبير من الناس والجند في إشعارنا بالألفة التي كانت تجلل إيستر، تمسكت راحيل بذراعي، حين انشغلت عنها أمها في تفحص وجوه العابرين، ضممت يد راحيل وسرنا على غير هدى، نتتبع بصاق أبي في كل ركن يلتفت إليه، كأني بداخل صدره أرى انتفاخ رئتيه بهذا القدر من الغضب، أذكره حين يدركه التعب في ترويض حصان بري، كان يبصق بجوار الحصان ثم يتركه ويذهب، كذلك كان تعبيره عن الغضب حين تهرب منه الكلمات، تلك اللغة الغاضبة، سكتت حين ساقته إيستر.

بعض الكلمات أقل قدرة على احتواء الغضب ووصفه، تلك النقطة الملتهبة تتمدد، فتحترق كل الفضائل، ولا تُبقي في الصدر إلا بقايا

رحمة امتصت دخان الحريق فتشوهت، على هذا النحو من تراكم الغيظ في صدره، احترق كل شيء بداخله، تغير أبي، وتغير معه ما تبقى حياتنا.

تقدم نحونا رجلان، كانا يعتمران قبعات تشبه إلى حد كبير قبعة أرييل، وسراويل سوداء تتدلى من جانبيها خيوط بيضاء، هرولت إيستر باتجاههم، وبعد لحظات كنا نقطع حقول القرويين برفقتهم، إلى أن وصلنا إلى تعاونية محاطة بقدر كبير من الأسلاك الشائكة والحراس، تناثرت بداخلها بيوت خشبية وأخرى من الصفيح، كان ثمة بيت خشبي قديم يشبه الكوخ يتكئ على ربوة تطل على حقل واسع، وضعنا حقائبنا عند المدخل الخشبي المتهالك، فيما ذهب أبي ليجلس على جذع شجرة ملقى أمام كوخنا، يتابعنا بنظرات حمراء حانقة.

بينما انشغلت إيستر بتنظيف الكوخ، وقفت بجانب الباب أنظر إلى أبي، لم أكن قد تجاوزت العاشرة من عمري، لكن الكثير من الأحداث علقت في ذاكرتي البعيدة، ولم أفلح في اقتلاعها من رأسي، رغم تقلبات حياتي الآتية، كنت حاضراً وشاهداً كيف نمت في داخل أبي بذرة الندم، كيف تطاولت فروعها، وأحكمت التفافها على عنقه، كان يروي قصص صباه في "فياتسكو"، تغلبه الدموع حين يطول الحديث عنها، فيهرب منا إلى ركنه الخاص في غرفة خشبية

بناها في الساحة الأمامية، تنامى شعور إيستر بالقوة، رجال يحيطون بها، كلما غاب أحدهم لبضع الوقت أتى آخر إن لاحت له فرصة الاقتراب منها، كنت أراقب انشغالها بهم عنا، وكان أبي أكثرنا ضيقاً بحياة إيستر الجديدة، كنت أرى كل إيماءاتها الفاحشة، وتمايلها على كتف احدهم بعد ان تستغرق في نوبة ضحك صاخبة، كم عاودتني تلك الذكريات التي أشفقت على أبي منها، حين قادتني قدماي إلى إسطبل الكيبوتس[5]، كانت إيستر نصف عارية، لم أر إلا ساقيها المنفرجين حول أحدهم، لكنني سمعت غمغماتها المحمومة، فصرت في الأيام اللاحقة أراها في بائعات الهوى على نواصي الطرقات الموبوءة بكل رذائل الأرض، لعلها دفعت ذات الثمن لأرييل كي يمهد لها طريق، وربما ثمناً مضاعفاً لأنها أرغمت أبي على ترك أرضه ومرافقتها في رحلتها خلف حلمها وكوابيسنا، كان أبي ملتصق بزاويته المظلمة، لا يغادرها إلا لقضاء حاجته، ثم يسرع إليها كأنه يهرب من الشمس، كان يخفي عينيه بكفه حين يخرج من مخبئه، فكرهت الشمس لأنها لم ترحم عيني أبي، لم يفقد أبي أرضه هناك في فياتسكو، فقد شيئاً من روحه فبدا شاحباً كالأموات، كان على قيد الموت إلا قليلاً من شفة مرتخية وراجفة، واياد رق جلدها، وعينتان غارتا في محاجر اسودت حوافها، لم

5 الكيبوتس هو تعاونية مغلقة يسكن بها عدد من المزارعين والعمال

اكن لأعي ما يدور في نفسه المتعبة، لكني علمت لا حقاً أن العطب أصاب جذوره حين اقتلعته إيستر، وتشبعت مساماته من ملح البحر حين كان يعب من هواء الأشرعة وحيداً في مقدمة السفينة، وعيناه لا تبرح ذات الاتجاه الذي سلكناه كقطيع خراف تسعى خلف راعيها، وحين تعانق لهيب الشمس مع الهواء المتخم بالملح فوق ظهره العاري، تقلصت روحه الخضراء، حتى خنقها الجفاف، كصندوق مهترئ سقطت منه كل المقتنيات الثمينة، كعجوز بالغت في تغليف هداياها، وتذكارات الصبا، ثم وضعتها في صندوق متهالك، فسقطت من قعر الصندوق ولم تشفع لها أغلفتها المحكمة، كذلك كان أبي، بالغ في تغليف ذاته، وحفظها، ثم رضي أن يكون شيئاً من مقتنيات إيستر، و حين حملته في صندوقها، خر كسائل لزج من قعر الصندوق، نزت كل ذكرياته من بين أصابع الماضي البعيد، أتعلمون أن الماضي لا يكون بعيداً أبداً حين نمتلك قدرتنا على استحضاره، لكننا حين ننتزع أنفسنا من الحاضر إلى ضباب المستقبل، يضيع ماضينا، لا شيء يربطنا بذكرياتنا سوى ما تبقى منها حاضراً، نراه ونتحسس ثناياه و ما تبقى منه أمامنا، قد نرى الحبيبة في حجر جلسنا عليه ذات يوم، قد ترى حبيبتك في لمعة عين ضاحكة تمر بك فتفتق ستر النسيان في أعماقك، وتعيد إليك صور ظننت ان ممحاة الزمان قد أتت عليها، وقد نرى طفولتنا

الغضة في حقيبة قديمة حملناها يوماً إلى المدرسة، أما أبي فلم يتبقى له سوى واقع ينكأ جرح غائر في صدره، لا شيء يذكره بالماضي، وقد انشغلت نفسه المتعبة بحاضر ذو حجب غليظة، كطبقات من الركام، يجاهد كي يفتق أحدها فيصطدم بحجاب آخر أكثر قتامة وسمكاً، إلى أن مات فيه كل توق للحياة، كانت المرة الوحيدة التي حدثني فيها عن مرارة إحساسه القاتل بالغربة والوحدة، لم أسمع كثير من كلماته، كأنها تخرج من فجوات في شاربه الأصفر الكثيف الذي يغطي فمه، لم تثيرني كلماته بقدر ما أثارتني البحة المكسورة في نبراته المخنوقة، كأنه يصارع الكلمات كي تخرج معافاة من بين شفتيه، وكنت أدرك انها احترقت في صدره قبل أن تخرج، لفحتها نار متأججة في صدره، وامتدت ألسنتها تصبغ عينيه احمرارا وتوقداً، تلك الحروف المتناثرة لم تكن أعمق أثراً من انكسار صوته، كنت أجلس إلى جواره، استرقت النظر إلى كتفيه، كانا أضيق مما عهدتهما، ضاق صدر أبي فجذب كتفيه، هذا الضمور لم يكن يفترس جسده فقط، تآكلت روحه أيضاً، فلم يعد يطيق الخروج من مخبئه، حتى شحب لونه، وتجمعت طبقات سوداء من الأوساخ تحت أظافره الطويلة، لكن كلماته ظلت تراوغ أحداقي، كحلقات من ضوء متداخلة، تتراءى للعين حين

يفاجئها النور، ظلت تحوم برأسي كحمامة أظلم حولها الكون فلم تهتدي إلى عشها، إلى أن قال لي يوماً:

- أهرب يا ولدي حين يشتد عودك.

أيام طويلة تبدلت وتعاقبت، كشريط سينمائي، أراها اليوم كمن يستعيد استعراض الصور لنبتة تتطاول في لحظات اختزلت أشهر بل سنوات طويلة، ذهبت راحيل وامها إلى معهد لتعليم اللغة العبرية في كيبوتس مجاور، لم يأخذوا أبي، ولم يأخذوني، تعلمت لغتهم مما تتعلمه راحيل، لم يخبرني أحد بسبب رفضي وانا لم أسأل، كذلك كان أبي في سجنه الطوعي، لا ظل لجسده الواهن، ولا صوت لحلقه الذي أظنه تشقق ولم يعد صالحاً للكلام.

تعاقبت الأيام حتى كبرت راحيل، كل ما فيها تدور وكأن جسدها الغض تفتح فاختلفت تضاريسه، كنت أشعر أنني أكبر منها بسنوات، رغم الفارق الضئيل في أعمارنا، لعلي كنت أحب الطفلة فيها، لم أكن بحاجة إلى استراق النظر إليها كي تنمو مشاعر الحب في صدري، كنت أحبها قبل أن نعلو، بهذا المعنى المبتور اصطلحوا تسميتنا بالقادمين من أسفل، أو الصاعدين إلى الأرض، لم أتجشم عناء الشرح لفهم ما يعنون، فكل شيء هنا مصبوغ بألوانهم وبلغتهم التي كنت أشعر بألم يكاد يفتق فكي عندما أكون

مضطراً للحديث بها، لم أكن أتحدث بها إلا مع راحيل التي أظنها نسيت لغتنا الأم، وبحكم دراستها كانت كثيراً ما تخرج من الكيبوتس، وتكرر خروجها في غير أوقات الدراسة، تسللت ذات يوم خلفها، كانت الشمس تلملم أخر خيوطها وتنسحب، تواريت خلف جذع شجرة، كنت خلفها تماماً، خارج بوابة الكيبوتس ثمة عربة صغيرة في انتظارها، أسرع سائقها الشاب نحو راحيل، وكأنها القت بنفسها بين يديه، التقفها ودار بها حول نفسه، ثم غط في قبلة طويلة، إلى أن تفلتت من بين يديه، و رحلا معاً ينثرون خلفهم غيمة من غبار الطريق، وينفخون ناراً استعرت في صدري ولم تخبو، تكرر المشهد مراراً، وفي كل مرة كنت أكرر مراقبتها وأعود مخذولاً كطفل يهرول إلى حضن أمه فتستقبله بصفعة على وجهه.

وفي مساء صيفي، كنت أجلس امام بيتنا الخشبي في إنتظار عودتها، انتصف الليل إلى أن تبادر إلى مسامعي صوت عربة صديقها، أتت من بعيد تهرول كطفلة فرحة، كانت تقفز بحركات أقرب للرقص، وحين إقتربت مني، انحنت برأسها لتقبلني، كان مزيج روائح الأدخنة والخمور المنبعث مع انفاسها كريه يدعو إلى التقيؤ، ملت برأسي إلى الجانب الآخر، ودفعتها عني برفق، فانطلقت منها ضحكة صاخبة وفاجرة، وقفت أمامي بملابسها

الشفيفة، نزعت قميصها فتعرى صدرها وجذعها، ثم القت حذائها بحركة من قدميها، تقدمت مني وأمسكت بيدي، سحبتني خلفها، كنت قادراً على منعها، لكن شيئاً ما بداخلي كان يتوسلني أن أتبعها، سرت خلفها ككلب مربوط بيدها، فاقتحمت المخزن الذي يقيم فيه أبي، كان الباب المفتوح على مصارعيه كافياً ليدخل بعض الضوء إلى ساحة المخزن، المغطاة بالتبن والأعشاب الجافة، القت بنفسها أمامي، ثم قالت بلغتها اللعينة:

- تقدم، لا تخف .... انا لم أعد عذراء

كنت أقف في نقطة بين ساقيها المنفرجين، هذا الانبعاث الشيطاني يغلي في رأسي وصدري، يحرض كل غرائزي، فاضطربت حواسي، ولم أعد أذكر أي كلمة يجب أن تقال، فقدت توازن الوقت في نفسي، فلم أعد أذكر شيئاً من حياتي، ولا أذكر من هي تلك المرأة التي تدعوني إلى وجبتها الطازجة، في الحقيقة لم تعد طازجة فقد ولغ فيها ذلك الأشقر النحيف، الذي يصحبها بجانبه كل يوم، ثم يعيدها بعد أن يقضم من جسدها ما يشاء ويقضم من روحي أشياء.

لم أشعر بوجود أبي في ذلك الركن المظلم من المخزن، قادتني لمعة خافتة من عينيه إلى اتجاهه، فتجمد كل شيء في جسدي الذي كان ينتفض للتو، استطعت ان أرى رغم ظلمة المكان كيف انكفأ

كذئب جريح، تكور في نفسه، كأنه وجد ملاذاً لنفسه بين ضلوعه، شعرت بأن رأسي يتشظى وتتناثر منه أحلام متوحشة، تلك المشاعر اللزجة تنساب فوق مائي الآسن كطحالب تأكل بعضها، فتنمو إحداها على جسد الأخريات، كذلك تآكلت تلك الرغبة المحمومة في مطارحتها الغرام إلى كراهية تتفشى فتأكل رغبتي في الحياة.

أيقظتني في اليوم التالي دمعة سقطت من عين أبي، كنت ملقى بجواره، مستنداً برأسي على فخده، نظرت إلى وجهه، نصف عينيه مغطى بحواجب بيضاء كثيفة، كأن شعر حاجبيه الكثيف نبت فجأة، رأيت في عينيه كيف تحول لونها الأزرق إلى لون رمادي باهت، انطفأت فيها لمعة التوق إلى الحياة، وتشابكت الرموش حولها، لم يكن ذلك أبي، أنكرت هيئته المخيفة، كالرجل البدائي الأول، تكوم في مخبئه كسجين هارب، خلته ميتاً للحظات، فاستعر صدري بريح الانتقام، لكنه سرعان ما تلاشى شعوري الأهوج.

ممن سأنتقم، من راحيل التي أعشقها، أم أنتقم منه لأنه أطاع إيستر صاغراً وذليلاً، أنا كذلك رغم فحش راحيل أحبها، أقف حتى يتجمد الدم في ساقي كي أكون قريباً منها للحظات، استغرقني كثير من الوقت كي أفيق من شرودي، وهو لم ينبس بكلمة واحدة، كنت انظر في عينيه الذابلتين صامتاً ، وما زلت أراه ميتاً، لم أكن قريباً منه

كتلك اللحظات التي أخذتني إلى عوالم غريبة، و خيالات سوداء، شيء بداخلي يحرضني على الكلام لكن كل حواسي كانت قد أعلنت عصيانها منذ الليلة البائدة، ترى ما الذي يمكنني فعله إن مات أبي، لم يكن قريباً مني، ولكن ذلك الشعاع الذي يغذي روحي كان مختزل بوجوده، كنت مطمئناً لأنه هناك في سجنه الطوعي، إعتدت وجوده وانه سيكون بجانبي، كان قوتي وضعفي، عندما مات أنكيدو[6] بحث رفيقة جلجامش عن سر الخلود ليتخلص من ثلثه البشري الهالك، وعاد خائباً، أما أنا، عن أي شيء أبحث بعده، لا رغبة تسكن صدري في البقاء، بعد تلك الليلة التي نفرتُ فيها من راحيل، و لا أدري كيف استطعت أن ألجم خيول الشهوة العارمة في صدري، كيف اختلطت تلك الرجفة الطارئة بين رغبة تتمزق ناراً ولظى كأفران صهر الحديد، وبين نفوري من جسدها العاري المختلط بأبخرة الدخان والخمر كرائحة قبو النبيذ.

مسح أبي جبيني بيد راجفة ترهل جلدها، واصطبغت ببقع داكنة، شعرت به يحاول جاهداً أن يعيد ترتيب ملامحه لتصبح أكثر طمأنينة فلم يستطيع، انفرجت شفتاه، فبدا الفراغ في مقدمة أسنانه بشعاً، أشفقت عليه، وددت لو أني أحتضنه، بعد ان تساقطت أجزاء من روحه قبل أن تسقط بعض أسنانه، لكنني لم أفعل، كانت

[6] أنكيدو هو الرجل البدائي (رجل الأدغال والكهوف)

مشاعري مضطربة، أحب راحيل وأكرهها، حتى وددت أن أجد لها سجناً كذلك الذي بناه أبي وأسكن روحه في ظلمته طائعاً، أشفق على أبي، وألومه على رحيلنا حد الكراهية، كم تساءلت كيف تسكن في قلوبنا مشاعر متناقضة، لكنني أدركت لاحقاً أن للغرائز قدرة متقنة على احتلال المشاعر، قال أبي ذات يوم عندما سألته :

- كيف يأكل الناس هذا البصل الذي تزرعه؟

أجابني يومها باسماً:

- قد تكره تفاحة، ولا تشتهي أكلها أو الاقتراب بها من فمك، لكنك إن جعت ستبحث عن التفاحة المهملة لتأكلها.

كانت مجرد كلمات كنت أحسبها تسرية للوقت، أدركت قيمتها لاحقاً، كمن طمر بئراً مخافة أن يسقط فيه، ثم جلس بجواره عطشا وجافاً، حديث أبي القليل والمتباعد كان بئري، الآن فقط أدركت قيمتها، تماماً كذكريات صاحب البئر حين كان يكرع من ماء بئره كبعير قتله الظمأ وحين طمر بئره جلس بجواره يندب حظه.

أفقت من مسرح الصمت بجوار أبي، إلى صوت راحيل من خارج المخزن، لم تكن لدي رغبة في رؤيتها، لا أريد أن أنكأ جرحاً ما زال راعفاً، فباغتتني بوقوفها بجواري، منحنية الرأس، كمذنب

وقف في الكنيسة في صومعة الاعتراف، نظرت إلى وجهها، كانت رموشها المنسدلة، ووقفتها الخجولة كافية لتزيح عن صدري أي صور أخرى، أمسكت بيدها، وسرنا معاً خارج المخزن، التفتُ إلى أبي، بسمة باهتة ارتسمت على شفتيه، أوقفتني للحظات قبل أن تشدني راحيل لأسير معها، أخبرته صامتاً:

- ها هي التفاحة يا أبي، أمسكها بيدي، قد لا أقضم منها شيئاً.
- ستأكلها يا بني، ستناديك رغبة الجوع فتأكلها.
- ربما أبحث عن تفاحة أخرى.

أومأ بيده أن أبقى واقفاً، وقال بصوت ضعيف راجف:

- أتعلم يا بني، في غابر الأيام، ذهب أحد المستكشفين الرحالة إلى غابة نائية، ثمة قبيلة بدائية تسكن قرب جدول ماء، يعتاشون من ثمار الغابة ولحوم الضواري، كان لهم تقليد متوارث، حيث يذهب الرجال بأولادهم الصغار إلى جدول الماء، كل يبحث بين حصى شاطئ النهر عن صخرة صغيرة مدببة، يجرح بها ساقه ثم يترك لدمه النازف أن يختلط بماء الجدول، وعلى أبنائه أن يغرفوا بأكفهم الصغيرة من الماء الأحمر فيشربون، و من يتأخر في غرف الماء المختلط بالدم يعاقب، لأنه حينئذ يرغم أباه على جرح ساقه مرة أخرى، في

ذلك اليوم لا يحضرون الماء ولا يشربون حتى يستبد الظمأ بأبنائهم، استنكر الرجل الغريب طقوس القبيلة، وحاول جاهداً أن يقنعهم بأن عاداتهم مجرد هراء، وانهم يتسببون لأبنائهم بالكثير من الأمراض، فلم يطيعوه، كانت طقوسهم تقضي بمشاركة كل رجال القبيلة، حتى أولئك الذين لم يتزوجوا بعد، فكان مضطراً لمرافقتهم، تكرر حضوره تلك الطقوس إلى أن استبد به العطش يوماً ما، فلم يجد بداً من الشرب مع الصغار من ماء الجدول الممتزج بالدم، فامتنع عن محاولات إقناعهم.

سمعت راحيل القصة التي رواها أبي، فقالت عندما خرجنا:

- يبدو أن والدك قد أصابه الخرف، ما علاقة ما يقول بنا.

أغضبني وصفها لوالدي بالعجوز الخرف، لكنني لم أظهر غضبي، تماسكت وقلت لها:

- يبدو أنه الحنين لبلاده ولقصص الصبا.

جلسنا معاً على كرسي خشبي أمام بيتنا، ضمت راحيل يدي بين كلتا يديها، وقالت بصوت هادئ وناعم:

- أرجوك يا إيفانوف لا تغضب مني، كنت ثملة، ولا أدري ما الذي دفعني للتعري.

- لم يغضبني عريك، لم يكن أي شاب في مكاني ليرفض دعوة الرغبة المحمومة، غضبت لأني لا أريدك على النحو من البذاءة.

ألقت رأسها على كتفي، لفتني بذراعيها، وكان ذلك كافياً كي يمحو من صدري كل غضب، أنا أحبها، وأريدها خالصة لي، أحكمت قبضة ذراعيها على جسدي، وقالت:

- لن أخرج مع الأشقر مرة أخرى، لكن أرجوك لا تغضب.

بعد عدة أيام كنت أسير محاذيا لسور الكيبوتس، نهرني أحد الحراس وطلب مني أن أبتعد، سرت عدة خطوات باتجاه بيتنا، لم يكن هناك ما يبرر للحارس طردي، لذلك وقفت على بعد أمتار من السور، فاقتربت شاحنة قديمة من غرفة خلف برج الحارس، ترجل منها شابين، كانا يلتفتان كأنهما هاربين من شيء ما، بعد لحظات بدأوا بإفراغ حمولة الشاحنة في الغرفة، كانت صناديق خشبية كبيرة، قدرت أنها تحتوي أشياء ثقيلة من تراقص سيقانهم تحت وزنها، لم أهتم بما أفرغوه في الغرفة، كنت معتاداً على شاحنات مشابهة تأتي إلى الكيبوتس بين يوم وآخر، ما أثار ظني هو طردي كي لا أرى الشاحنة، لكن ظنوني لم تستغرق وقت طويل لتتلاشى، في طريقي إلى بيتنا قابلت راحيل في تسير باتجاه بوابة الكيبوتس،

وعندما سألتها عن وجهتها، قالت أنها تلقت دعوة من منظمة البلماح[7]، لم أكن أعلم ما تعنيه الكلمة، أخبرتني راحيل لاحقاً أنها منظمة يهودية أنشئت حديثاً، أكملت مسيري باتجاه بيتنا، كانت إيستر تقف عند باب المخزن، تصرخ بصوت مرتفع، لم تنتبه لوقوفي خلفها، كانت تقول لأبي:

- لا بد أن تخرج من هنا، أنظر إلى نفسك، كحيوان بري هرم، أتيت لأحذرك بأن إدارة الكيبوتس ترفض وجودك على هذا النحو من الانطواء والعزلة، أنت تثير شكوكهم، لا أستطيع أن أستمر في الدفاع عنك وتبرير صمتك أكثر مما فعلت.

التفتت أيستر خلفها، رأتني واقفاً خلفها، فهدأ صراخها، إقتربت مني وقالت:

- حاول أن تقنعه يا إيفانوف، هم يعتقدون أنه دخيل عليهم، قريباً سيلقون به خارج الكيبوتس، أنت تعلم أن العرب يحيطون بنا من كل اتجاه، لن ينجو من أولئك الأوغاد.

أومأت برأسي موافقاً وقلت لها:

[7] بلماح هي اختصار لكلمة " بلوجوت ماحاتس»، أي «سرايا الصاعقة» وهي الذراع الشبابي لمنظمة الهاجاناه.

- سأعود إليه ليلاً وسأحاول إقناعه.

انصرفت إيستر، وعدت أجلس على ذات الكرسي الخشبي، أشعر بأنني في وسط متاهة عظيمة كمتاهة ثيسيوس[8]، لا أعرف من هم أولئك الذين تنعتهم إيستر بالأوغاد، كذلك وجود الإنجليز المسلح في كل بلدة وشارع، لم أكن لأفهم سبب وجودهم، وما تلك التجمعات بأسمائها الغريبة تحيط نفسها بهذا القدر من الأسلاك الشائكة والحراس والتي أسكن في إحداها كسجين.

لم يطل غياب راحيل، عادت تحمل حقيبة من قماش مليئة بالأوراق المتشابهة، جلست إلى جواري، اعتدلت لتظهر قدراً من الجدية، ثم قالت:

- العالم من حولنا يغلي، ونحن هنا محاطون بالقرى التي يقطنها العرب، والحرب تقرع أبواب الدول المحيطة بنا، لا بد أن نجد لنا متسعاً وسط هذا الزحام.

لم أفهم ما تقول راحيل، فسألتها:

- نحن نسكن في مساحة شاسعة محاطة بالأسلاك والحراس تكفي لأضعافنا من السكان، لم نطرد القرويين البسطاء من أرضهم.

---

8 ثيسيوس كان الملك الأسطوري والبطل المؤسس لأثينا وهو الذي صمم أول متاهة عشبية

- نحن أصحاب الأرض التي يقيمون عليها ويزرعونها.
- أي أرض يا راحيل؟ ألم نترك أرضنا في فياتسكو، كيف نكون أصحاب هذه الأرض أيضاً؟
- لا عليك يا حبيبي، أنت لم تدرس التلمود مثلي، كنت ستعرف كيف نكون أصحاب هذه الأرض.
- أذكر أن إيستر أخبرتني قبل رحيلنا من فياتسكو، أنها تزوجت أحد العرب من تجار الشام، كان قد اعتاد أن يقيم بجوار بيتها حتى تنتهي رحلته التجارية، وأنه تركها وعاد إلى بلاده عندما كانت تحملك في أحشائها ولم يعد ....

قاطعتني راحيل وقد تربد وجهها، وجحضت عيناها، كنت أخالها ستنفجر، إلى أن وقفت، وصرخت:

- لست ابنة أولئك الأجلاف، لعلك نسيت أن أمي يهودية.

لم يكن يهمني كثيراً بأي طريقة شيطانية تفكر راحيل، كنت راضياً بأنها أوفت بوعدها بعدم الخروج مع الأشقر النحيف، أردتها لنفسي، ولتعتقد ما تشاء، لذلك وقفت بجوارها، ضممتها إلى صدري، وطبعت قبلة على جبينها، فعادت تلتصق بي كقطة خائفة.

بعد لحظات من الصمت قالت:

- ألن تساعدني في توزيع الأوراق التي أحضرتها؟
- سأفعل بالطبع، ولكن لمن سنوزعها؟

أخرجت بضع أوراق من حقيبة القماش التي تحملها، كانت مكتوبة بخط عربي، لم أستطيع قراءته وأظنها مثلي أيضاً لا تعلم ما هو مكتوب فيها، فوافقت خشية أن تغضب فتبتعد عني.

تغيرت ملامحها الغاضبة وكأنها كانت تحمل وجهاً آخر خلف رأسها، وقالت بصوت غنوج:

- كل ما عليك فعله هو أنك ستسير في شوارع القرى المجاورة تحمل دلو من الغراء، ستمسح كل نقطة على الجدار بقليل من الغراء وتمضي إلى نقطة أخرى.
- كيف سأعرف أي نقاط تلك التي سأدهنها بالغراء؟
- لا عليك فقد سبقنا أحد رفاقنا يدعى يوناتان ووضع نقاط طلاء حمراء في الطرقات التي تزدحم عادة بالناس، ستعرفها بمنجرد رؤيتها.

صمتت قليلاً ثم أردفت:

- كنا في لقاء اليوم في منظمة البلماح، كم ضحكنا عندما أخبرنا يوناتان أن العرب كانوا يجتمعون حوله، أحدهم تطوع ليحمل

معه دلو الطلاء ظناً أنه يضع تلك العلامات كي يعبدوا شوارع القرى.

ضحكت لضحكها الصاخب، دون أدرك ما معنى ما تقول، وفي ظهيرة اليوم التالي خرجت أحمل دلو الغراء وفرشاة كبيرة، كانت راحيل قد طلبت مني أن أبدأ عملي وقت الظهيرة، قالت إن المزارعين العرب يصلون ثم يعودون إلى بيوتهم ولا يخرجون منها إلا بعد إنكسار حرارة الشمس، أثار حديثها مخاوفي، وسألتها:

- لماذا ننتظر غيابهم ما دمنا لا نخافهم؟

أجابتني ببرود وجرأة:

- لا يهنأ الأسد في التهام فريسته والكلاب تدور حوله.

ثم أمعنت في ضحكة فاجرة.

ذهبت إلى هناك، سرت وجلاً بين البيوت الطينية، صادفني بعض الصبية، ساروا بمحاذاتي، لم يكن في وجوههم ما يثير الخوف، ويبدد الألفة، تنظر عميقاً في أحداق أحدهم، فترى طمأنينة كامنة وراسخة، لمعت في رأسي للحظة مقارنة غريبة بين تلك الأحداق الراجفة لرفاق راحيل، تتحدث إليك وتنظر في كل اتجاه، وبين هذه الأحداق الطفلة التي تدور حولي مختزلة كل مرادفات البراءة، كم

كرهت تلك النظرة التي يسترقها رفاق راحيل من زاوية أعينهم وكأنهم يتلصصون.

عدت سريعاً من خيالاتي، لم يكن متسع لخيالاتي وأنا أتصبب عرقاً، رغم قبعتي الكبيرة، كانت الشمس تمارس سطوتها على رأسي الذي تبرعم بين الجليد بعيداً عن لهيب الشمس، بدأت أتبع النقاط الحمراء على جدران البيوت والدكاكين، أضع فوق كل علامة شيئاً من الغراء، استوقفني أحدهم، كان يسير خلفي حذراً، كان يحمل أوراق كتلك التي أتت بها راحيل، كان يتتبع خطاي وعلى كل علامة كنت قد وضعت عليها شيء من الغراء، كان يلصق ورقة ، ثم يأتي آخر خلفة، يتصنع محاولته قراءة الورق الملصق على الجدران، يتحسسها بيديه إلى أن يكتمل التصاق كل أطرافها بالغراء.

أنهيت مهمتي الأولى، وعدت إلى الكيبوتس بدلو الغراء الفارغ، لكني رأسي لم يعد فارغاً كما حملته عندما ذهبت، أدركت أن شيئاً ما ينمو ويتضخم، كحمم تغلي في أحشاء الجبل، لن تلبث حتى تنفجر.

راحيل وإيستر كانتا في انتظاري، فعرفت أن إيستر أيضاً جزء من المنظمة، وبمجرد أن وصلتهن، أمسكت إيستر بيدي، ودخلت بي

إلى البيت، فيما سارت راحيل بجواري تحتضن ذراعي، كانت أيستر قد أعدت وليمة لم أتذوق مثلها من أن وطأت قدماي هذا الكيبوتس، كانت تلك طريقتهن لمكافأتي، لكن مكافأة راحيل ليلاً كانت أعمق وأدل على القرب والإندغام.

أصبحت راحيل أقرب، ترافقني في كل مكان تخطوه قدماي، كنا نحيا معاً كزوجين، نغفو ونصحو ملتصقين كتوأم سيامي[9] كثيراً ما عادت إيستر لتجدنا عراة في فراش واحد، كان تلقي التحية ثم تنصرف إلى غرفتها.

ذات مساء كنا نسير معاً في الطريق التي طردني منها الحارس قبل أسبوعين، عند باب الغرفة كان ثمة رجلين يرتكزان إلى حائط الغرفة، أشار أحدهم ملوحاً بيده لراحيل، فحثت خطاها تجرني معها، تقدم منها احدهم، وضع يديه على كتفيها وطبع قبلة على خدها، بعد أن عرفتني بهم دخلنا معاً إلى الغرفة، كانت مليئة بالصناديق الخشبية التي رأيتهم يدخلون بها، فتح احدهم صندوق قريب، فتقدمت منه راحيل، سرت خلفها، لكني تراجعت عدة خطوات إلى الوراء، عندما رأيت أن الصناديق تحوي عشرات البنادق الآلية والذخيرة، وعندما سألت راحيل بعد خروجنا، قالت:

---

9 التوأم السيامي، هم التوأم الذين يولدا ملتصقين جسدياً

- نحن نملك من هذه الأرض معظمها، وآلاف المضطهدين اليهود ممن يسكنون بها، لا بد من قوة تحميهم وتحمي ممتلكاتهم.

لم تكن مبرراتها لتخزين كل هذا القدر من السلاح لتثنيني عن اعتقادي بأن الناس لا يحتاجون إلى سلاح كي يتشاركوا الحياة، أنا اكاد أشتم رائحة دم تخثر على أجساد البنادق والصناديق، تفوح من عبق الصناديق المبالغ في تخزينها، رائحة تشبه تلك الرائحة التي شممتها حين إقتربت من أمي عندما ماتت، إنها رائحة الموت، تلك التي يختلط فيها عرق المتعبين مع رائحة الدم و قليل من عبق الخوف ورائحة الأفواه الجافة، هذا الخليط التي يتشكل في الظلام والبرد خلسة، يشبه إلى حد ما تلك الجلسات التي كانت تجرني إليها راحيل، بين زحام القبعات السوداء، والكيباة[10] و قهقهة الكهنة ذوي السوالف المتدلية كحبال المشانق، كلاهما كان يستدعي إحساسي باليتم والغربة والغثيان، لم أكن أفرق بين هيئاتهم، جميعهم يعتمرون ذات القبعة والبدلة السوداء وخيوط بيضاء تتدلى من جانبيهم، يلبسون نظارات طبية متشابهة، ترتكز على انوف طويلة ومعقوفة، كنت أمقتهم، صمتي فقط كان ستار أخفي خلفه عجزي وخوفي،

[10] الكيباة هي قبعة صغيرة يلبسها المتدينون من اليهود في طقوسهم الدينية

وفي كل مرة أجالسهم فيها، كان إحساسي بكرههم يتعاظم، لكني كنت جباناً واختبأت خلف صمتي.

كنت قد سمعت من أبي ذات مرة ان البلاشفة[11] اتوا ليقسموا الفقر على الناس بالتساوي، كانوا يظنون انهم الأوصياء على رقاب الناس وحياتهم، هنا هم يتبعون ذات المنطق، يعتقدون انهم يملكون الأرض ومن عليها، ومصير أولئك القرويين الفقراء رهن لنزوات القتل وسعارٍ كأساطير مصاصي الدماء.

تأصل الخوف في كل لفتة مني، وتولد في صدري شعور مقيت بالعجز والخوف، وحدي كنت أرى نفسي على حقيقتها الجبانة، كنت أسير خلف راحيل، وكان عليَّ ان أحب ما تحب، كنت غارقاً في قعر وادٍ جف مائه الجاري وترك حجاب كثيف من طين سبخ ولازب، أنظر إلى قدماي مغروسة فيه، كان قدماي مكبلة بحبال الوهن التي تدلت في صدري.

ذات مساء خرجت أبحث عن راحيل، أخبرتني إيستر انها خرجت قبل ساعتين وأنها ستعود قريباً، قادتني قدماي إلى خارج الكيبوتس، فمررت بجانب القرية التي طليت جدرانها بالغراء ذات يوم، كان

11 البلاشفة هم فرقة من الحزب الشيوعي الروسي الذين قاموا بثورة العاشر من اكتوبر عام 1917 لإنهاء حكم القياصرة

القرويون العرب عائدين من حقولهم، يسيرون بسلام ووداعة، جلست على حجر كبير ملقى على ناصية الطريق، لم أشأ أن أسير بينهم، كانوا يمرون بي، ينظرون نحوي، فيبتسمون ويلقون التحية، بعضهم كان يلوح بيده، إقترب مني احدهم، كان يحمل على ظهره كيس كبير من القماش، أنزل كيسه على بعد خطوات مني، وأعطاني برتقالتين، كان شاباً أكسبته الشمس لوناً يميل إلى الاسمرار، بريق أحداقه يخفي ذكاء وفطنة، كان أطول مني، وأكثر صلابة ، أمسكت البرتقالتين، كانتا طازجتين، فدنوت بأحدها من أنفي، شممت رائحة البرتقال على نحو مغاير، أتعرفون أن للطهارة والنبل رائحة، شممتها في ذلك اليوم من رائحة البرتقال وعرق صاحبها، فصرت كلما رأيت البرتقال، أستعيد رائحة قاسم وبرتقاله، فيسري تحت نواجدي ريق حامض، كان القروي العربي يتأهب لحمل كيسه والمضي إلى بيته، بادلته ابتسامة خفيفة، فأشار بسبابته إلى صدره وقال : انا قاسم، ثم كرر الإشارة مرة أخرى: انا ... أنا قاسم.

عدت أدراجي إلى الكيبوتس، لم أخبر راحيل بخروجي، لكن حارس البرج المنتصب عند بوابة الكيبوتس أخبرها أنني خرجت وعدت أحمل برتقالتين، لحقت بي قبل ان أصل إلى بيتي بوجه متربد وزفرات متلاحقة وسألتني:

- من أين حصلت على البرتقالتين.

أجبتها بهدوء:

- أحد القرويين العرب أهداها لي

بدأت تدور حول نفسها، تضرب كفيها ببعضهما ثم قالت وقد خرجت كلماتها من بين أسنان مغلقة:

- أنت لا تعلم خطورة ما فعلت، ما زلت تلهو كطفل قد يمسك النار فتحترق يداه.

تجمع كل الحنق في صدري، وقلت لها صارخاً:

- لست طفلكِ لتمارسي على هذا النوع المقيت من الحجر والوصاية، مللت في انتظار عودتك، فخرجت أسري عن نفسي عزلتها، ألم يخطر ببالك يوماً أنني شاب وليس لي أي أصدقاء، أكاد لا أعرف من النساء إلا تلك الليالي التي تتحرك فيها غرائزُكِ، وأنا ثورك المحبوس إلى أن يأتي موسم التزاوج، ومواسم الخصاب لديك قريبة تتجدد كل يوم وآخر، مللت أن اكون سيد الأفعى، أنزع عنها جلدها القديم كي تنتشي بيدي حين تهصر جسدها فتعيد ملء حوصلتها بسم جديد.

كانت راحيل صامتة تحدق في وجهي الذي أغرقه العرق، وتبدل لونه، أرادت ان تتكلم، فنادتها إيستر، جلستُ بجوار باب المخزن الذي يقبع فيه والدي، إلى أن عادت راحيل بهيئة مختلفة، تبخر حنقها، وعاد وجهها إلى لونه الوردي، فقالت بابتسامة مائسة:

- دعنا نبدأ من جديد، صرخت في وجهك لأني كنت خائفة أن يقتلك أولئك الأجلاف.

كنت غاضباً لكنني خفت أن أفقدها، لم أكن لأطيق بعدها عني، تلك الألفة التي تشكلت في صدري كبرت معي ومعها، وما كان لقلبي الغض أن يتفتح على هذا الحب، لو لم تكن بجواري، ولم أكن أعرف للحب معان سوى تلك أراها في أحداقها، هي التي جعلتني أعرف أن هذا الكون الرحب لا يعمل إلا وفق حركاتها وسكونها، يأتي الليل عندما تغمض عينيها، وتتفتح الشمس إذا انشقت رموشها عن قطعتين من اللازورد، أنا أرى بعينيها، وأرى جسدي المبتور في غيابها مترنحاً، لا يمسك توازنه المؤقت إلا طيف صورتها المقيم في روحي.

لم أرد، لكني رضيت بابتسامة عينيها، ووبخت نفسي المتمردة، أقنعت نفسي أن هذا الانتحار في إغضابها أعزل من كل أسلحة التمرد، يجب أن ألتصق بها كي لا تأكل الريح صدري.

في صباح التالي، أفقت مذعوراً على نحيب إيستر، مررت بها في خروجي راكضاً إلى مخزن أبي، مئات الظنون تزاحمت في رأسي، أدركت أن أبي مات، ولم تسعفني قدماي فتعثرت عند باب المخزن، وقفت أمام جسد أبي المسجى، تقدمت بوجل نحو وجهه، أردت أن أسبل عينيه، فاجأتني مئات الصور، تتحدث إلي بلغة أفهمها، ما زلت أحفظ أبجدياتها مذ كنت طفلاً أجلس على كتفه، غلبتني دموع ساخنة، فخرجت مسرعاً كما دخلت، راحيل كانت خارج الباب شاحبة وخائفة، القيت رأسي على كتفها، لذت بيديها تمسح ظهري، وعدنا إلى بيتنا، خرجت إيستر مسرعة إلى مكتب إدارة الكيبوتس، وعادت يرافقها بعض الرجال، وقفوا جميعاً عند باب المخزن، بعد لحظات وقفوا يتهامسون، ثم تقدم أحدهم من إيستر وقال:

- لا نستطيع أن ندفنه في مقابرنا، كما لا نستطيع المشاركة في تشييعه.

قالت إيستر:

- من سيدفنه إذاً، أنتم ترون، لا يوجد معنا إلا إيفانوف، وأين سندفنه؟

قاطعت حديثهم، وقلت بصوت مدجج وغاضب:

- أنا سأدفن أبي، عليكم أن تنصرفوا الآن.

انسحبوا أحدهم يتلو الآخر، بدأت الحفر داخل المخزن، ساعدتني راحيل في دفنه، وبعد أن فرغنا، جلست بجوار قبره، تعباً وغاضباً، وجلست راحيل إلى جواري، اعتدلت في جلستها وتهيأت للحديث وبصوت ودود قالت:

- لا تغضب منهم، هم ....

أرادت أن تكمل، فأومأت لها أن تسكت، كنت بحاجة إلى السكون الذي يلف المكان، وكانت هي تعلم أيضاً أن كل اللغات لن تمسح حزن الفقد فسكتت.

كنت بعيداً عنه، تركته في هذا المخزن اللعين، وانشغلت بنزواتي المضطربة، مكره على وجودي وكل أجزائي لم تعد ملكي، تجرعت الكثير كدواء مر، وكمن يداوي حر الشمس بالنار، أهرب منه إليها، ما زلت أشعر بالخواء خلف ظهري، كأنه تعرى للريح، وعواصف الرمل تسفعه وتشوه وجهي، لم يكن بجانبي، لكني كنت أشعر بأن هناك من ألوذ به، هناك من أختبئ خلفه إن هاجمتني الخطوب.

قضيت أياماً بجوار قبره اليتيم، حتى حركني الشوق إلى راحيل، خرجت إليها أبعد ضوء الشمس عن عيني، كانت تهم بالخروج من البيت، رأتني فهرولت وألقت بنفسها بين ذراعي، عادت بي إلى البيت، وقالت:

- كنت أهم بالخروج، لكن فرحتي بانتهاء عزلتك مدعاة للاحتفال.

بعد تنهيدة قصيرة قلت لها بصوت خافت:

- أشعر بأنني قادم من سفر طويل، لا أريد الاحتفال إلا بوجودك معي.

أسعدتها كلماتي، فوقفت وألقت حقيبة يدها جانباً وشدتني إليها، مكثت معها ما تبقى من اليوم، وفي اليوم التالي كنا قد اتفقنا على الخروج معاً، قادتني راحيل إلى مكان أشبه بمدينة صناعية، خارج حدود الكيبوتس الذي نعيش فيه، أخبرتني أن هذه المنطقة تتبع لمدينة بتاح تكفا[12] التي نسكن بها، وأننا على موعد مع حافلة ستُقلنا إلى "جبعات شموئيل[13]"، وبعد لحظات كنا نقطع الحقول في حافلة قديمة مليئة بالفتية، عرفت عندما

---

[12] مستوطنة يهودية تقع في الشمال الشرقي لمدينة يافا
[13] مستوطنة يهودية صغيرة قريبة من بتاح تكفا أنشئت عام 1944

وصلنا أنهم مجموعة من المتطوعين الشباب، يساهمون في شد السياج حول المستوطنة ويغرسون بعض الأشجار، أحدهم كان يجيد لغة اليديش[14]، جاذبته بعض الحديث، وحين سألته من أي البلاد هو أخبرني أنه هرب مع عائلته من الحرب، وأنهم كانوا يسكنون في لتوانيا في قرية على حدود بولندا الشمالية، وأنه تعلم لغة اليديش من جيرانه اليهود، وحين قلت له إذن لست يهودي؟ امتقع وجهه حتى كاد أن يتركني، وامتقع أكثر حين أردت أن أنسيه سؤالي الأول فسألته إن كان قد خطر بباله أن لهذه الأرض مالكين من العرب، تعدت ردة الفعل المألوفة على حديث قد لا يعجب أحدهم، كطبيب يضع أصابعه على موطن الألم، كان صراخه ملفت لكل من حولنا، كل أشاح بوجهه نحونا، ساد صمت حذر بضع لحظات، وحدها راحيل استطاعت أن تقدر ما حدث، في طريق عودتنا جلست إلى جواري وسألتني:

- لماذا صرخ بك ذلك الشاب؟

أجبتها ببرود:

14 اليديش هى لغة يهود أوروبا الشرقية وهي لغة قريبة الى حد كبير للغة الروسية

- سألته إن كان يعلم أن هذه الأرض يملكها قرويون عرب، فغضب.
- ولماذا سألته؟
- أنا لا أعرفه جيداً، ففضلت أن أسأله ما خطر ببالي كي يستمر الحديث بيننا.

نظرت راحيل حولها، لتتأكد أن أحداً لا يسمعنا، ثم إقتربت مني وقالت:

- سنتحدث في الأمر عندما نصل بيتنا، لدي الكثير مما أقوله.

استمر صمتنا حتى وصلنا إلى النقطة التي انطلقنا منها، وفي طريقنا إلى الكيبوتس قالت:

- عليك أن تتوقف عن الحديث في هذا الأمر، أنت لا تعي ما يدور حولنا.
- أنا أتحدث إلى نفسي وأسألها مراراً ولم أجد من يجيبني، كيف انزلقنا إلى هنا، أنت تنحدرين من أصل عربي، وأنا روسي، وذلك اللتواني المنزعج لا علاقة له بكل ما يحدث، من أعاد ترتيب العالم على هذا النحو المشوه؟

- هربنا من واقع مرير، لنبدأ حياة جديدة، تماماً كأنك تولد من جديد، نغتسل من ماض مرهق، لنرتدي حاضر ربما يلبي لنا حياة أفضل.
- ولكننا نهرب من حرب إلى حرب، كل الحروب يمكن أن تفضي إلى اتفاق، ولا بد ان تنقشع غيوم الحرب يوما ما، لكننا هنا في مركز دوامة، هي في الواقع لم تبدأ بعد، لكننا ندرك أننا سندخلها طائعين، وفي كل مرة سنعود من حيث بدأنا.
- هذا النوع من الحديث يغيظني، أرجوك توقف عن هذا الهراء الذي تقول.

ساد الصمت لحظات، فبادرتها:

- أتعلمين يا راحيل، منذ موت أبي، أشعر بأننا نسير على ذات الطريق، يجللنا الصمت والفراغ حين نلقي بأجسادنا على فراشنا ليلاً، ثم تأتي الشمس مرة أخرى، تصفعنا فننتفض للقاء ذات الساعات التي التقيناها بالأمس، لكنها تأتي بلباس جديد، تغير ملابسها فقط فنعتقد انها ساعات جديدة لا نعرفها، ألم يحدث أن تكررت الساعات ذاتها، تكون الساعات قد أغفلت تبديل ملابسها فقط، في هذه الساعات بالذات نشعر بالضيق، لأنها أيضاً تكون قد ضاقت ذرعاً بملابسها المتسخة، فتثقل لحظاتنا، .... أتعلمين سأكف عن هذا النوع من الحديث، انا

أيضاً لا مكان لي لأذهب إليه، وإن وجد فلا قيمة له بدونك، سأسكت إلى الأبد.

أيامنا مرت رتيبة وهادئة، إلى أن أتت راحيل يوما برفقة عدد من المسلحين، جلسنا في باحة البيت، بدأ أحدهم بالحديث:

- نحن نواجه عدوين معاً، بل في الحقيقة أعداء كثر، يطارد الإنجليز بعضنا، ويموت بعضنا في حقول القرويين، والكثير من العرب من حولنا يتوعدون.

ردت راحيل بحماس واضح:

- ولم قد يلاحقنا الإنجليز، وهم يشاركوننا في حراسة مستوطناتنا.

رد أحدهم:

- الإنجليز يلاحقون منظمة شتيرن[15]، أما نحن(البلماح) تربطنا علاقة طيبة معهم، من يعلم قد تتغير التحالفات في لحظة، وقد نكون حلفاء منظمة شتيرن قريباً.

قال رجل آخر:

15 منظمة شتيرن أسسها ابراهام شتيرن بعد انشقاقه عن منظمة الهاجاناه

- وقد ينقلب علينا الإنجليز، السياسة يا رفاق تماماً كبائعات الهوى، تعطي كلها لمن تبغضه، وتبخل ببعضها على من تشتهيه، وربما تناوب عليها خصمان دون أن يعلم أحدهم بأمر الآخر، فتعطي كليهما بنفس القدر.

انفجرت ضحكات صاخبة، كصخب الحانات حين يترنح روادها، وكأن من كان يجللهم الوقار للتو خلعوا جلودهم وتغيرت هيئاتهم، وبعد ان انكفأت ضحكاتهم إلى ما يشبه صرير الفئران، سكتوا الواحد تلو الآخر.

أخرج أحدهم ورقة من جيبه، كانت خارطة تدل على مخازن السلاح البريطاني، والطرق التي تحيط بمعسكراتهم، لم أفهم من الخطوط الكثيرة والمتشابكة إلا أسهم تشير إلى نقاط محددة في القرية العربية المجاورة، كنت انظر في وجوههم أكثر مما أنظر إلى الخارطة، رمقني أحدهم وقال موجهاً حديثة لي:

- أخبرتنا راحيل أنك ستنتظم إلينا، في الحقيقة يسعدنا أن تكون واحداً منا، لكن عليك أن تجتاز تدريب قصير، هذه الأسلحة تتطلب شيء من التدريب لاستخدامها.

نظرت إلى راحيل مستغرباً، فأومأت برأسها كأنها تطلب مني أن أوافق، عدت أطوف بعيني بين وجوه الجالسين، شيء ما

منتصب بين صدري وفكي، كألسنة اللهب تلجم قدرتي على الكلام، صمتي كان خوف وتوجس وجبن، كنت جباناً واختبأت خلف صمتي، كي أهرب من كل هذه الأحداق التي تلاحق كل حركة آتي بها.

كنت مرغماً علي أن أمضي إلى نهاية الجسر الذي ارتقيته مرغماً، كلما خطوت عليه خطوة إنهار من خلفي، وكان علي أن أحث خطاي كي لا يدركني الانهيار، كان موت أبي أول نذر الفقد والانهيار رغم بعدي عنه، غادرني ولن يعود، كم عدت إلى طفولتي الأولى، فرأيتها نقطة باهتة وهلامية كفراغ يتسع في ظلمة قبو مهجور، كيف لخيالي الموبوء أن يتسلط على ذاتي على هذا النحو من القهر، فأشعر للحظات أن الظلام أوسع من النور، وقفت ذات مرة في قبو بيتنا، كنت أبحث عن أبي، أغلقت الريح باب القبو خلفي، فوقفت مرتجفاً مغمض العينين، وحين فتحتها لم أر شيئاً، ولأني لم أر جدران القبو، أحسست بأنه أوسع مما كان عليه، تبدد شعوري بالخوف للحظة، ورغم طفولتي كرهت النور لأنه يريني كل الحواجز والجدران، كذلك لم يشعرني فقد أمي بهذا القدر من العدم، لأنها ماتت في وضح النهار أمامي، كرهت موتها، لكني سرعان ما ألفت عواقبه، كل الأشياء اهتزت بداخلي، ترنحتُ بين نقطتين،

إحداها بعيدة ومدغمة في أفق رمادي مشوش وكل شيء فيها منقلب إلى ضده، وأخرى قريبة وجلية، فتشبثت بها، تلك النقطة القريبة كانت راحيل، أخاف أن أفقدها، الفقد خواء عاصف أخشاه وارتجف لمجرد خاطرة تصوره ، فاختبأت في ظلها وفي ظلمتها وصمتي.

انتهى اللقاء، كان عليَّ أن أرافق أحدهم إلى ثكنة قريبة، وبعد انقضاء فترة تدريبي، عدت إلى راحيل، استقبلتني بملامح جامدة وواجمة، أمسكتني من يدي وسارت بي باتجاه المخزن، كأنها كانت تود أن تهرب بي، وحين انزوينا في عتمة المخزن قالت بجدية لم أعهدها من قبل:

- سنخرج فجر غد إلى القرية المجاورة، أولئك القرويون يخرجون إلى حقولهم مع ساعات الفجر الأولى، سنختار منهم ثلاثة رجال لنقتلهم.

شعرت بأن للحديث بقية لم تخبرني بها راحيل، فسألتها:

- لماذا نقتلهم؟

أجابت ببرود:

- يجب ان يشعر أولئك القرويون انهم يعيشون فوق فوهة بركان، لعلهم يكفوننا عناء طردهم فيهربوا.

وفي لحظة أذهلني تغير مزاجها حين قالت بدلال تصور على النقيض من جدية ملامحها:

- افتقدك في الأيام السابقة، استدعى خيالي في غيابك كل الليالي التي احتوت جسدينا فقتلني الوجد.

ساقتني امامها تدفعني بكلتا يديها حتى دخلنا إلى البيت، كانت إيستر جالسة في بهو البيت، تتصفح مجلة ما، نظرت إلينا من فوق إطار نظارتها واكتفت ببسمة خفيفة، ثم عادت تقلب صفحات مجلتها، أوصدنا الباب خلفنا، ولم نخرج إلا فجر اليوم التالي.

انسل كل منا خلف الآخر حتى خرجنا، خارج بوابة الكيبوتس انتظرتنا عربة عسكرية كتلك التي يستخدمها البريطانيين، أخرج رجل كان يجلس بجوار سائق العربة بندقيتين، أخذت راحيل واحدة و أعطتني الأخرى، كانتا بندقيتان مختلفتان، أعطتني راحيل بندقية من نفس النوع الذي تدربت على استخدامه، وقفت العربة العسكرية فوق رابية تطل على حقل واسع يمتد في الأفق، على بعد عشرات الأمتار، بدأ القرويون بالتوافد على أرضهم، تفرق الرجلين كل

يتأبط بندقيته، بقيت أنا بجوار راحيل، مرت دقائق من الصمت والانتظار والترقب، نظرت راحيل في ساعة يدها، ثم همست:

- أترى ذلك العربي ذو الجلباب البني؟

أومأت برأسي بأني أراه، فاقتربت أكثر وهمست:

- عليك أن تطلق النار على صدره، أنا سأقتل القروي الآخر.

الصقت عيني بمنظار البندقية، كان على أن أشير إلى صدر الرجل، لكني لسبب ما أردت أن أرى وجوههم، لم يكن القروي الآخر بعيداً عنه، فانحرفت بمنظار بندقيتي لأرى وجهه، أنزلت بندقيتي، والتفت بهدوء إلى راحيل، كانت تمعن في تصويب منظار بندقيتها، فلكزتها، التفت إلى فبادرتها:

- أتعلمين من هو القروي الذي ستقتلينه، إنه قاسم، ذلك القروي الذي أعطاني البرتقالتين.

رجوتها أن نعود، قلت لها، لو أنك رأيت كيف ضحكت عيناه عندما أخذت منه البرتقال، لما فكرت في قتله.

صمتت لبضع لحظات، كانت تحدق في عيني وكأنها تستحضر أي عقاب أستحق على ما قلت، تلك النظرة الجديدة لم أعهدها من

راحيل، كنت قد مررتُ بكل تقلبات مزاجها، لكن لم تمر بنا تلك النظرة التي عجزت عن فهمها.

أدارت رأسها ببطء، الصقت عينها بمنظار البندقية، وأفلتت طلقتها تصفر في الهواء، عدت أنظر بسرعة من منظار بندقيتي، كان القروي ذو الجلباب البني يلتفت حوله مذعوراً، ولم أر قاسم، سقط بين سنابل القمح، أو لعله حلق في السماوات البعيدة.

عادت راحيل تحملق في وجهي، وقالت بهمس نزق:

- أقتل القروي الآخر.

كنت أسمع صوتها كأمواج متداخلة، كأنه صوت من الأفق تتلاعب به الريح، تجمدت ملامحي وأوصالي، فعادت إلى منظار بندقيتها وأسقطت الآخر، غير بعيد عنا انطلقت رصاصتين فأيقنت ان آخرين قد سقطا.

عدنا إلى العربة العسكرية، كنت أتصبب عرقاً رغم اعتدال الطقس، حاولت جاهداً أن أخفي رجفة أوصالي، وحين ابتعدنا قليلاً علا ضحك الرجلين، فخورين بمن أسقطوا، قال أحدهما للآخر: أرأيت كيف سقط كخروف ذبيح، شاركتهم راحيل حالة السعار كتلك التي تتملك الضباع بعد نهش الفرائس.

ثلاثة أيام مرت منذ أطلقت راحيل حقد بندقيتها باتجاه قاسم ورفاقه، لم أبرح غرفتي، إلى أن أتت تحمل في يدها سلة مليئة بالبرتقال، جلست إلى جواري، وبدأت بتقشير برتقالة كبيرة، دست في فمي قطعة منها رغماً عني، بدأت أمضغها ببطء، ثم قطعة أخرى وأخرى، إلى أن بدأتُ أقشر البرتقال والتهمه بنهم شديد، ابتعدت راحيل قليلاً، ترمقني بدهشة، بلعت ما تكور في فمي من برتقال، وقلت لها:

- ها أنا كطفل أشرب من جدول القبيلة الممتزج بالدم المسفوح من سيقان أبي.
- أي دم وأي قبيلة، إنك تهذي يا إيفانوف.
- إنها مجرد قصة رواها أبي ذات يوم، أنا لا أهذي ولكني كاره لكل ما يحدث، لولا أني أحبك لهربت من هنا.
- لعلك ما زلت مشفقاً على العربي الذي أعطاك البرتقالتين.
- مشفق على نفسي يا راحيل، أشعر كأني أنتعل حذاءً ضخماً من الحديد، لم أعد أقوى على رفعه، وأن مغناطيسين عظيمين في اتجاهين مختلفين يجذباني، وانا منغرس هنا تكبلي أحذية الحديد.
- دعك من هذا الهراء، أحضرت لك سلة برتقال لعلها تعوضك عن برتقالتي صاحبك.

قفزت راحيل من أمامي تتمايل بتنورتها القصيرة، تهم بالخروج من غرفتي، كطفلة تتمايل مع خطواتها الراقصة، أعادت إليَّ راحيل الطفلة على شاطئ النهر في فياتسكو، ناديتها، بل رجوتها ان تعود، عادت كهيئة خروجها، القت نفسها بجواري، رغم اغتصابها لمشاعري بسلة البرتقال، كنت أخشى أن أكون قد أغضبتها، ألقيت بجذعي إلى جوارها، اقترب وهمست في فوديها:

- انا احبك يا راحيل، وأخشى فراقك كما أضطرب بقربك، لا حياة لقلبي إن أصبح خاوٍ منك.

أشارت إلى صدري وبدلال أثار كل غرائزي قالت:

- أحقاً انا هنا في قلبك؟

اومأت برأسي موافقاً، فاعتدلت بسرعة، وبدلال يمتزج بلوم مصطنع قالت:

- أعلم أنني أسكن قلبك، لكني أشعر بالبرد بداخله، رطوبة مشاعرك المضطربة تكاد تقتلني برداً، إن كنت تريدني حقاً، عليك أن تقتل هذا الانفصام وأن تغلق كل شبابيكه التي تطل على بلادك الأولى.

ثم غابت كل الحروف في قبلةٍ تمادى رحيقها كعبق خمر معتق، طاشت رأسي، فأغمضت عيناي حتى أفاقت خلاياي في اليوم التالي، ولست أذكر أي الفجوات بين شهقاتها وانفراج شفتيها مررت بها، كنت قد أدركتها ثملاً، فلم تعلق في انزلاقات جسدينا، وكأني كنت في رحلة إلى زمنٍ يعيد هيئة الليل لمن شاء من العاشقين، كنت كذلك أخشى أن تتملص بين يدي فتذوب في لهيب زفراتنا، وأخشى أن يُقرضني الزمان ليل آخر، وقد يأتي يوم السداد، ليسترد الزمان دينه في لحظات تكون روحي قد أفلست وتشققت وجداً واشتياقا، فيقتص بإبعادها عني، انا أريدها بأي ثمن.

لم تكتمل خيالاتي، نادتنا إيستر، فخرجنا نمسح عن جباهنا لمعة الانصهار، كمراهق خائف ينتفخ ناراً ولهاثاً كلما اقترب اللقاء، كنت أتصبب عرقاً رغم البرد.

كانت إيستر تهم بالخروج من البيت، التفتت بوجه متجهم إلى راحيل، وقالت:

- حضر رفاقك، وكي لا أزعجك، أخبرتهم أنك مريضة ولا تستطيعين لقائهم، يبدو ان هناك ما يستدعي القلق، بعد ان غادروا حضر حاخام الكيبوتس وطلب لقائي على وجه

السرعة، سأذهب إليه، وأفضل أن تذهبا إلى الرفاق، هم أيضاً كانوا على عجلة من أمرهم، لذلك غادروا بسرعة.

استطعنا بعد وقت قصير أن نكون خارج أسوار الكيبوتس، وقفنا ما يقارب الساعة، إلى ان مرت بنا عربة يقودها الشاب اللتواني، فأقلنا معه، وانطلق مسرعاً يثير خلفه سحابة من الغبار، سألته إن كان هناك ما يدعو لكل هذه السرعة، التفت إلي صامتاً و واجماً ثم عاد يحدق في الطريق أمامه، وقال بكلمات مغتصبة، أنه ذاهب للقاء الرفاق في مكان ما، بعد وقت قصير، وصلنا إلى ما يشبه المخزن، كان الكثير من الشباب يجلسون في حلقة كبيرة، يتوسط الحلقة رجل أربعيني أشيب، كان صامتاً يحدق في وجوه الجالسين، حتى خفتت كل الهمهمات شيئاً فشيئاً، قال:

- اليوم قتل اللورد ولتر غينيس[16]، سيكون لبريطانيا كلمتها ضدنا، لذلك جمعتكم لأخبركم انه يجب أن تشعر بريطانيا بأننا معها ضد منظمات شتيرن والأرجون[17]، لن نقاتلهم، ولكننا سنوحي بعدائنا لهم، إلى ان يتحقق حلمنا، لذلك يجب أن نسير جميعاً وفق مخطط دقيق لا متسع فيه للاجتهاد والمبادرة.

16 والتر إدوارد غينيس، كان سياسي أنجلو إيرلندي ورجل أعمال. شغل منصب وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوسط حتى شهر نوفمبر عام 1944، عندما تم اغتياله من قبل مجموعة شتيرن اليهودية

17 الإرجون هي منظمة صهيونية شبه عسكرية وجدت في الفترة السّابقة لإعلان دولة الكيان الصهيوني في فلسطين عندما كانت خاضعة للانتداب البريطاني في الفترة بين 1931 و1948

وقف كل الجالسون، وتفرقوا إلى مجموعات أصغر، قادتني راحيل إلى مجموعة تقف خارج المخزن الكبير، بينهم الشابان اللذان رافقانا يوم إصابة قاسم، عندما التأمت المجموعة، أخرج واحد منهم **ورقة من جيبه وبدأ بقراءتها علينا:**

" أنتم أبناء مجموعة صهيون الأولى، إذ أنكم جميعاً تعيشون في بتاح تكفا، فإن مسئولية ترويع القرويين في قرية ملبِس[18] تقع على عاتقكم، كل عمل تقومون به من حرق لمزارعهم أو قتل لأبنائهم، ستحمل منظمات الأرجون وشتيرن مسئوليته، وبعلاقتنا مع بريطانيا سنكون قد حققنا هدفين معاً، طرد العرب وخداع بريطانيا، لذلك عليكم ان تكثفوا من أعمالكم، ولكن بعيداً عن أعين الإنجليز"

كانت راحيل بجواري تستمع إلى رسالة منظمتها، وتلتفت نحوي بين الحين والآخر، وعندما تفرق الجمع، عدنا إلى الكيبوتس، كانت إيستر في انتظارنا، تحمل ذات الرسالة، تركتنا راحيل ودخلت إلى غرفتها، ثم عادت مسرعة كأنها أضاعت شيء ما وقالت:

- أرجو ألا يزعجني أحد، أود الاختلاء بنفسي، عليَّ أن أخطط لما يجب علينا فعله.

18 قرية ملبس هي قرية فلسطينية مجاورة لمستوطنة بتاح تكفا

إنسحبت بهدوء إلى خارج البيت، كثير من الهواجس تتزاحم في قعر رأسي، يبدو أن هواجسي لا علاقة لها بما أقرر، تغزو رأسي حين تشاء دون إذن مني، تدس نفسها هناك، حيث لا سلطة لي عليها، فنفرض حضورها رغماً عني، كنت قد قررت أنني لن أتجشم مثلها عناء التفكير، وكي أريح نفسي، قررت أن أنفذ ما يطلبون مني، ذلك البحر أكبر من قدرتي على الخروج منه سالماً بقاربي الصغير، لذلك أسلمت أشرعتي لرياحها.

خرجت لأتجول داخل الكيبوتس، بالقرب من مكتب الإدارة، ثمة رجل عجوز يدحجني بنظرات غريبة، كان يجلس على كرسي خشبي طويل، جلست إلى جواره، تلبية لنداء نظراته، لم أسأله عن عمره، كانت تجاعيد يده وما انتشر عليها من بقع داكنة كافياً لأقدر أنه تجاوز السبعين عاماً، سألني بعبرية تلعثم بها كثيراً حتى فهمت أنه يسألني عن بلدي الأولى، أجبته أنني قادم من روسيا، من قرية فياتسكو بالقرب من موسكو العاصمة، أشاح الرجل وجهه بعيداً عني، شعرت بأنه يهم بالابتعاد عني، لكنه عاد يحدق في وجهي مرة أخرى، فسألته:

- من أي البلاد أنت؟

طاف العجوز بوجهه بين الأشجار المحيطة بنا، ثم رفع رأسه نحو السماء، والتفت إلى قائلاً بالروسية:

- انا من موسكو أيضاً، قطعت كل هذه المسافات لأهرب من الموت إلى موت آخر.

استوقفتني كلمات العجوز، فاعتدلت في جلستي، أومأ برأسه كأنه يحثني أن أصدقه، ولم يكن ما يدعوني إلى تكذيبه، فاسترسل قائلاً:

- كنت هناك، أحيا كملك إلى ان طاردتني سلطات نيكولاي الثاني، نعم نيكولاي ألكسندروفيتش رومانوف[19]، كان مستبداً، اقتص من مئات الجند بعد هزيمة جيشه على يد اليابانيين، كنت واحداً منهم، ولم أكن تجاوزت الخامسة والثلاثين، اختبأت لدى عائلة يهودية، ثم هربت معهم إلى هنا.

أزاح العجوز يده المرتجفة ومدها ببطء إلى جيبه، أخرج صورة جندي يقف بجوار كومة من الثلج ودبابة يتكئ عليها عدد من الجند الآخرين، أشار بإصبعه المرتجف، هذا أنا.

تأملت وجه العجوز، وصورة الجندي، ثمة ملامح ما زالت باقية، لكن كثير من التعب لم يكن في الصورة، كان الفرق بينهما ما يزيد

[19] نيكولاي الثاني هو آخر قياصرة روسيا والذي إمتد حكمة حتى قيام الثورة البلشفية عام 1917

عن أربعين عاماً، لكن عمر الأسى في عيني العجوز كان دهراً، شيء ما رغم برودة الصورة كان متقداً في عينيه، انطفأ في الكيان الجاثم بجواري، أدركت أن الوقت لا يغير الهيئات فقط، إنه يعيد تشكيل الروح أيضاً، سألت الرجل:

- لم لا تعود إلى هناك؟

نظر العجوز في وجهي مطولاً ثم قال:

- أهرب يا بني متى أتيحت لك فرصة الهروب.

على هذا النحو المفاجئ أجابني، أعادتني كلماته إلى مخزن أبي حين وقفت بجانب الباب فقال لي "أهرب يا ولدي حين يشتد عودك"، كنت أهم بتركه، لكني عدت اجلس إلى جواره، نظرت في قسمات وجهه، إنه يشبه أبي إلى حد كبير، بل يشبهني، لم أتخيل نفسي في العقد الثامن من العمر، لكني شعرت لوهلة أني أرى مستقبلي، أراني كهيئته مكوماً على كرسي خشبي على حدود حديقة مُهمَلة، سألته حين جلست إلى جواره مرة أخرى:

- أتشتاق لبلادك الأولى؟

اجابني ببرود:

- لا

- لم كل هذا الوجد العالق في جفونك إن كنت لا تشتاق لها؟

عاد الرجل يتفحص وجهي من جديد وقال:

- ما زلت غضاً يا ولدي، نحن نشتاق إلى البعيد، بلادي الأولى قريبة، تسكن هنا في صدري، أراها كل صباح وحين أوي إلى فراشي أحتضنها وانام.

تركته يمسح بكفه على صدره، كأنه يهدهد طفلاً يتكئ على كتفه، سرت عدة خطوات ثم عدت أسأله عن إسمه، أجابني بعد لحظة صمت كأنه يستعيد الاسم من ذاكرة قديمة ومغبرة، وقال:

- اسمي جوزيف، يمكنك ان تدعوني جو.

أشار إليَّ بيده الراجفة أن أقترب، وأكمل بصوت خافت كأنه يخشى أن يسمعنا أحد:

- لقد قرأت في وجهك المتعب كل حكايتك، أكاد أن أرى حياتك أمامي منذ ودعت أمك في باحة الإسطبل.

هزتني كلماته، وشعرت بقشعريرة تسري في جسدي، أنا لا أؤمن بتخاطر الأرواح، كيف له أن يعرف أن أمي ماتت في باحة الإسطبل وانا انظر إليها، تبددت رغبتي في الابتعاد عنه، فعدت أجلس إلى جواره، دنا مني وهمس في أذني:

- تعال لزيارتي كل يوم، ستجدني هناك في كوخي الخشبي، لا تخشى شيئا، سأكون ضميرك يا إيفانوف.

ثم وقف يلملم ثقل جسده الواهن إلى أن انتصب بجواري، وسار مترنحاً ومبتعداً.

عدت إلى بيتي كعائد من زمن بعيد، تناوب على رأسي مزيج من الظنون والذكريات، نبش جوزيف في أعماقي أكوام من الركام كانت تخفي رطوبة عفنة، تكاد تزكم أنفي برائحتها القديمة، تزاحمت انفاسي فتفصد عرق بارد من جبيني، ترنحت تحت سطوة الحيرة التي تملكت كياني، لم يسعفني نداء راحيل حين كانت تقف في انتظاري على قارعة الطريق، تركتها هناك و انزلقت إلى غرفتي، كنت بحاجة إلى الانزواء، ورغبة جامحة تقودني إلى العودة إلى جوزيف، كأنه ألقى على وجهي تعويذة ما، عشت مع كلماته ليلة كاملة، لم أستجب خلالها لنداءات راحيل، وفي صباح اليوم التالي، خرجت من غرفتي مترنحاً، قطعت بخروجي حديث خافت بين راحيل و أمها، وحين رأتني ماثل أمامهما، سألتني إيستر:

- هل كنت برفقة العجوز جوزيف بالأمس؟

لم أرد، جلت بعيناي في وجوههن، ثم سرت إلى كرسي خشبي ملقى عند باب البيت، لم يفاجئني سؤالها، كنت أعلم أنهم يراقبونني، شيء ما في عقولهم يأبى أن يجعلني منهم، أعلم أنني نبتة خافور[20] بين قمحهم، سيقتلعونها يوماً ما، حين يحين موسم الحصاد.

في غمرة شرودي، أتت راحيل، التصقت بي، ثم مالت برأسها على كتفي، عبق شعرها المسترسل على كتفيها وجانب وجهي بدد وحشتي، كأنها تمسك بمقاليد روحي، تتبدد كل هواجسي، حين يفرض حضورها الناعم سطوته على روحي، رفعت ذراعي ببطء وجذبتها نحوي، فأحكمت ذراعيها حول جذعي، ثم رفعت رأسها وقالت:

- هل سترافقني الليلة للقاء الرفاق؟

طبول بداخل صدري تتوثب، كنت على حافة الرفض، لكني عجزت عن الكلام، إنعقد لساني، كأن شيء ما يلجم قدرتي، أومأت برأسي موافقاً، كأن اللعاب المر يفيض من حلقي، كرهت هشاشة صدري، وعجزي في حضورها الطاغي والمستبد، كأنها تستبيح بجيوش جمالها كل مساحاتي المرغمة على الطاعة، وفق وتيرة دلالها، وعندما هبط الليل حذراً، سرت خلفها كطفل يتبع خطى أمه،

20 الخافور نبات عشبي من العائلة النجيلية ينبت عادة في حقول القمح

كانت انعكاس ضوء القمر على وجهها دليلي في اللهاث خلفها، كنت أتحدث إليها لعلي أبدد وحشة الظلام من حولي، وهي كانت تنظر إلي بصمت وكأنها قطعة من هذا الليل الذي يلفنا، ثم تواصل سيرها الحثيث، صمتٌ نرجسيٌ مطبق على كل ما يحيط بي، كأن كل شيء حولنا يطيعها فيمعن في تجاهلي مثلها، إلى أن وصلنا إلى ما يشبه المعسكر، اقتربت من حارس البوابة، تبادلت معه حديث قصير، ثم التفتت إلي راحيل تدعوني إلى الدخول معها، قدرت أنه ذات المكان الذي التقينا فيه سابقا، إلا أن شيئاً ما كان يختلف، شيء ما محموم يكاد يستعر في عشرات الأحداق من حولنا، سعار بدا مسموعاً في لهاثهم المشدوه، بينما يحملون صناديق خشبية كتلك التي أفرغتها الشاحنات في مخزن الكيبوتس، انطلقت أعدو خلفها بعدما استوقفتني رائحة الحرب والنار في أبخرة أفواههم، أمسكت بكتفها، وسرت كطفل يخشى السقوط فيحكم قبضته على تلابيب أمه، إلى ان دخلنا إحدى الغرف، تتوسطها حلقة من شبان تجمعوا ينصتون لأحدهم، جلسنا بهدوء كما أومأت راحيل بسبابتها، كانوا عشرون شاباً، كل منهم يرتكز إلى بندقيته، مرت الدقائق متلاحقة، بينما كنت مصغياً على غير عادتي إلى الرجل، نظر المتحدث في ساعته، ثم أمر المجتمعين أن يتفرقوا كل إلى مكانه المتفق عليه، كنت الوحيد من بينهم الذي لا أعرف مكان أقف فيه كجندي شطرنج

وقفت في انتظارها كي تحركني إلى مربع آخر، تبعتها دون أي اتفاق، كنت ظلها ودرعها، في غمرة حماسها شعرت بأني درعها، تولدت في صدري قدرة على التضحية بحياتي من اجلها، كثيراً ما حدثت نفسي، لماذا لا أحبها في غيابها بذات القدر الذي يصفعني فيه وجودها، هززت رأسي بحث عن إجابة في جوانب صدري ورأسي، إلى أن أفقت على نداءها، كانت تحمل بندقيتين، أعطتني إحداها عندما سرت محاذياً لها، سرت أقلبها بين يدي، فتعثرت بحجر ناتئ، تفلتت منها ضحكة أسعدتني رغم مسحة الشماتة في رنينها، أدركت أننا ذاهبون لقتل احد ما، قدرت أنه سيكون أحد أولئك القرويين، وصلنا إلى الحقول المحيطة بالقرية التي طليت جدرانها بالغراء ذات مرة، مساحات شاسعة تتماوج فيها سنابل القمح، كامنة ومطمئنة، تتأهب لتحتمي من قيظ صيف قادم في خوابي[21] الفلاحين، كنا على أعتاب أيار، نسمات الليل الباردة تنغز أذناي، فيما كنت مأخوذاً بشلال ضوء ماسي يطوف على رؤوس السنابل، لوهلة نسيت أن راحيل ترافقني، فاتكأت على جذع شجرة منتصبة بين الطريق وحقل القمح الممتد، أفقت من غفلتي على صوتها تحثني على حمل شيء ما، كانت تحاول حمله فأسرعت إليها وحملت ذلك الشيء عنها، غرقت ملابسي برائحة الوقود الذي

21 الخوابي هي أجران يخزن فيها القمح

حملته متثاقلاً، وسرت خلفها، سارت أمامي تخب بين سنابل القمح حتى توسطنا الحقل، أمرتي بلهجة صارمة كأن الكلمات تخرج من بين أسنانها أن أسكب نصف الوقود الذي أحمله، وان اسكب نصفه الآخر على طرف الحقل المحاذي لبيوت الفلاحين، شب حريق أحال الحقل من حولنا إلى ساحة مضاءة، انسحبنا باتجاه الطريق الذي أتينا منه، توارينا خلف شجرة نسترق النظر إلى جموع الفلاحين الذين هرعوا بما يحملون من ماء في أواني الطهي، لكنهم وقفوا عاجزين أمام نار تستعر و تتفشى كبقعة زيت لا حدود لها، ألصقت راحيل عينها بمنظار بندقيتها باتجاه طرف الحقل الآخر وأطلقت رصاصتها الحمراء تخترق الفضاء الذي ضج بصراخ الفلاحين واطفالهم، اشتعل الطرف الذي أغرقته للتو بالوقود، فتناثر جمعهم بين باحث عن طريق للنجاة وبين نساء يصرخن ويتراكضن في حلقات مشدوهة، أحاطت بهم النار من كل اتجاه، تبدلت أسبقيات النجاة، القمح كان حياتهم لسنة قادمة، لكن أبنائهم الذين توسطوا الحقل المشتعل كانوا شوكة تنغز أرواحهم، فضحوا بقمحهم من اجل أبنائهم، وحين حملوا أبناؤهم ضحوا بأقدامهم تقفز من نار إلى نار كي ينجوا بحملهم.

لا أدري لماذا باغتتني صورة جوزيف العجوز، بعينين غائرتين ولامعتين كان يرمقني بنظرة توعد، أجفلت كل حواسي ولم أعد

قادراً على السير خطوة أخرى، امتدت النيران تلتهم في طريقها كل عود غض ويابس، لم يكن ثمة مخرج لمن حاصرتهم ألسنة النار إلا من الركن الذي نختبئ به، ركضوا نحونا، فتناثرت أحشاؤهم حين تشابكت أضلعهم مع جمر النحاس المتفلت من بندقيتها، كأن صوت جوزيف خافت، يلفح أذني بأنفاس ساخنة فيقول:

- أرأيت كيف يهربون من الموت إلى موت آخر، أنا مثلهم، هربت سابقاً من الموت، كي أموت مئات المرات هنا، أنت أيضاً ستموت، لن تتنفس في هذا الضباب الكثيف، هذا الهواء المثقل بكل الأبخرة السامة لن ينقشع حتى تشرق شمسك، لا تخفيها طويلاً فتأكلك رطوبة الظل.

همستُ:

- رأيتهم كيف يحملون أطفالهم، أتعلم يا جوزيف، منذ ماتت أمي بحثت عما يجب أن أشعر به في وجه إيستر وفي وجه والدي، رأيت بكائهم، لكني عجزت عن الحزن مثلهم، بحثت عن الحزن في باحة الإسطبل حيث تسجى جسد أمي، لم أجده هناك، لكني بعد طول بحث، عرفت أن للمشاعر وجوه تُعرف بها،

مثلنا تماماً، رأيت الخوف والحزن ورأيت اللهفة تهرع أمامي، تدوس سيقان القمح المشتعلة.

رد جوزيف بذات الصوت الخافت:

- كان القمح حبيبهم الخليق بالتضحية، فهرعوا بأجسادهم، ولما تبينوا نية النار في التهام صغارهم، داسوا القمح المشتعل بأقدامهم، كي لا تأكل أبنائهم، هرعوا من أجل قمحهم، ثم داسوه من أجل أرواحهم، ثم ضحوا بها من أجل أطفالهم، أرأيت كيف يعيد الناس ترتيب خوفهم وقدسية الأشياء.

تلاشت صورة جوزيف، وتلاشى صوته بين أجيج النار، أدركت أني ابتعدت عن راحيل رغماً عني، لا أدري من قادني إلى ركن مظلم بين أشجار الزيتون الكثيفة، أظن أن قدماي بريئتان، قادتني صور تنازعت في ناصيتي، زمزمة هذا الجحيم صيرتني أثيراً تدافع من بين عيني، فأحاطني بهالات من فراغ متوتر كقطبي مغناطيس، ثمة خيوط حمراء مضيئة تشق طريقها في تفاصيل الليل، تلهث خلف رصاصات راحيل، لعله النحاس يخلع ثوبه المصقول لتتفشى أبخرة النار، فتنبجس حمم من صدور أولئك الخائفين، تحمل رذاذ أشلائهم، وتبتعد.

نفذت رصاصات راحيل، لم يكن ثمة فارق بين لون النار ولون الدم، على هذا النحو يجبر الأضداد على الرفقة المؤقتة، ألقيت بندقيتي نحوها، التقفتها وعادت توجه فوهة الموت نحوهم، قعقعة البندقية أيقظت عيناي، شدتني الخيوط الحمراء المضيئة لأتبعها، بعين تقرحت عندما لمعت بداخلها صورة النار، ولم أعد قادراً على احتمال كل هذا الضجيج، سحبتني راحيل كمن تسحب طفلها إلى حافلة المدرسة، قالت بغيظ مكتوم وهي تعيد إلي بندقيتي:

- للمرة الثانية لم تفعل شيئاً، تقف كالأبله، وفي كل مرة عليّ أن أخفي جبنك.
- لم تخبريني بوجهتنا ولا ما خططت له.
- لقد تجاوزنا مراحل الموافقة والرفض، تنهار درجات السلم خلفنا كلما صعدنا درجة أخرى، لا سبيل إلى العودة.

رأيت جوزيف يتلفت نحوي، تجاوزت نظرته الغاضبة وجهي الشاحب، نفث في وجهي كل ما تجمع في رئتيه من دخان، وعلى غير عادته، قال بصوت مدجج:

- لن تنجو حتى تتعلم كيف تقول لا.

عدنا إلى البيت، ما زلت واجماً، أحدث نفسي كثيراً و ألعنها كثيراً، تتقدمني راحيل بخطوات قليلة، انسلت إلى غرفتها، ولم تخرج إلا

في صباح اليوم التالي، توجهت إليها لعلي أمحو شيئاً من كدر الليلة الفائتة، لكنها لم ترد، أعرف جيداً هذا النوع من الصمت النرجسي، تكون الكلمات أثمن من وجهتها، تلك النظرة الزجاجية تحت حاجبين معقودين كانت طريقتها في اللوم، لعله شيء أكبر من اللوم، تسللت من تحت مطرقة عينيها لأنجو بما تبقى مني، سرت باتجاه بوابة الكيبوتس، كان الخروج مقيداً بشروط، لكني إستطعت أن أنسل من زاوية قريبة لبرج المراقبة المنتصب على يمين الباب، وحين خرجت، سرت محاذياً للجدار إلى أن ابتعدت، سرت وجلاً إلى الربوة التي شهدت موتي قبل ساعات، تلك البقعة السوداء ما زالت تنفث دخانها الأبيض، و تتفشى، توسوس لسيقان القمح الباقية ، قد أزف وقت الموت، ولا جدوى من الإنتظار، كثير من الناس هناك يموجون في البقعة السوداء، وكثير من الأغطية البيضاء تلف أجساد من لبوا نداء الموت، على مقربة مني كان كهل يجمع أضلاع طفل لم يتسع صدره بالأمس لتعويذة النار والدخان، فانفجر ينثر ثقل أضلاعه غير بعيد عن طرف الموت المتسلل بين سيقان القمح، راحيل لم تقتله، كان يقطع عاصفة الغبار و الدخان فتحرر من ثقل الخوف كي يعدو بسرعة، كاد الكهل أن يراني، حين أدار وجهه يقلبه بين غمامة أهدت بعض الظل للأشلاء، و أفق زيفتهُ خطوط دخان ما زال ينبعث كزفير الأرض حين تضج بالحمم فتقذفها في

وجوه العابرين، كنت في هذا الأفق، فأدركت أن دمعة ما تتأرجح في جفنيه، لم تجعله يرى أبعد من روح طفله.

عدت حذراً حين تعالى صراخ الباحثين عن أبنائهم، كادوا أن يمروا بجواري، بوجوههم الموشحة بكثير من سُخام الحريق، كنت متأكدا رؤيتهم مشوشة بفعل الدموع التي ترقرقت بين أجفانهم، كأن كل شيء حولهم يموج في خليط من الألوان يغلبها السواد، فانسحبت حذراً إلى الكيبوتس.

أيام قليلة مرت، و راحيل ما زالت تمعن في معاقبتي بصمتها، كذلك إيستر امتنعت عن الحديث معي، غضبت إلى حد ما، لكني بعد يوم، وجدت في صمتهن مساحة امارس فيها خيالاتي لأصلح ما فسد بين رأسي وصدري، اختليت بذكريات حملتها كفلاح يحمل زاده إلى الحقل، لكني كنت متوجساً من هذا الهدوء الذي يلف المكان ويلفني، هذا الهدوء كصفير الصمت، موجع إلى حد البكاء، كموجات الفراغ تخور في جسدي، كل شيء متوتر ومشدود ومترقب، شعرت أن جدار الكيبوتس متوثب أيضاً، كأنه يهم بمغادرة مكانه، أو يتطاول إلى السماء، رأيته أعلى مما كان عليه، كأنه يشرئب ليلاً ليسترق النظر إلى البيوت الطينية الحزينة من حوله، ولكني علمت لاحقاً أنهم لسبب ما، رفعوا فوقه مزيد من الطوب و الأسلاك الشائكة.

قادتني قدماي إلى كوخ جوزيف، أفزعني حين خرج باتجاهي يحاول ان يفتح عينيه الغائرتين في ضوء النهار، تقدم نحوي كأنه كان في انتظاري، استند على كتفي، وسرنا معاً حتى انزوينا في ركن خلف كوخه، كان على هيئة غير تلك التي رأيته فيها في المرة الأولى، كان أكثر شروداً واضطراباً، يلتفت حوله بحركات سريعة ومفاجئة، باغتني بالحديث عن حريق حقل القمح، لم تثيرني معرفته بالأمر، فكل قريب من المكان أخبرته سحب الدخان والضجيج، لكني جفلت حين نظر إلى وجهي مطولاً، ثم قال:

- خيراً فعلت حين لم تطلق رصاصاتك إلى صدورهم.

ابتعدت قليلاً كي أتفادى التقاء نظراتنا، فأردف قائلاً:

- لن يتركوك، ستذهب معهم غداً لتقتل وتحرق، لا تتقمص يا ولدي دور العنيد، أنت هشٌ وضعيف أمام شيطانها، أنت مؤمن بضعفك بعيداً عنها، وهم يؤمنون بشيء آخر لن تدركه إلا بعد أن تصبح مثلهم، فكن كما تشاء، أسمعت مرة ما يقولون؟

تملكني عجب من هذا العجوز يقرأ صدري وكأني عار من ملابسي ومن جلدي، فأجبته:

- لا..........لا أعرف ما يقولون.

- يقول كتابهم ﴿وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ مَعَ كُلِّ مَا بِهَا، إِنَّمَا الْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ وَآنِيَةُ النُّحَاسِ وَٱلْحَدِيدِ، اِجعَلُوهَا فِي خِزَانَةِ بَيْتِ الرَّبِّ.﴾[22]...... لا أراك بعيداً عنهم، انت مجرد حجر صغير بجانب جبالهم.

هم بالوقوف، فأمسكت بيده ليبقى بجانبي، شيء بداخلي بدأ يحرضني على العناد، شعرت بقوة غريبة تجتاحني، اعتقدت أني سأكون عنيداً، لكني توجست من نفسي حين نظر جوزيف العجوز في وجهي ببسمة ساخرة، وقال:

- لن تكون قوياً بينهم، ما يعتمل الآن في صدرك الهش سينسرب من صدرك فور عودتك إليها، كما يتسرب الماء من بين أصابعك، إن أردت أن تنجو عليك أن تهرب.
- ماذا لو رفضت مرافقتهم؟
- ستذهب رغماً عنك، على أي حال، إن طلبوا منك شيئاً عد إلَيَّ قبل أن تخبرهم بشيء، سأعلمك كيف تنجو.

سرت مبتعداً، كأني أحاول الهروب من سياط كلماته، ثم عدت إليه، شيء ما كان عميقاً في عينيه يناديني بإسمي، فألبي طائعاً، لعله قلبي كان يشدني إلى حيث يشعر بالراحة والسكينة، نظرت إلى

[22] من الفقرات المحرضة على القتل والحرق من سفر يشوع 6 - العهد القديم

ذات العمق في عينيه بينما كنت اجلس إلى جواره، ثمة نقطة لامعة في قعر عينه، كأنها ذبالة سراج قديم، طال صمتي، كنت أود أن أدفن رأسي داخل معطفه الصوفي الثقيل، فأدرك حاجتي إلى البقاء بقربه، ربث على كتفي، وقال بحنو جعلني أقرب إلى البكاء:

- قل ما عندك، تنفجر صدرونا حين تمتلئ بالهموم، لا بد أن نفتح كوة في صدورنا كي تتسرب منها كل الرياح السوداء، وستجرف معها حين تفيض شيئاً من همومنا، عليك أن تجتاز المألوف يا ولدي كي تنجو.

زادت حيرتي، ما بين ذبالة الحياة التي أوشكت أن تخبو في عينيه، وكلماته التي تركتني أسير على جسر خشبي متهالك بين قمتي جبلين ينتصب على جرفيهما أسدين، سيهوي بي الجسر الطاعن في القدم إن أطلت الوقوف، وستلتهمني الأسود إن سرت إلى أحد الجانبين، لكنني جمعت كل ما في صدري من كلمات كمن يجمع العشب الناعم والجاف كي يوقد ناره، وانا أوقدت ناري وقلت:

- لا أطيق فراقها يا جوزيف، أكره وجودي وسط هذا الزحام المشحون بكل أطياف الكذب والخداع، لكني أرضى به من اجلها، أتعرف يا صاحبي كيف تكون مجبراً على قبول ما تكره.

نظر العجوز جوزيف في وجهي وكأنه يتفحص ملامحي، ثم قال:

كان ثمة صقرين اشتراهما أميراً، أحد الصقرين كان يحوم على نحوٍ مثير أما الأخر فكان لا يبرح غصن شجرة اعتاد الوقوف عليه، لم يدع الأمير حيلة كي يدفع الصقر إلى الطيران كرفيقه، إلى ان مر به عجوز مثلي، فطلب الأمير مشورته، طلب العجوز من الأمير ان يتوارى خلف تلة قريبة، وبعد لحظات كان الصقر يحلق بجوار رفيقه، عاد الأمير مسرعاً ليسأل العجوز :

- كيف أقنعته بالطيران كرفيقه؟

رد العجوز:

- كان الأمر في غاية السهولة، لقد قطعت الغصن الذي كان يقف عليه.

انتهى من قصته، ثم وقف فجأة يلملم أطراف معطفه وينظر خلفه محاولاً أن يرى ما علق بمعطفه الطويل رغم إتساخه، ثم تركني دون أن ينبس بكلمة واحدة وسار ببطء عائداً إلى كوخه، وقفت محاولاً اللحاق به، لكني تراجعت بعد خطوتين وعدت لأجلس حيث كنت، أسندت رأسي براحتيّ، فكرت في كل كلمة قالها جوزيف، لكني لم أهتدي إلى مقاصد القصة التي رواها، تساءلت دون طائل أو إجابة:

- أي غصن ذلك الذي يريدني أن أقطعه؟

تساءلت كيف يعرف هذا العجوز كل ما أمر به، بعضٌ مما يحكم تقلبات حياتي هي مشاعر تحوم في صدري، فكيف تصل إليه، لكن سرعان ما تبددت تساؤلاتي، عندما باغتني شعور بالقوة، شيء ما في صوته كان يحرضني، ينفخ من حماسه في صدري، عزمت ألا أطيعها، لن تجرني كخروف خلفها، ما يضرني أن أكون صلباً أمام لينها، تساءلت مرة أخرى، أي نوع من السلاح تملك هذه الجميلة كي تخضعني إلى هذا الحد؟ لا لن أخفض لها جناحي بعد اليوم، على أي حال هي تفتعل غضبها مني ولا تكلمني، ظناً بأني سأعود أتمسح في قدميها، شعرت بأنني أمقت نرجسيتها، وسلاح الصمت الذي تُغذي به رغبتها المحمومة في تملك مقاليد حياتي على هذا النحو المذل، ثرت ورضيت وحزنت وسعدت صامتاً، خلال عودتي إليها، تمنيت لو أن أحدهم يكسر الغصن الذي أقف عليه، وعندما وقفت أمامها، كانت تتكئ بكفيها على خشب الباب، وقفت مقابلاً لها، تداركت حقيقة أنني أقف أمام نفسي بلا حُجب، تمتمت بكلمات لم يتضح منها إلا ارتجاف فكيَّ، وزبد تراكم على حواف شفتي، لا شيء يخرج من حروف بحثت فيها عن وصفٍ لسطوة النور والبهاء، تجعدت كل الحروف ولم تتفصد بأكثر مما تحتمل الدهشة، هاجس يجتاحني ويدفعني نحو كمال الوصف لحضورها

الملائكي، فخذلتني الرقعة و خانني المداد، أدرك أن العشق ذو لغة لا يفقهها إلا من هم على شاكلتي من الضالعين في الصمت، نغزني ثقل الهوى في رئتي، كادت أن تتفلت كلمات كانت حبيسة منذ أسطورة مصباح المارد، لم تسعفني الحروف، بحثت عميقاً في ذاتي المضطربة، أصغيت لهاتف صدري الموجوع : لا تحزن، لم يكن وصفها حاضراً حين تعلم آدم الأسماء كلها، نحن نستدل بالوصف على حضورها إذ يسبقها طيف مموسق يؤذن بحضورها، فتشتعل كل مكامن الرغبة، كان ثوبها الشفيف لا يخفي ما اكتنز في تضاريسها الأنثوية الطاغية، تبدل كل حنقي أثناء الطريق إلى رغبة تشتعل امام أنوثتها.

انقشعت كل الغيوم التي أثقلت صدري غيظاً، كنت غاضباً من نفسي وغاصب عليها، تحول غضبي في لحظة إلى نوبة من الصمت الخاشع أمامها، وتبددت صورة جوزيف العجوز، ولم أعد أتمنى إلا احتضانها، استبد بي الشوق إليها، هي فتحت أبواب عودتي بابتسامة، وجدت في ابتسامتها فرصتي كي أعود لها، فعدت طائعاً.

كان اليوم الخامس لحريق الحقل وصمت راحيل، مدة تكفي كي تخبو جذوتها، استقبلتني ببسمة طارئة لم أتوقعها، لذلك خرت كل جيادي على ابواب قلعتها حين ابتسمت، وبعد ليلة جامحة، جلسنا نحتسي قهوة الصباح، انضمت إلينا إيستر بعد لحظات، كان حديثهن

وودوداً، أشعرني بالألفة للمرة الأولى منذ وطأت أقدامنا هذه الأرض، استرجعت لحظات إيستر الودودة حين كنا في فياتسكو، فجأة اعترت راحيل جدية طارئة فاستدارت برأسها نحوي، وقالت:

- تواصل الرفاق معي في غيابك، إنهم يعدون لهجوم كبير.
- هل سنحرق حقولهم مرة أخرى؟
- لن نحرق شيئاً ولن نقتل أحداً فلا تخف.
- ماذا سنفعل إذاً؟
- سأحكي لك شيئاً في غاية الأهمية والسرية أيضاً، إياك أن تخبر به أحداً ولا تخبر جوزيف العجوز أيضا.

التفتت راحيل وقال بحدة:

- أما زلت تقابل هذا العجوز الخرف؟
- أنا أقضي معه بعض الوقت للتسرية عن نفسي فقط، لا حديث بيننا يدور عن أي شيء مهم.

قالت راحيل وقد تمادت في جديتها:

- عليك أن تمتنع عن مقابلته، لن تطول حياة هذا العجوز أكثر مما تحتمل ثرثرته.

انتابني شعور بالقلق، كاد أن يعيدني إلى كلمات جوزيف، لكنه ما لبث أن تبدد، فعدت إلى هالة الطاعة التي اشتعل محيطها كي أبقى حبيساً بداخلها، فأردفت راحيل:

- ربما علمت من لقاءات سابقة أن الإنجليز يكنون العداء لمنظمة شتيرن والأرغون، وضعنا خطة مع المنظمتين لسرقة الأسلحة من مخازن الإنجليز، وسيوجه الإنجليز اتهاماتهم لتلك المنظمات فيما سيبقى السلاح المسروق بحوزتنا بعيداً عن توقعاتهم، وحين يتوقف البحث سنعطي المنظمتين حصتهم مما غنمنا.

أومأت برأسي موافقاً دون أن أنبس بكلمة واحدة، ساد صمت بيننا لعدة لحظات، فغادرتنا إيستر، كان الوقت يزحف بنا نحو الظهيرة، فسرنا نحو بوابة الكيبوتس، كنت أظن أنها ترغب بالسير معي، لكني تفاجأت برفاقها خارج البوابة ينتظرون وقد أرجلهم من العربة الواقفة، أيقنت أنها على موعد معهم، وحين سارت بنا سيارتهم، مررنا بعد ساعة عن معسكر تحيط به أسلاك شائكة من كل اتجاه، درنا حوله دورتين حتى كاد أن يوقفنا بعض الحراس، عندما تقدموا نحونا، عدنا بسرعة إلى الكيبوتس، عند البوابة وجدنا آخرين في انتظارنا، اكتملت الحلقة حول راحيل، فبدت كقائد كتيبة عسكرية، فاجأتني قدرتها على الحديث بهذا النسق المحكم، وكأنها توزع

أحجار الشطرنج كما تقضي قوانينها، من بين حديثها، ظهر اسمي كضيف في فيلم طويل، فأدركت أن دوري لن يتعدى مرافقتها، فرضيت بذلك، في الواقع لم أكن أبحث عن أي دور، وعندما انفض الجمع، سرنا بأيد متشابكة باتجاه البيت، سألتها أثناء سيرنا المتهادي:

- متى سنسرق مخزن السلاح؟

رمقتني بنظرة وكأنها تلوم سؤال طفولي، ثم ابتسمت وقالت:

- أنت معي، لذلك ستكون أول من يعلم.

أدركت أنها تحظى بمكانة غير تلك التي كنت أتوقع، هي تملي وتنفذ، أخافتني صورتها وهالني صوتها الأجش، لم يعد بتلك النعومة التي عهدتها، مسحت جبيني لعلي أستعيد صورتها الأولى كما أحب، عبثاً حاولت، لمعت أمامي صورة الدم ينفجر من بين أصابعها، فسحبت يدي منتفضاً من بين أصابعها كالمصعوق، أوشكت أن أتركها لتكمل الطريق وحدها، كان لأحداقي رأي آخر، حين نظرت في عينيها، فأكملت مسيري مكبل بضعفي وخوفي من فقدانها.

كانت إيستر في انتظارنا، وعلى غير عادتها، كانت قد أعدت لنا غذاءً فاخرا، أكلت بنهم وكأني خلعت ظنوني وخوفي خارج البيت، ودخلت بدونها آمناً ومطمئناً، كانت راحيل ترقب التصاق الطعام بأصابعي الشرهة، كذلك إيستر، وحين تبادلن نظرات الدهشة، توقفتُ عن الأكل، فأفلتت من راحيل ضحكة تناثر مع فجورها ما كانت تلوك في فمها.

استوقفني ضحك إيستر، تذكرت ضحكاتها في بيتنا حين كنا في فياتسكو، ما زالت تحتفظ بذات الرنين، لكنه كان أكثر وداعة ومدعاة إلى الفرح، كيف انكفأت إلى هذه الصورة الفاحشة، كعجوز تقف بنصف ثوب، تكشف عن نهدين معطوبين على قارعة شارع موحل، وقد بالغت في طلاء وجهها وشفتيها لتبيع متعة نتنة تفوح منها رائحة الشتائم التي تمضغها طوال اليوم للمارين بها، كرهت إيستر لكني لم أقوى على التوقف عن حب ابنتها راحيل. وحين تسلل الليل حذراً ينازع الأيام الكامنة والمشدودة كوتر مشدود، خرجت راحيل إلى المخزن الذي ما زال يظلل قبرا أبي، نادتني من داخله، فتبعتها، وقفت مشدوهاً حين رأيت كومة الرمل بجانبها، تخيلت للحظة أنها تنبش قبرا أبي، هالني المشهد، لكن سرعان ما استبعدت هذا الظن الخبيث، وعندما اقتربت أكثر، هالني ما رأيت من سلاح، بنادق ما زالت ترشح زيتا تدثرت به لتبقى بعيداً عن

الرطوبة والتآكل، حملت معها ما استطعت من بنادق وأسلحة رشاشة.
أمسكت بيدها واحداً من الرشاشات من نوع ام جي أربعة وثلاثون، أخبرتني أنه سلاح جديد لا تملكه أقوى الجيوش، قدرت هول ما نحن قادمون عليه، تخليت الحرب، وحريق حقول القمح، زاد تقلص الفضاء أمامي، شعرت بأن الأرض تضيق وتجمع أطرافها لتنطوي وتنجذب نحو مركزها، وثبت حين ناداني نحيح[23] صوتها، فواصلت حمل الأسلحة وتكديسها في باحة البيت، ومع ساعات الليل الأولى، وزعت كل الأسلحة على عدد مساوٍ من الرجال، فأيقنت انها خططت لكل حركة قدرها، وما إن انتصف الليل حتى خرجنا، أحدنا يتبع الآخر كقطيع كلاب برية، كنا نتوارى داخل بيارات العرب حين يقترب منا أي ضوء، ثم نكمل سيرنا، حتى وصلنا إلى المخزن الذي كنا نطوف حوله نهاراً، على بعد أمتار وجدنا مجموعتين تتربصان حول السياج الشائك، تفرقت مجموعتنا وكأن كل واحد منهم يعرف مكان وقوفه، كنا نسير بمحاذاة بوابة المعسكر، همست لراحيل أن المعسكرات لا تسرق من بواباتها، فأشارت بسبابتها أن أسكت، كانت أشجار الكافور المقابلة للمعسكر ضخمة، يستطيع رجلان أن يختبئا خلف جذعها، كانت أضواء برج

23 النحيح هو صوت الحيوان الصادر من جوفه

المعسكر تمر من أمامنا، بسرعة خاطفة، لم يكن من يحركها ليرى شيئاً، ملت برأسي من خلف الشجرة، رأيت أربعة من الرجال يتقدمون باتجاه بوابة المعسكر، اقتربوا من حارس البوابة وتصافحوا، الحارس المعلق في البرج أطفأ كل الأضواء، وبعد أن تسلل الأربعة إلى داخل المعسكر، نظرت راحيل في ساعة يدها، ثم أشارت للجميع أن يتقدموا من السياج الجانبي للمعسكر، أحد الأربعة استطاع أن يفتح ثغرة كبيرة في السلك الشائك مقابلة تماماً للمخزن الكبير، دخلنا جميعاً منها، ولم يتبقى خارج المعسكر إلا المكلفين بالمراقبة، تقدمت شاحنة تسير ببطء إلى الخلف حتى التصقت بالجدار، كانت أبواب المخزن مشرعة، بدأنا نحمل السلاح ونلقيها في صندوق الشاحنة، كان ضجيجنا كفيل بأن يسمع النائمين والأموات، لكن أحداً لم يعترض طريقنا، وحين انتهينا من تحميل كل ما احتوى المخزن من أسلحة، سألت راحيل: لماذا أحضرنا كل أسلحتنا و كل شيء يسير وفق اتفاق مع الحراس، فأومأت لي أن أسكت، وحين تفرقنا، شقت الشاحنة طريقها إلى جهة لا أعلمها، أردت أن أسألها مرة أخرى وقد ابتعدنا عن المعسكر، لكن صوت الرصاص المنبعث من خلفنا أسكتني، فبادرتني:

- لهذا السبب أحضرنا أسلحتنا.

لم أفهم ما تقول، فأكملت:

- قبل اقتحام المعسكر اتفقنا مع الحراس الذين رأيتهم، وهم من اختار لنا هذا التوقيت، بعد تفريغ المخزن كان لا بد من قتلهم وافتعال اشتباك سينسحب منه شبابنا بعد لحظات.
- ولماذا نقتلهم وقد أكفونا عناء المواجهة مع جند المعسكر؟
- لأننا لو لم نقتلهم، سيعرف الإنجليز خيانتهم، وربما قادهم التحقيق إلينا، ستبدو عملية سطو عادية والموتى لا يسألهم أحد.

بعضهم سمع ما قالت فانفجرت ضحكات تبعها سعال محموم، أخافني غياب الوفاء، وهذا القدر القميء من الغرائز التي تتكاثر كطحالب وتتراكم لزجة على حواف حياتهم، هذا التعطش للدم يعيد خرافة الوطواط المقدس في كهف يعج بجثث زرقاء تقدم له كقرابين، يقتات منها الدود بأكثر من الأنياب المفرغة كخراطيم الامتصاص، هذا الغدر الذي يسيل من بين أسنانهم كلعاب الضباع الجائعة أخافني، فسرت صامتاً، لا أعي مما يحدث سوى سطو مزيف شاركت به كممثل في خلفية المشهد، لست أدري متى سأتخلص من ثقل الظنون والخيالات، المسافة بين الرضى والرفض بعيدة جداً، كقطبين، لماذا تتقلص في رأسي، لا يفصل بين رضاي و سخطي سوى خط موشى بالخيال، لكني رغم تزاحم الصور في رأسي، أذعنت لها صاغراً وطائعاً، أقف على متن

الحكاية، كحرف كتب بحبر مختلف، لكن قدماي لا تبرح الصفحة كعالق في الوحل إلى ركبتيه.

مرت أيام قليلة منذ السطو على مخزن السلاح، عاث فيها الإنجليز في قرى الفلاحين بحثاً عن السلاح المسروق، زجوا بالعشرات من الرجال في سجونهم، لكنهم لم يقتربوا منا، كنا نرى تتابع عرباتهم الغاضبة نحو القرية المجاورة، تعمدوا البحث في خوابي القمح، نثروه في باحات المنازل الطينية، وأحرقوا منه ما أحرقوا، أخبرني جوزيف أنهم قتلوا سبعة رجال هناك، أثناء مداهمتهم لبيوت الفلاحين، وحين سألته:

- كيف تملك الفلاحون البسطاء كل هذه الأرض، أي سلاح كان بحوزتهم كي يمتلكوا كل هذه الحقول والبيارات؟

أجابني بعد لحظة صمت طالت:

- إنهم أجيال تتابعت.

كنت قد إعتدت كلام جوزيف القليل، فهمت أن أولئك الفلاحين توارثوا الأرض جيل بعد جيل، وكي أحرضه على الحديث سألته:

- أسمعت بالسطو على مخازن أسلحة الإنجليز؟

هز رأسه موافقاً، وبعد لحظة قال:

- ألم تكن معهم؟
- نعم كنت معهم لكني لم أقتل أحداً.
- غداً ستقتل، ولن تأتي لتسألني، نحن نبقى بصورنا الآدمية إلى حين، ثم توارينا جرائمنا، لم تكن شاهداً حين قتلوا مئات المهاجرين، كانت ابنتي "لادا" بينهم، كانت في ريعان شبابها، أرادت أن تتبع هروبي فهربت من الثلج إلى نار وماء، سأروي لك ما حدث:

قبل ستة سنوات، حملت السفينة "باتريا[24]" مئات المهاجرين، لم يلتزم اليهود بالعدد، فحملوا المئات معهم، لم يوافق الانجليز على تفريغ هذا العدد، فقام اليهود بتفجير جزء منها، لإرغام الانجليز على استقبال الناجين، ولعلك لا تعلم أن الصيادين العرب أنقذوا الكثيرين منهم.

قاطعته قائلاً:

---

[24] سفينة باتريا هي السفينة التي أقلت 1800 مهاجر من روسيا وأوروبا إلى فلسطين، عام 1940وقامت منظمة الهاجاناة بتفجيرها في عرض البحر بعد رفض الانتداب البريطاني استقبالهم في ميناء حيفا للضغط على الانجليز وكسب التعاطف الدولي معهم كضحايا.

- لم أعد أفهم من يدير الصراع على هذا النحو المعقد، ضاق صدري بمئات الحكايات المتناقضة، لا تشبه إحداها الأخرى، لم أعد أعلم أين يجب أن أقف.

وقف جوزيف، أطال النظر في عيني، وانصرف دون أن يرد، سرت باتجاه بيتي وقد تكاثرت الأحجيات التي دسها جوزيف في رأسي، للمرة الثانية رأيت إيستر في أثري، وحين عدت إلى راحيل سألتني:

- إلى متى ستبقى كورقة فارغة، يخط فيها العجوز الخرف ما شاء من الكلمات؟

تجاهلت سؤالها وسرت باتجاه غرفتي، فتبعتني، جلست على حافة السرير بجواري وقالت:

- الحرب في العالم تضع أوزارها، تغير وجه الأرض حولنا، وقريباً سيكون لنا شأن آخر، عليك أن تتخلص من هذا الانفصام الذي يعتري روحك، حدثوني بشأنك، جميعهم يعلمون أنك مرغم على مرافقتي، بعضهم يفكر في التخلص منك، لولا وجودي بينهم لقتلوك.

أمسكت بيدها المرتكزة إلى حافة السرير وقلت:

- عندما كنت صغيراً رأيت موت أمي، وتساءلت ما الذي يجب أن أفعله كي أحزن، بحثت عن الحزن في وجه أبي ووجه إيستر، رأيته لكني كنت عاجز عن تقليده، أشياء بداخلي تشدني في كل اتجاه، تجذبني أقطاب متنافرة، أشعر أنني في وسط إعصار، ساعديني أرجوك كي أتخلص من ثقل صدري.

احتضنت رأسي، وهمست:

- أعلم من القى في صدرك هذا القدر من الضياع، لا عليك، يستأصل الجراحون الجزء المصاب حين يتعذر علاجه، فلا يشعر المريض بالألم ومع مرور الوقت ينساه.

بعد ان تركتني، غفوت فأيقظني ضجيج الناس، نظرت من نافذة تطل على ساحة الكيبوتس، كانوا يركضون باتجاه كوخ جوزيف، خرجت مسرعاً، فقابلتني إيستر ودون أن أسألها قالت:

- وجدوا العجوز جوزيف مقتولاً في كوخه.

حزنت كثيراً لموته، كانت قدماي تجرني إلى كوخه كلما سرت بين ساحة الكيبوتس وأشجار السرو التي تحيط به، وقفت ذات مساء أمام كوخه، تمنيت لو أنه يخرج إلي، لكني سرعان ما تركته وسرت عائداً باتجاه بيتي، في الطريق قابلني أحد حراس

الكيبوتس، قال لي أنهم سيهدمون كوخ جوزيف، لم يزعجني حديثه، صرت أتحسس صدري، لم أشعر بذلك الخوف الذي ينتابني دائماً، ولم أشعر بذلك الحزن الذي تملكني يوم مقتل جوزيف، أصبحت أصغي لكل حديث يذكرني به، وقد تقودني قدماي إلى كوخه، لكني لم أعد أشعر بالحنين إليه، أنكرت على نفسي هذا الشعور البارد والمحايد، لكني ألفته بمرور الأيام، إلى أن أتت راحيل ذات مساء وأخبرتني أن المئات من اليهود سيصلون إلى ميناء يافا، وأن علينا استقبالهم، ومرافقتهم إلى المستوطنات التي سيتوزعون عليها، وعندما أفقت في صباح اليوم التالي، أيقظت راحيل، و ذهبنا معاً مسرعين إلى الميناء، رافقنا صديقها الأشقر النحيف بسيارته، وحين وصلنا إلى هناك، كنت أحمل حقائبهم و أطفالهم كأني في استقبال عائلتي، راحيل كانت تقف مع عدة رجال اجتمعوا حول ضابط إنجليزي، كانت تنظر إلي بين الحين والآخر، قرأت في عينيها دهشة التحول من النقيض إلى النقيض، وعندما عدنا معاً بعد يوم شاق، قضيته في حمل متاعهم وحقائبهم، جلسنا تحت شجرة خروب ضخمة، التصقت بي راحيل وقالت:

- أترى كيف استقام حالك بعد مقتل العجوز الخرف؟

انتفضت مبتعداً عنها قليلاً كي أرى وجهها بوضوح، جللني صمت مريب، سألت نفسي ولم أجرؤ على سؤالها، أتكون راحيل قاتلة جوزيف العجوز؟ حديثها يوحي بذلك، طال صمتي فأدركت راحيل تساؤلاتي وكأنها تقرأ صدري، فقالت:

- لم أقتله، كان الحكم بقتله يسبق حضورنا إلى هنا، لكنهم كانوا يتحينون فرصة مواتية.

حديثها لم يثير استغرابي، لا غرابة فيمن يقتل مئات اليهود كي يجد في موتهم حياة للآخرين أن يقتل جوزيف أيضاً، تصنعت الحياد والصمت، ولكني سلمت آخر قلاعي لهواها، سأعيش على نحو يرضيها، وسأفعل كل ما تطلب مني، وحين ابتسمت وقالت:

- اليوم رأيت إيفانوف الذي أحب في الميناء، أثرت إعجابنا جميعاً.

وحين طبعت على خدي قبلة ناعمة، انتشيت وعدت أكرر لنفسي وعدها بأن أتبع خطاها ولو إلى جهنم.

أشهر مرت إعتدت فيها على الخروج ليلاً مع راحيل ورفاقها، لم يكن دوري ليتعدى المراقبة أو الحراسة، كان صراخ القرويين يحزنني، وكان حزني يتبدد بسرعة كنت أستهجنها في كل مرة،

إلى أن إعتدت سماعه وألفته، خرجنا ذات ليل، مسافة طويلة قطعناها سيراً إلى قرية السوالمة[25]، قالت راحيل أن بلدات العرب المجاورة لنا اعتادت هجماتنا، سنبتعد عنهم حتى يطمئنوا ثم نعيد هجماتنا عليهم، سرنا خلفها كقطيع، لا أحد منا يعلم وجهته، وحدها كانت تحمل خارطة الطريق في جيبها، تخرجها عند كل مفترق بين بيارتين، ثم تطويها وتشير بيدها فنتبع إشارتها، بعد ساعات من المشي، وصلنا إلى أطراف بيارات برتقال متصلة حتى تكاد تكون بلا نهاية، تفرقنا وفق إشارة راحيل إلى مجموعتين، وللمرة الأولى لم تطلب مني الإنتظار للمراقبة أو الحراسة، أمسكت بيدي وسحبتني كطفل مذنب إلى داخل البيارة، أخرجت من جيب سترتها كيس كبير وطلبت مني ان أملأه بالبرتقال، نظرت في انعكاس نور القمر الأزرق على وجهها متسللاً من بين أوراق الشجر، سألتها بصوت خفيض ومكتوم:

- لا أصدق أننا قطعنا كل هذه الطريق كي نسرق البرتقال.

نكزت كتفي بسبابتها وقالت:

[25] قرية فلسطينية مهجرة تقع قرية السوالمة حول مجرى نهر العوجا الأوسط على بعد 16 كم من شمال شرق مدينة يافا.

- خذ ما تستطيع حمله من البرتقال وعليك أن تصمت حتى ننتهي ونعود إلى بيتنا.

كانت الصناديق أمامي مليئة بالبرتقال، ملأت كيسي بالقدر الذي أستطيع حمله، ثم انسحبنا إلى ركن غير بعيد عن البيارة، اختبأنا خلف تلة رملية، وجلسنا ننتظر رفاقنا، كانت راحيل تنظر في ساعة يدها قلقة، كان التوتر المنعكس في حركات يدها العشوائية مدعاة لخوفي وقلقي، حاولت أن أسألها عن سبب تأخرهم، لكنها أغلقت فمي بيدها، ثم قفزت تنظر باتجاههم، انتشر ضوء برتقالي من وسط البيارة، ثم علت ألسنة لهب، معمعة الحريق علت، ومن خلف صناديق البرتقال، ركض رفاقنا، حتى وصولوا إلينا، أدركت أننا أتينا لنحرق أشجار وصناديق البرتقال، وقبل أن ننصرف، قالت راحيل بصوت آمر:

- لا تنسى كيس البرتقال.

حملته مستشعراً سادية الطلب والأمر، لكنني حملته وتبعتهم، سرنا في طريق آخر غير ذلك الذي سلكناه حين قدمنا، سرنا شمالاً تاركين خلفنا جحيم يستعر في بياراتهم، كان بإمكاننا سماع ضجيجهم، خلتهم يهرعون لإطفاء الحريق، لكن راحيل أخبرتني، أنهم لن يستطيعوا، اشتعلت النار في اماكن متفرقة وبعيدة، بعد

عشرات الأمتار طلبت راحيل مني أن أضع كيس البرتقال على الأرض، أخرجت من جيبها الخلفي سكيناً و أحدث ثقب يتسع لبرتقالة واحدة، ثم أمرت أحد الرفاق أن يحمله ويسير خلفهم، كان البرتقال يسقط من الكيس كلما سرنا، حتى وصلنا أطراف قرية كان العرب يسمونها قرية أبو كشك، كان الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى القرية هو ذلك الطريق الذي سلكناه، وضعت راحيل ما تبقى من كيس البرتقال هناك وعدنا مبتدعين عن أثر مسيرنا الأول كما طلبت منا، وحين وصلنا بيتنا، كان الفجر قد لاح في الأفق الشرقي امامنا، تهالكت إلى عتبة الباب أتحسس قدماي، أما هي كانت تقفز منتشية بما فعلت، لم أقوى على اللحاق بها حين فتحت ذراعيها للهواء كسجين تحرر لتوه، لم يغادرنا رفاقها، أحدهم سار معها حتى تواريا خلف أشجار تماهى لونها الداكن مع ظلمة باهتة، فلم أعد أراهم، تسلل خدر طفيف ينتشر في جسدي فغفوت، وحين فتحت عيناي كان الرفاق قد غادروا، وحدها راحيل كانت تقف أمامي باسمة، اتكأت على كتفها حتى وصلنا إلى غرفتنا، طلبت مني أن أخلد للنوم، لكن غفوتي كانت قد أعادت لجسدي المنهك شيئاً من الراحة، فسألتها:

- ظننت اننا سرقنا البرتقال لنحضره معنا.

أطلقت ضحكة ثملة تمايلت معها وقالت:

- أنا لا أحب البرتقال، منذ ذلك اليوم الذي أعطاك صديقك الفلاح برتقالتين، لم أعد احبه، سرقنا البرتقال كي ....

أرادت ان تكمل فقاطعتها:

- أعلم أننا سرقنا البرتقال وتركنا لأصحابه علامات تدل على السارق ومشعل الحريق.

أمعنت في ضحكها وقالت وهي تزم شفتيها ساخرة:

- المساكين سيعتقدون أن جيرانهم من قرية أبو كشك سرقوا برتقالهم وأحرقوا ما تبقى في الصناديق.

ثم أفلتت ضحكة أكثر فجوراً وقهقهة فسألتها:

- لم نفعل بهم ما نفعل، نسكن هنا منذ سنوات، ولم يؤذنا أحد منهم؟

ردت وقد تربد وجهها على نحو لم أتوقعه:

- لن تفهم ما يحدث حتى تدرك أن الحياة الجديدة التي نؤسس لها ستريحنا من ثقل الماضي بفقره وجهله، لم نكن لنحظى بها لو بقينا مغروسين هناك في الثلج ومزارع أبيك ونبيذه.

بعد أشهر مرت، كنت قد ألفتُ مكرها كل الشر الذي تحمله، ولكن ما جدوى معرفتي، لم تغير مكانتها من قلبي، تعلقت بها أكثر، كانت عيناها تمسح كل غضب في صدري، اكتفيت بلمسة من يديها كي أعيد ترتيب مشاعري نحوها كجيش يعيد انتشاره، إلى أن أفقت يوماً ما على يدها تمسد وجهي، كانت وادعة على نحو غير مألوف، لعلها بالغت في الدلال فرأيتها بهذا القدر من الحنان، وحين اعتدلت من فراشي، أخبرتني أنها حامل، ما زلت أذكر كيف احتضنتني وبكت، لم أعرف سبباً لبكائها، وقفت إيستر ترتكز إلى باب الغرفة وقالت:

- لا بد أن تتزوجا، أنتم تعيشون كزوجين، لا ينقصكم سوى كاهن يعلن زواجكما.

ذهبنا معاً في اليوم التالي إلى الكنيس، كان عبارة عن غرفة طويلة تتقدمها حديقة وحين إقتربت من مدخل الحديقة المزركش، قابلتني إيستر تسير بوتيرة غير معهودة منها، مرت بجانبي كعاصفة ساخنة، ولم تلتفت إلي، حثثتُ خطاي إلى إيستر، كانت غاضبة أيضاً تكاد تسمع زفير أنفاسها المتلاحقة، وما إن سألتها عما يحدث، خرج إلى أحد حاخاماتهم، كان يشير بكفين مقلوبين، ثم قال: للأسف لا نستطيع تزويجكم، أنت غير يهودي، ردت راحيل بما يشبه الانفجار:

- إنه معنا وينفعنا أكثر مما تفعل أنت.

لم أشعر بذلك الغضب الذي يجتاح راحيل وأمها، لم أكن لأغضب لأن رجل بلحية كثة ونظارة بسمك زجاج سيارة و بدلة سوداء يرفض تزويجنا، أمسكت يد راحيل بهدوء وسرنا عائدين إلى بيتنا، وفي المساء كانت إيستر قد أحضرت بعض الرجال الذين نصبوا مظلة بيضاء وسط الساحة المقابلة لبيتنا، وقبل أن نخرج أعطتني خاتما من الذهب كي أقدمه لراحيل تحت الخيمة، أحدهم كان يجلس على طاولة غير بعيدة عن المظلة، تقدمت ممسكاً بيد راحيل حتى وقفنا تحت المظلة، كثير مما قاله الرجل الجالس إلى الطاولة لم أفهمه، مدت راحيل يدها فألبستها الخاتم، ثم توجهنا إلى رجل الطاولة الذي طلب مني أن أوقع على ورقة كان قد أعدها مسبقاً، فهمت لاحقاً أن ما فعلناه هو طقوس الزواج التي كان يجب أن يطبقها حاخام السوالف الطويلة، لم يكن ما يميز ليلتنا سوى بعض الرجال و الكثير من الخمر والشواء، وحين اختلينا أرادت راحيل أن تتقمص دور العروس، فافتعلت انصهاري معها كما شاءت.

بمرور الوقت بدأ أندرو الجنين بالتمدد في أحشائها، فلم تعد تخرج مع رفاقها، كثير من الأحداث مرت كنت أحرص فيها على المشاركة محاولاً أن أملأ بحضوري ثغرات غيابها، لكنني لم أفلح في كل المرات، كان لها حضوراً طاغياً، تمتص كل من حولها

كاللون الأسود، تمتص كل الألوان من حولها، وسرعان ما تكشفت حقيقة حضوري المزيف، حين أزفت ساعة الحقيقة، كوجودي الثقيل كان غيابها، وفي المرة الوحيدة أوجبت وقوفي تراجعت فجأة، يومها كنا عند جدار الكيبوتس مجموعة من عشرين رجلاً، قالوا ان أحد العرب المجاورين أضرم النار في إطار مطاطي بالقرب من الجدار، فخرجنا كل يحمل بندقيته، نطلق النار على كل شيء يتحرك، كان مجرد جثة تكومت على بعد أمتار منا، لكن انينها كان أقرب من عيني إلى أذني، دنوت منها ببطء وترقب، وحين وكزتها بفوهة البندقية، استدار نحوي وجه مشرق رغم عتمة الليل، كانت سيدة في منتصف العمر، قدرت أنها كانت عائدة من حقل زوجها، وحين إقتربت منها أطبقت يدها على فوهة البندقية، كانت قبضتها أقوى مما يوحي أنينها، تحشرجت بكلمات لم أفهمها، لكني أدركت أنها كانت ترجوني أن أقتلها، كيف يجد الناس راحتهم في الموت، لم يعد أحد من هناك، أبي أيضاً لم يعد، كنت سأسأله هل استراح من رطوبة المخزن ووخز الشعور بالفقد و الغربة، في غمرة قبضتها، انزلق إصبعي على زناد البندقية، فانطلقت رصاصة، انبجست نافورة دم ساخن، ما زلت أسترجع حرارته اللزجة تغرق يدي، تراجعت عدة خطوات كدت أتعثر بحجر ناتئ، إلى ان ناداني أحدهم، أخبرني أن راحيل على وشك الولادة،

أعطيته بندقيتي وعدت راكضاً إلى البيت، عند عتبة الباب سمعت صراخ إبني الوليد لتوه، حملته برفق وتقدمت به نحو راحيل، وحين إقتربت منها، رأت ما على يدي من دم، اعتقدت انه نازف من طفلها، أدركت ما تفكر به من شحوب وجهها، فتركت الطفل بجوارها وهرعت لأغسل يداي، وقفت امام المرآة أنظر في وجهي أحدق في انعكاس صورةٍ لا تشبهني، وأقلب يداي، للتو سلبت من إحداهن حياتها، وبتوقيت ذات الرصاصة وُهِبت لي حياة أخرى، أيكون للخطيئة ثواب، أي ثواب هذا الذي يمنحني سُلّم لا يتعدى طول ذراعي لأخرج من بئر بعمق عشرات الأمتار، مثوبة السلم لن تخرجني من البئر، تماديت في التمني فأوغلت في الخطيئة.

جاهدت كي لا أبكي، وعدت إلى راحيل، باغتتني إيستر:

- سنسميه أندور، ما رأيك يا إيفانوف؟

لم يكن لي رأي أقوله، نظرت إلى وجه راحيل وحين دلتني ابتسامتها على الرضى رضيت، ما زلت أذكر ذلك اليوم البارد من أيام كانون من العام ألف وتسعمائة وستة وأربعون، كنت أتفقد جسدي الفتي، ما زلت غضاً وأنا أنظر إلى وجه أندرو، أصغر من أن أكون أباً، لكن هذا الرضيع الذي يشبهني كثيراً، جعلني أشعر بكل حركاته العشوائية كأنه يتحرك في صدري، كنت احمله حين

تنشغل راحيل، إلى أن ألفتُ وجوده الدائم معي، وكنت أتساءل أنى لطفل ما زال كقطعة من الزبد كل تلك الدعة ليغفو بين يدي بهذا القدر من الاستغراق المطمئن، هذا النقاء الأبيض لم يتسخ بعد، لم يتلوث ببقايا ضحكة مبتذلة، قد يكون على نحو ما ثمناً لغاية وضيعة، كتلك التي تطلقها إيستر بين الحين والآخر حين تصطدم نظراتنا العابرة.

بعد عدة أيام، كانت راحيل قد استعادت عافيتها، خرجت ذات صباح مسرعة، لم تلتف نحونا، إستطعت أن أرى مجموعة من رفاقها كانوا في انتظارها في الساحة المقابلة لبيتنا، رأيتهم على نحو مختلف، كانوا يلبسون زي عسكري موحد، وبنادق متشابهة، كانوا أشبه بدورية عسكرية، وحين عادت بعد منتصف الليل، كانت ترتدي بزة عسكرية مثلهم وتحمل معها بندقيتين وبزة اخرى، وحين سألتها عما يحدث، أخبرتني أننا مقدمون على حرب ربما تطول، انتفضت لمجرد الفكرة، منذ سنوات خلت، هرب أبي من تضخم معاني الخوف التي نفختها إيستر في صدره، كنتُ حقيبة من حقائب السفر في ذلك الهروب الكبير، بل كنت مجرد كيس حملوه معهم، وحين سألتها من سنقاتل، قالت سنقاتل كل شيء، لم أكن أعلم أن الجماعات المتناثرة على وجه هذه الأرض، انقلبت بين ليلة وضحاها إلى جيش، وحين بدأت أخبار القرى تصل تباعاً، كان

علينا أن نقوم بدورنا، لذلك أحضرت راحيل ملابس العسكر، وفي اليوم التالي، رافقتها قبل شروق الشمس إلى معسكر يعج بالعربات المدرعة ومئات الجند الذين اصطفوا بكامل عتادهم، قبل سنوات سمعت كيف أعدم الإنجليز بعض القرويين العرب، لأنهم ضبطوا بندقية وبعض الذخيرة، في ذلك اليوم احتفل رفاق راحيل، كان الحدث أعمق من إعدام رجل أو رجلين، كان حدثاً يؤسس لنهج أفضى في نهاية المطاف إلى جيش بكامل زيه وعتاده، سألت راحيل:

- ماذا لو تركناهم يعيشون في قراهم، لنا متسع من الأرض يكفينا بجوارهم.

أذهلني ردها، لم أكن أتوقع منها هذا القدر من المعرفة، وتساءلت من أخبرها، وأين تعلمت، لكني استرجعت ذلك اليوم الذي طليتُ به جدران القرية بالغراء، أدركت أنه ذلك النهج الناعم أشبه بأفعى تسعى تحت كومة كبيرة من التبن، قالت:

- قبل عدة أشهر، صدر قرار بتقسيم الأرض بيننا وبينهم، لكنهم رفضوا، وسيدفعون ثمن رفضهم، دعك مما تفكر به، علينا ان ننتظر أمر بالتجمع، لنستعد.

بعد لحظات كنا نقف كأوتاد في صفوف متتالية، أعادوا ترتيبنا في مجموعات، فانزوى كل قائد بمجموعته، وبعد أن إنفض لقاءنا عاد كل منا إلى بيته في إنتظار اللحظة الحاسمة، كنا قد تركنا أندرو مع إيستر، وحين عدت، طرأت لي فكرة الهروب من هذا العالم المضطرب، فقررت أن أهرب بأندرو، لم تكن لدي أدنى فكرة عن وجهتي، ثم تساءلت كيف سأعتني بوليد لم يكمل عدة أشهر من عمره بعد، فقررت مرة أخرى أن أتركه معهن، بعد منتصف الليل، خرجت متسللاً، لم تكن راحيل قد عادت بعد، وحين هممت بالخروج من بوابة الكيبوتس رأيتها برفقة أحدهم، لكني إستطعت أن أتوارى خلف جذع شجرة ملقى بجوار السور، حتى ابتعدوا، سرت ملتصقاً بالجدران حتى ابتعدت عن الكيبوتس، فقدت وجهتي بفعل البرد و الظلام المصمت من حولي، درت حول نفسي أكثر من مرة، وفي كل مرة كنت أرى أضواء بعيدة، خفت أن أهتدي بها فأسقط، كل الاتجاهات كانت مخيفة، تصدر منها أصوات الليل، وعواء ذئاب يقترب، فقدت إحساسي بالمسافات فكل الطرق سوداء، وكلها متشابهة، كان ثمة شارع معبد بقدر أوسع من شوارع القرى، حين سرت عليه، إقترب مني هدير صاخب، قافلة من العربات العسكرية كانت قادمة من الشرق، القيت بجسدي في منخفض يحاذي الطريق، فمرت القافلة دون ان يراني أحد، لم أتبين من

ضجيج العربات وصمت ركابها، هل هم من اليهود أو الإنجليز، ولم أكن أرغب في المعرفة، كنت سأهجرهم، فلم يبق متسع لمعرفتي من هم، سرت مرة أخرى بعد مرور القافلة، وصلت إلى نقطة في الشارع الطويل، يتسع فيها الشارع حتى تظن أنه ساحة للعب، حاولت أن أحث خطاي كي أتجاوزها بسرعة قبل أن تمر قافلة أخرى، لكني وقفت متجمداً عندما انقض بعض الجند وكأنهم خرجوا من الأرض، لم أرى سوى غبار كثيف كان يسبقهم، وصراخ أشبه بالعواء، إلى أن طلب مني أحدهم أن أستلقي أرضاً، وحين تبينت لغتهم اطمأنت نفسي، إلا أن ما تلقيته من ضرب كان كفيلاً بتبديد طمأنينتي، ثم اقتادني بعضهم إلى معسكر قريب، وضعوني في غرفة خشبية قديمة، بعد أن أخذوا من حقيبتي كل الأوراق التي هربت بها، كان الهواء البارد يستبيح أخشابها القديمة المتراصة بغير ترتيب فوق بعضها، انكفأت مقيداً من معصمي وكاحلي بسلاسل من حديد، قضيت هناك يومين تناوب كل من يدخل الغرفة على ضربي وأكثر ما أساءني أن بعضهم كان يبصق في وجهي، على أي حال لم أكن أفهم كثير من شتائمهم، في صباح اليوم الثالث اقتادوني إلى معسكر آخر، فكوا قيود السلاسل، وضعوني بجانب شجرة كبيرة، وكان أحدهم كان يقف فوق رأسي ممسكاً بسلاحه، إلى أن رأيت راحيل تسير باتجاهي يحيط بها عدد

من الجند، وحين إقتربت مني، حاولت الوقوف فنهرني الجندي الحارس، اقتربت راحيل كأنها تريد أن تهمس في أذني، لكني حين نظرت في وجهها، رأيت وجه آخر، كنت قد إعتدت تقلب وجوهها، لها وجه حين تطارحني الغرام، وجه يكتنز البسمة داخل تهاويل النشوة فتبدو مطواعة ولينة، ووجه حين تضحك يتقمص دلال أنثوي غريب، لعلها تفصح عنه بانغماس خديها داخل غمازتين، ووجه حين تبكي، كوجه السماء حين تغزوها غيمة سوداء، لكن هذا الوجه الممتعض، لم أعهده حتى بعد حماقاتي كما كانت تسميها، كان حلقي متيبساً من فرط الجوع والعطش والخوف، تتبخر من فمي رائحة تعفن بقايا الطعام التي علقت بين أسناني منذ يومين، لم أسمع ما قالته للجند حين ابتعدت عني قليلاً، لكنها غادرت دون أن تأخذني معها، صرخ الحارس في وجهي أن أسكت حين حاولت أن أناديها، ثم تقدم نحوي جندي آخر، قام بعصب عيناي، وقادني إلى مكان شعرت من وطئ أقدامي هابطاً أنه ملجأ تحت الأرض، تركني معصوب العينين دون قيد، لكني لم أجرؤ على فك العصابة لأرى، قدرت أنني تحت الأرض في قبو مظلم، فما نفع عيناي حين لا ترى، تذكرت ذلك اليوم الذي سبق رحيلنا من فياتسكو، قضيت اليوم مع راحيل بين براميل النبيذ في قبو منزلنا، كنت خائفاً يومئذ، لكن خوفي اليوم أعمق من كل مشاعر مرت بنفسي، أيقنت أنهم

سيقتلونني حين رفضت راحيل أن تأخذني معها، كان بإمكانها أن تطلب منهم إخلاء سبيلي لأعود معها، كانت تحظى بمكانة بينهم، لو طلبت لأطاعوها، أو لعلها طلبت فرفضوا، في كل الحالات أنا هالك لا محالة، وحين تيبس ظهري من طول جلستي التي لم أجرؤ على تغييرها لأرتاح، وقفت لبعض الوقت، لا أعرف كم من الوقت قضيت هناك، لكن أحدهم أتى وصعد بي إلى غرفة أخرى، وحين وقفت في منتصفها، أزال العصبة عن عيناي، كان ضوء الغرفة قوياً، فلم أستطيع فتح عيناي إلا بعد لحظات، وحين اتضحت الرؤيا، رأيت أحدهم يجلس خلف طاولة يقف بجواره جندي ضخم، سألني بلغة روسية سليمة:

- ما الذي ذهب بك إلى المعسكر الذي ضبطوك بجواره؟
- لم أكن ذاهباً إلى المعسكر، لم أكن أعلم بوجوده.
- المعسكر يبعد عن بيتك ما يزيد عن عشرة كيلومترات، ولا أحد يذهب إلى هناك دون غاية.
- كنت ضجراً، حاولت السير لعلي أسري عن نفسي.
- لدينا كل المعلومات التي فسرت لنا علاقتك بجوزيف العجوز.
- كان مجرد عجوز أقضي معه بعض الوقت.
- أكنت تشكو إليه سوء معاملة راحيل؟
- راحيل كانت ودودة، ولم تفعل معي ما يستدعي الشكوى.

- لكنك كنت تعارض مشاركتها.

قاطعنا صوت راحيل خارج القبو، وقف الرجل وقال:

- لولا شفاعة راحيل ماكنت ستخرج من هنا حياً.

لم اكترث كثيراً، كنت أدرك أن حضورها سيخرجني من هنا تحت جناحيها، قادني رجل آخر حتى وصلت إليها، ثمة عربة كانت تنتظرها، وحين عدنا للبيت، عادت راحيل لتمارس عقابي بالصمت مرة أخرى، تركتني داخل غرفتي، وانصرفت، بل تعمدت تجاهلي حين كانت تمر من امام غرفتي، لم يثيرني صمتها كثيراً، كنت أعلم أنها ستعود إلي، سيذهب غضبها سريعاً، وستعود.

كل ما كان يجول في خاطري تبدل في لحظة صمت قاتلة، حين أصخت السمع لحديثهن ليلاً، كنت قد رأيت راحيل بنصف عين تقترب من غرفتي لتتأكد أني نمت، وكانت راحيل تحكي بصوت مرتفع كي تسمع أمها، وكان صوت إيستر أقرب إلى فحيح أفعى، لكني إستطعت أن أسمعها بوضوح وسط سكون الليل الذي يلفنا.

قالت راحيل:

- لا أعرف كيف يفكر هذا الروسي العنيد، لم أفلح في ترويضه.

ردت إيستر:

- لا علاج له إلا كما عالجت والده.

ساد صمتٌ مريب لعدة لحظات، سمعت وقع أقدامها تمشي، فاعتقدت أنها ذهبت لتريها شيئاً ما، وحين عادت إلى مكانها أكملت:

- كنت أخلط هذا العشب مع طعام والده، فيبقى صامتاً وخاملاً كحصان مريض.

ردت راحيل تخالط حديثها ضحكات متقطعة:

- لكني أحتاجه معي، إن لم تحبي أبيه من قبل فأنا أحبه، عندما ذهبت إلى المعسكر الذي كان سجيناً فيه، حاولت أن أكون قاسية، فتركته لهم حين طلبوا أن يخضعوه لتحقيق ما، وحين عدت إلى البيت بدونه، أشفقت عليه، وعدت لإحضاره.

قالت إيستر بعد تنهيدة عميقة:

- أسأل نفسي دائماً، لم تزوجت من ذلك العجوز الحرون، في كل الأحوال كنت سآتي إلى هنا، لم يكن زواجي منه إلا حملاً زائداً، ثقل حملته معي، وما زلت أحمل بقاياه.

ردت راحيل:

- إيفانوف طيب، لعله يشعر بالغربة، أنا أيضاً شعرت بالغربة، لذلك لجأت إلى منظمة البلماح، كي أحرق في صدري كل شعور بالغربة والاشتياق، وحين قبلوا أن أشاركهم، دفعت ثمناً من جسدي، وأثماناً من روحي، كان جسدي تأشيرة دخولي إلى عالمهم، أتعلمين، أشعر أحياناً بالشفقة على أولئك القرويون العرب، تباغتني مشاعر غريبة تشدني بحبال من الإشفاق عليهم، ألم تخبريني أن أبي كان أحد تجار الشام، وأنه عاد إلى وطنه فانقطعت أخباره؟

كان الغضب جلياً في صوت إيستر، وكانت تنتفخ بفحيح متلاحق، كأفعى تتميز قهراً وسط حلقة من النار، فصرخت على غير عادتها:

- أنا لا أعلم من هو والدك، كثيرون من القوا بذورهم في حقلي.

صرخت راحيل بصوت مدجج، تخنقه مسحة غضب:

- لا تخافي، لن أبرح مكاني، لا درب أعود منه ولن أخبر أحداً بأن أبي عربي.

كنت مستغرقاً في رؤى متلاحقة، حديث إيستر كان اقتباسات من حكاية عشتها، أعرف كيف مرت، وتخيلت ما لم أحياه منها، لكن صورة إيستر في كل الأزمنة التي مر بها خيالي كانت مشوهة

وكريهة، وحين قالت أنها كانت تنتقي جموح أبي بأعشاب مخدرة، وددت لو أني أستطيع قتلها، لكني كنت جباناً و مرتجف، صدى الخوف في صدري أعمق من وقع الغضب حين سمعت اعتراف قاتلته، لم أجرؤ على الكلام، وكي أهرب من هواجس العجز الذي سرى في صدري، باغتتني فكرة قفزت فجأة إلى رأسي، لم لا أكون مثل راحيل، هي تعلم أنها عربية، ولا شيء يربطها بهذا المكان، لكنها احتالت على هذا الدرب الضيق حيث لا متسع فيه لاستدارة الجسد، نسير ملتصقين بحوافه الخشنة، لعنة تسحب الروح في ممراتها الضيقة، كجرذ هرب إلى أنبوب ضيق، لن يخرج إلا من طرفه الآخر، وإن شاء بقي عالقاً حتى يتعفن.

راحيل حفظت دروب المتاهة، ولم تعد تخشى الضياع، تعرف كل الدروب المتشابهة، وتعرف بوابات الخروج بذات القدر الذي عرفت به مداخل الشهوة وتطويع المشاعر، وجدت لنفسها حيزاً بينهم، وضاق حيزهم بي، تركتني لأحيا في دائرة الظنون، أشغلتْ نفسي بها كي لا أبتعد عنها، تلك الشقراء تعلمت أن الرتابة تقتل العشق، فأشغلتني بنفسي وبها.

في صباح اليوم التالي، كانت تجلس على حافة السرير بجواري، وحين فتحت عيناي طبعت قبلة على جبيني،

وانطلقت تردد بصوت أنثوي عذب النشيد الذي اعتدنا سماعة في صباحات فياتسكو:

الاتحاد الذي لا ينكسر
روسيا العظيمة اتحدت لكي تقف إلى الأبد
خُلقت بالكفاح بإرادة الشعب
موحدة، قوية، اتحادنا السوفيتي[26]

أسعدني سماع الكلمات بلغة كادت أن تندثر في صدري، ورغم كل ما جال في نفسي من ظنون في الليلة السابقة، شعرت بقربها، شعرت بأني ممتن لوجودها بقربي، وحين عادت تحمل شطائر الجبن كانت تتهادى بقميص طويل وبأكمام تخفي أكفها، أثارني شكلها العفوي وشعرها المنثور كشلال هادر من ماء الذهب، ونافذة القميص المطلة من صدرها على العالم المتعب، وحين انحنت لتضع أمامي شطائرها، انداح صدرها ينثر نجمات كتلك التي تنشرها عصا السيدة الساحرة، جذبتها نحوي، فأرخت ثقل جسمها لينهار فوقي، كرحلة خارج حدود الزمان والمكان، لم نعد منها إلا بنداء إيستر حين أغضبها تقلبنا أمامها، كانت تجلس امامنا، تطعم

[26] مقطع من النشيد الوطني السوفيتي

أندرو، وتسترق النظر بين حين وآخر، حين يعلو أنين الشهوة الحارق، شعرت بأني أسترد شيئاً من عافيتي.

أتت راحيل ذات مساء، ترتدي بزة عسكرية، وطلبت مني مرافقتها، كانت أخبار الحرب تنتشر، وحين سألتها عن صحة ما يشاع عن المذابح في قرى الشمال، أقنعتني أنهم ينشرون هذه الأخبار كي يخاف سكان القرى الأخرى فيهربون، أذكرها كاليوم تقول:

- لا نريد قتل أحد منهم، لعلهم إن سمعوا بالمذابح هربوا وأكفونا وأنفسهم عناء الحرب والقتال.

كنت مجبر على تصديقها، تلك الليلة التي سمعت فيها حوارهن، ألقت في مزيج من مشاعر من ذلك النوع الذي يترنح بالقرار فلا يصدر، لكن الخوف كان أصدق مشاعري، خفت أن أفقدها، وخفت أن أقع فريسة لأولئك الذين يرقصون حول ضحاياهم في سعار محموم، ذلك الرضى الذي استقر في صدري، كان يجمل الأشياء رغماً عني، فأقبلها طائعاً، أو يجبرني الخوف على قبولها، كنت على وشك أن لأقول لها أني راضٍ بوجودها، ولو أخفتني داخل جيبها كقطعة حلوى، تقضم شيئاً منها وتعيدها، لن أتذمر، ولن أبتعد عن ظلها.

في المساء كنا على تخوم قرية قريبة، رغم ظلمة الليل و البرد القارس، كانت أعمدة النار تعكس نورها البرتقالي على كل شيء حولنا، لا فسحة من الصمت قادرة على إسكات أزيز الرصاص المتداخل في كل ركن وفي كل اتجاه، كنت أعتقد أني ومن حولي فقط في مواجهة قرية لا يملك سكانها إلا المعاول والمحاريث، لكن كثافة الصوت كانت تنبؤ بجيش يحاصر قرية تتنفس غضباً وشرراً يتصاعد من كل زقاق، سرنا تتقدمنا عربات مصفحة، كانت في انتظارنا حين قدمنا نتأبط بنادقنا، وحين اكتمل جمعنا زمجرت العربة العسكرية تقضم الأرض وتدوس كل شيء في طريقها، بعض الرصاصات مرت بيننا، التحق بنا عدد من العربات لم يدعني الغبار أحصي عددها، وحين وصلنا مداخل القرية، استطعت أن أرى في الأفق رتل من العربات المصفحة، أخبرني أحدهم أن الطريق إلى الشرق لم يحاصروها، تركت منفذاً للهاربين مما تركناه فيهم من شائعات المذابح، مع تباشير الفجر الأولى، ثمة مدفعين لم يفترا من تقيؤ حمم الموت، وبعد أن هدأت، دخلنا القرية نتلفت حولنا كهاربين، شعرت أن الأرض تميد تحت قدماي، لم يكن متسع من الوقت يمنحني إياه الغبار لأرى ما علق في ساقاي، لكنني سرقت من وقت الخوف لحظة نظرت فيها إلى الأرض، قدماي مغروستان في وحل من الطين والدم، ثمة امرأة تئن بالقرب مني،

أعادت إلى مشهد الطلقة التي تفلتت رغماً عني إلى رأس المرأة، حينئذ كنت أشعر أن طلقتي التي تفلتت كانت رحمة لها من وجع كان يتفصد من جبينها المقطب، حثتني مقارنة الصورتين على أن أضغط الزناد، كان أحدهم أسرع، فخفت أنينها حتى تلاشى، نزعت قدمي من الوحل الممزوج بالدم، كأن عين الدم انبجست لتوها، تجولنا بين الطرقات الموحلة، ثمة جند يتوشحون كوفيات حمراء، لم تطل معركتنا معهم، كانت المدافع تنثر حممها أمامنا، فأكفتنا عناء قتالهم، بيد ان بعضهم تحصن خلف التلال القريبة، كان أزيز رصاصهم مختلف، ذو صفير مخيف، يمر بين أجسادنا، كقوة غير مرئية، لكنني كنت أشعر بسخونتها تمر بالقرب من وجهي، ارتدعت لفكرة أن إحداها قد تخترق فكي، إلا أنني وبعد لحظات فقط، شعرت بسائل ساخن ينساب من أعلى كتفي، نظرت إلى كم قميصي العسكري، كان ملتصقاً بذراعي وبقعة داكنة ما زالت تتفشى، باغتني ألم شعرت به كمنشار يجز ساعدي، تلك الطلقة التي لم أسمعها استقرت هناك لتخبرني ان الرصاص لا يخشى أن يعلن عن نفسه بالأزيز أو يستعيض بانفجار الدم، سقطت بندقيتي وسقطت خلفها في توال كأني كنت أستند اليها، تهالكت إلى ارض رطبة ممزوجة برائحة العرق والدم، وحين نضح وجهي بعرق غزير، أغمضت عيناي، فمر قاسم من أمامي يلفه ضباب أسود،

تداخلت بقعة الدم التي تخيلتها على صدر جلبابه حين رمته راحيل بأخر رصاصاتها، مع بقعة الدم النازف من كتفي، لم أره قتيلاً لكني ظننت أن رصاصة تحمل هذا القدر من الوقاحة، قد أتت على كل أحلامه إن لم تكن قتلته، وأدركت أن أزيز الرصاصة الموجع كان حداً بين وداعة الوجه الذي أهداني برتقالتين وبين واقع حط كصخرة مدججة، تدك ما يعترضها إن لم تنفجر، كذلك مر جوزيف العجوز أمامي، خلته يقول مستهزئا: ستسقط لأنك لم تحمل عاطفة البندقية، وأظنك لن تفعل، حينئذ لم أعي ما يقصد، لكني الآن أدركت أن الجفاء بيني وبين البندقية صيرني ذليلاً تحت إرادتها، فساقتني إلى حيث ارادت أن تعلمي أول دروس القتال، كأنها تقول: "مرت بجوارك طلقات شعرتَ بسخونتها، كنتَ قادراً على أن توجه بندقيتك باتجاه مصدر الطلقات، ولأنك لم تفعل لكزتك إحداها، وسقطتُ من يدك البندقية كي تعلم أنها لا تعاقر من لا يضمها.

وحين حملني الرفاق إلى مكان يشبه المستشفى، ضمدوا جرحي وعدت إلى الكيبوتس، ما زال حديث البندقية يراودني، وتزكم أنفي رائحة البارود الملتصقة بقميصي الملطخ، أردت أن أذهب إلى المخزن الذي اعتكف فيه أبي لسنوات، باغتني صوت إيستر، راودني ما أسرت به إلى راحيل، عن الأعشاب المخدرة التي كانت تسقيها لأبي كي يبقى في مخزنه هامداً كحصان عجوز، وجد

صوتها متسعاً في ازدحام الصور والذكريات في رأسي، فالتفت إليها، كانت تحمل كوباً من شراب بلون معدني أصفر، وضعت الكأس بجواري وجلست على حافة السرير وقالت:

- ستكون الأيام القادمة أشد ضراوة، تلك القرية المجاورة لنا، أُقيمت لأولئك الأجلاف رغماً عنا، ونحن كما ترى نزداد عدداً يوماً تلو الآخر، لا بد أن يغادروها طائعين أو مكرهين.

شعرت لوهلة أنها تبحث عن مبرر لما اقترفناه منذ قدومنا، فاتكأت على يدي السليمة، واقتربت منها سائلاً:

- هل أقاموا القرية قبل قدومك من "فياتسكو" أم بعد ذلك؟

أثارها سؤالي، فتربد وجهها وانتفخت أوداجها، حتى ظننت انها على وشك الانفجار، انتصبت أمامي كعمود من نار، وحين اقتربت بوجهها مني، بدت عيناها كرتين من الزجاج تتأرجحان في إناء محموم على غير هدى، ثم صرخت:

- يا لابنتي الحمقاء، لا أعلم ما الذي أحبته في جبان مثلك، إنها تعيد ذات الخطأ الذي ارتكَبْته منذ سنوات حين تزوجت من ذلك السكير الجبان.

وحين ابتعدت بضع خطوات، التفت الي مرة أخرى وقالت:

- أخبروني أن الطلقة التي أصابتك لم تحدث إلا جرح طفيف، ستعود بعد يومين لتلتحق برفاقك، وإن لم تفعل فعقاب رفضك سيكون حفرة تبول عليها القطط والكلاب بجانب أبيك.

أغضبني حديثها، وتلاحقت أنفاسي ساخنة، تخرج من صدر تأججت فيه نار الانتقام، واغتسلتُ حتى قدماي بعرق بارد، لم يسعفني في إخماد نار تنفخ فيها نقمتي على خنوعي، وما ألحقت بنفسي من الذل والمهانة، فتبعتها مترنحاً، كنت أبحث بعيناي في زوايا المنزل عن شيء أهوي به على رأسها فأنتقم لأبي ولنفسي، لكن دخول راحيل المفاجئ جعلني أقف كتمثال من الطين اللزج، أذهلها كل هذا العرق الذي تفصد به جسدي حتى تبللت ملابسي، فأسرعت إلي تمسكني، وحين أمسكت بيدي حول عنقها، لتعينني كي أعود إلى فراشي، تبدل كل شيء شعرت به للتو، وهدأت ثورة صدري، وانتابني شعور مباغت بأنني أكره نفسي، كنت أكره شعوري بالضعف والهوان، لكنني أصبحت أكره نفسي بكل ما تحمل من مشاعر متناقضة، شعرت بدوار خفيف، بينما كنت مستغرقاً فيما كنت سأفعله لو لم تباغتني راحيل، أكنت حقاً سأقتل إيستر، أم كنت سأتسلل كثور جريح، كي أهرب من نفسي أو منها، الأمر سيان فقد اهتدت نفسي المتعبة إلى ضآلة الفجوة بينها وبين مشاعري المتناقضة، كذلك كان حضورها طاغياً ومضطرباً، كانت

ترتدي زياً عسكرياً، كذلك الذي يلبسه الجند، وحين أطلت النظر إليها، بدأت تنظر إلى زيها وتدور كأنها تحاول أن ترى ظهرها، كعروس تستدير لترى فستان زفافها، لم يكن لدي ما أقوله، ثورتي التي خمدت بين أضلعي لتوها، كانت تستوجب شيئاً من الصمت، لعلي أستطيع أن أجمع شتات اضطرابي بين حديث إيستر ووشاح الجبن الذي تلثمت به لتوي، كنت أغرق في عرقي، والآن أمام جاذبية زيها العسكري، وخصلة شعرها الأشقر التي تسللت من حواف القبعة الحمراء، أنا أهوي إلى نقطة ما، نقطة شعرت بأنها تتأرجح بين روحي و صدري الواجف، كلما تحرك صفاء الزبرجد[27] في احداقها، وحين إقتربت مني، اتكأت على كتفها في صمت وسرنا إلى الغرفة، جلست بجواري، وحين سألتها عن لباسها العسكري قالت:

- أكنت تظن أننا كل ما رأيته في اللقاءات الليلية داخل الكيبوتس وخارجه، نحن جيش تشكل منذ سنوات، كجنين تكاثرت خلاياه في الخفاء، حتى إذا حان موعده خرج بكامل هيئته وتكوينه.

لم أكن أملك ما أرد به عليها، تصنعت الألم في كتفي، فالتصقت بي، مسحت جبيني بكفها، وألصقت على خدي قبلة ناعمة، وذهبت

---

27 الزبرجد هو نوع من الأحجار الكريمة الزرقاء

تقفز إلى خارج الغرفة، كان بمقدوري أن أرى إيستر من مكاني وهي تهمس إلى راحيل، وترمقني بين الحين والآخر بنظرات زجاجية لم تقع في نفسي إلا على محمل الوعيد، أغمضت عيناي كي لا أراها، وما هي إلا لحظات قليلة حتى عادت راحيل، بثوب أزرق شفيف، يلتصق بجسدها المفعم بالعطر، والمشحون بشهوة مستعرة، وبعد أن تسربت رياح الشهوة من مساماتها، القت بنفسها إلى جواري، كانت شاخصة في سقف الغرفة، وحين هممت بالحديث معها، استندت بجذعها على الحائط وقالت:

- لا بد ان تعود إلى فرقتك، ما زلنا في بداية الطريق، والعرب ليسوا كل ما تراه في القرية المجاورة، العديد من القرى والمدن ما زالت تشهد حرب طاحنة، أتعلم أن معاركنا هنا ما هي إلا لإشغال العرب من سكان القرى المجاورة كي لا تلتقي مع سكان المدن الكبرى، هناك تدور رحى الحرب الحقيقية، بالأمس قالوا لنا أن ما يزيد عن خمسة جيوش عربية تقاتل ضدنا.

سألتها رغم أنني قدرت الإجابة مسبقاً:

- وهل نستطيع مواجهتهم جميعاً؟

اجابت ساخرة:

- ترك الإنجليز كل مخازن السلاح ومعداتهم دون حراسة، لم يقدموها لنا، لكنهم لم يمنعونا من أخذها.

صمتت للحظة ثم أردفت:

- لذلك اضطررنا إلى إرتداء هذا الزي العسكري، كي نبدو في مواجهتهم كجيش.
- لكننا كنا نقاتل المزارعين، وقبل إصابتي لم أرى أي جيش من تلك التي تزعمين.
- قاتلنا القرويون لكنهم كانوا بضع رجال، قتل منهم البعض وتوارى عن أعيننا بعضهم، وحين إقتربت طلائع جيشنا من أحراش جبل المنطار في مدينة يسمونها طولكرم، كانت هناك قوات عربية كامنة، لذلك تلقينا أمراً بالانسحاب والتوجه شمالاً، وسيبدأ تحركنا مع فجر الغد.

لم يتبقى من الوقت حتى الفجر إلا بضع ساعات، لذلك طلبت منها ان تنام، ولعلي كنت أحثها على النوم ليهدأ وقع أقدام إيستر على بلاط الردهة من أمامنا، لقد اعتادت ان تفتعل الاهتمام بطفلنا أندرو، النائم في الغرفة المجاورة، وأظنها كانت تسترق السمع كلما مرت بباب غرفتنا، تلك العجوز التي ترهل جيدها، وغارت عيناها كذبالة أوشكت أن تخبو، كانت تحمل في صدرها كثير من العداء لكل ما

يخالف هواها، لطالما استوقفني هذا الحقد الذي ينبجس من مساماتها، كيف تكون على هذا النحو القاتل، وكيف نما في صدرها، أتراه أبي؟ ألقى البذرة الأولى هناك حين تمرد على هجرته معها، وانكفأ في مخزنه، لا أظن أن سلاح الصمت الذي أشهره متوجساً كان يؤذيها، بل كانت تدفعه إلى الصمت بأعشابها التي كانت تدلقها في جوفه بين الحين والآخر.

لست أدري على أي نحو تسلل النوم إليَّ فتملكني إلى ان استيقظت على صوت إيستر تقف بباب غرفتنا فيما كانت تحمل أندرو على جانب خصرها النحيل، بدا لي أكبر مما هو عليه، كأن اليوم الذي يزيد في عمره ينقص من عمرها، كانت تحث راحيل على الاستيقاظ و اللحاق بركب الموت المدجج في عرباتهم القاتمة، وحين غادرتنا راحيل، وقفت بباب المنزل أرقب هرولتها إلى عربة الجند التي كانت تقف على الجانب الآخر من الشارع، كانت الوانهم مصبوغة بلون الأفق وقد تنازع الفجر مع ظلمة أرهقتها ساعات الليل الطويلة، فجمعت ردائها الأسود وكشفت عن ساقها لتغيب في البحر القريب.

عدت أدراجي بعد أن استقلت راحيل عربة الجند وغابت في الأفق الموشح بشيء من النور، وحين استلقيت مرة أخرى على فراشي، أتت إيستر على غير عادتها تحمل كوباً من شراب أصفر، وضعته

بجانبي فتبادرت إلى أنفي رائحة عشب عطرية، جعلتني أعيد ما سمعته منها عن الأعشاب المخدرة التي كانت تجبر أبي على شربها، بادلتها ابتسامة مغتصبة، وحين توارت في غرفتها، كنت قد تحاملت على نفسي، واجتهدت كي ألبس سترتي، ثم تسللت خارجاً من المنزل، سرت على غير هدى حتى بلغت وادٍ يفصل بين الكيبوتس و بعض القرى العربية المتناثرة على سفح جبل، وعلى غير عادة الليل حولي، صفير الصمت أسكت كل شيء ، وما عدت أسمع سوى دوي المدافع البعيد، لعل أصحاب القرية المجاورة قد رحلوا، ترى أين سيرحل قاسم، إن كان على قيد الحياة، لا بد أنه سلك طريق إلى القرى العربية البعيدة.

طال تفكيري بقاسم، ومرت من أمامي مشاهد الكيبوتس منذ الليلة الأولى، حين شعرت - رغم طفولتي- بثقل الغربة ، حين تنامى شعوري بالعزلة والضياع، كحمامة سجنت وسط عشرات المخالب، وما زلت ألوك مرارة الغربة، و أزدرد ريق مر، كلما إقتربت من راحيل، لم أكن لأكتشف حقيقة التصاقي بها، أكنتُ أحبها فعلاً، ربما كان كل ما يقربني منها هو نداء الجسد، لماذا إذن تنسل إلى صدري كلما حاولت الهروب منها، في كل مرة كنت أهرب إليها رغم خوفي، فلماذا أهرب منها الآن، كيف أغسل صدري المثقل بها، هل أعترف بأنني أحبها، نعم أحبها على نحو

يخضع لحاجة الجسد، ولو أننا ولدنا بدون ذلك الشيء الذي يحتل دواخلنا، ذلك الشيء المسحور، الذي يتحكم في كل تفاصيل أجسادنا، فتخفق قلوبنا كمرجل وتندى أجبنتنا، وتندفق الدماء ساخنة حين نلقى من نحب، إنه ذلك الشيء الشفيف الذي يتقمص كل الحواس، نتذوق و نشتم ونسمع نداءاته حين يأتينا كجيوش غازية، فنشرع لها أبوابنا طائعين.

ساعدني تدفق الذكريات، فقطعت مسافة أظنها طويلة دون أن أشعر بطولها، إذ تغيرت أمام عيني كل المشاهد المألوفة، وأدركت أنني أقف على ربوة عالية، حين رأيت بقعة من أضواء صغيرة وسط الأفق المظلم، تسلل إلى صدري شيء من الارتياح حين تأكدت انني بعيد عن الكيبوتس، ولكن سرعان ما خفق قلبي بإيقاع مضطرب، شعرت به ينحدر من صدري كصخرة تهوي إلى القاع، وترتطم بصخور أخرى كأنها تحرضها على الانهيار، كذلك ارتجفت ساقاي، حين مرت صور القرويون كومضة أمام عيناي، باغتتني أيضاً كلمات راحيل عن الجيوش العربية، شعرت بهمسها ساخن يلفح أذني، فأغمضت عيناي عن مشهد ينازع رأسي وعيناي، رأيتني أقف وسط حلقة من جنود يعتمرون كوفيات ملونة، بلون تقلبات خوفي واصطكاك ساقاي، أسئلة متلاحقة، لا حيز بينها للإجابة، هم يسألون ولا ينتظرون ردي، لغتي العبرية الملتوية

بلسان روسي، أجابت على كل الأسئلة، تلك اللحظة التي غرقت فيها في الحد الفاصل بين ضجيج الخوف وسكون الموت، علمتني أن الموت هادئ، ومستكين، وانه بوابة الهروب من تزاحم الجمر حول روحي، وجفلت حين تحركت خلفي أغصان شجرة، عرفت في اليوم التالي أنها زيتونة وارفة، وقبل أن يُحكِم الخوف أو الموت قبضته على جسدي المرتجف، تسللت لأتوارى خلف صخرة كبيرة، وفي الفجوة بين ارتكاز الصخرتين أخفيت جسدي الواهن، وغبت في نوبة تعاركت فيها كل ذكرياتي وحيرتي وخوفي وتعبي، إلى أن أتم تعبي مهمته في كل مفاصلي، فنمت حتى أتم سكون الليل طقوس الطنين الموجع، وتنفست في مناقير الطيور أهازيج الصباح، رفعت رأسي كلص يسترق النظر من خلف الجدار، كان الأفق البنفسجي موشح بأعمدة دخان سوداء بعيدة، وأزيز طائرات خافت، يعلو بين الحين والآخر، وفق إرادة الريح الأتية من شرق الجبل، تحسست ذراعي فوجدت ان قميصي ملتصق بالجرح، ورغم برودة نسمات الفجر، كنت أتفصد عرقاً زادت معه رجفة أوصالي، فعدت أستند إلى الصخرة بظهري، إلى أن اتضحت الشمس في صدر السماء، تقلصت امعائي من شدة الجوع والعطش، عدت أبرز برأسي من خلف الصخرة لعلي أرى ما يؤكل أو يشرب، لم يكن حولي سوى بضع شجرات من الزيتون، وأعشاب غريبة

نمت بجوار الصخور الناتئة، مسحت شفتاي المتشققة بلسان جاف، زاد من مرارة الزبد اللزج في حلقي، داهمتني نوبة من الهمة، استدعاها خوفي كي لا اموت كحصان يحتضر، ألقاه صاحبه في طريق الذئاب كي تنشغل بلحمه عن قطيع الأغنام الآمن في حظائره، فقررت أن أهبط عن هذه الربوة التي أقف عليها كإشارة مرور يراها كل العابرين، وحين انحدرت بضعة أمتار نحو واد صغير، رأيت دخاناً أبيض، ينبعث من كهف قريب، اختبأت مرة أخرى خلف حجر كبير، وحين مضت بضع لحظات، بدأ دوي المدافع من جديد، كان قريباً جداً، فاندفعت مهرولاً نحو الكهف، واضعاً كفي فوق رأسي، كانت حفرة كبيرة، كثغرة في خد الرابية، لكنها كانت كافية للاختباء بها.

انتفض الرجل القابع في زاوية مظلمة من الكهف، كان يحمل عصا طويلة، قادتني نحوه خشخشة قدميه، فالتفت إليه، فيما كنت أفرك عيناي كي تعيد مقاييس الرؤية بعد ان باغتتها ظلمة الكهف، كان بمقدوره أن يهوي بعصاه على رأسي، ولم أكن قد رأيته بعد، لكنه لسبب ما بقي واقفاً، صمت حذر سرى بين نظراتنا المتوجسة، عرفت من لباسه أنه أحد أولئك القرويين الذين هربوا من قصف الطائرات وحمم المدافع، وأظنه اعتقد أنني أحد أولئك الجند الشقر، ذوي الأنوف والآذان الحمراء، لعله قرأ في لون عيناي الأزرق

قصة كاذبة، لو أنه منحني بعض الوقت كي أجيبه، كنت أتمنى ان يسألني، لكنه لم يفعل، اكتفى بالنظر إلى وجهي طويلاً، إلى أن أجابه الزبد المتزاحم على جوانب فمي، فتقدم نحوي ببطء وتوجس، بإناء متطاول من الفخار، دلقت في جوفي بعض الماء، وعدت أنظر لاهثاً إلى وجهه، عرفت فيما بعد أنه في الخامسة والأربعين من عمره، رغم نحافته، كان ذو بشرة لامعه، موشحة باسمرار لا تنكره العين، ذو لحية نابتة يتخللها كثير من الشيب، يبدو من خشونة يديه وملامحه، أنه واحد من أولئك المغروسين في حقولهم، لعله كان أحد أولئك الذين حرقت راحيل قمحهم، ثم انتشت برائحة اللحم البشري المحروق، أو أحد أولئك الذين أصابتهم رصاصات راحيل ورفاقها، حين كانوا يخرجون فجراً لرحلة قتل ، التفت مرة أخرى، كان الرجل قريب مني إلى الحد الذي جعلني التفت قبل أن أراه، كان يمسك بقطعة خبز وفي اليد الأخرى بصلة جافة، وضعها في يدي ثم عاد إلى مكانه بهدوء، استنكرت على نفسي ذلك الشعور المباغت بالبهجة، لذة الخبز الذي ما زال يحتفظ بنكهة النار، أسعدتني إلى الحد الذي دفعني إلى التهام البصلة بنهم، كان الرجل يرقبني من مكانه صامتاً فأعطاني بصلة أخرى، تلك المسافة المثقلة بالريبة، لم تكن أطول من ذراعينا حين التقطت منه كسرة الخبز ورأسين من البصل، لكنها بطول عمرينا معاً، وأوضح من تفاصيل

ذاكرة قريبة، ذاكرة متخمة بكل الإيماءات التي كانت تنهر غفلتنا، فنتوثب للحظة نستحضر بها كل مغبات التيه الذي نحياه، ثم تغمرنا مرة أخرى لعنة الرضى والخنوع، لعله كان مثلي منغمس في حياة تشده إليها بحبال الرغبة المؤقتة، كانت ملامحه باردة ومتجلدة، تظنها مطمئنة، حتى تنظر في عينيه، فترى في احمرارها بركان يوشك على الانفجار، أيقنت أني لم أقرأ وجه ذلك الكهل كما ينبغي أن يُقرأ، ربما كان علي أن أسير بجوار أحلامه، ولحظات كدره و فرحه، كان علي أن أتعلم تلك اللغة التي يتقنها قاسم، كي أعلم كيف استطاع ذلك العربي أن يحيد بملامحه عن النار التي استعرت في قلبه، قبل أن تلتهم أشجاره وقمحه، لغة لا حروف لها ولا صوت، فهمت القليل منها، عندما أخرج قاسم برتقالتين من كيسه، ليهديها لي، تلك الصفحة التي خطها قاسم بحروف من الرضى و الحب والسلام، أهملتُها، وسمحت للريح الصفراء من حولي أن تميد بها، حتى استقرت في يد راحيل، فمزقتها، وها أنا ذا عاجز عن فك رموز ذلك الوجه الكهل المطمئن، وأحداقه التي شعرت كأنها تحرضه على الوثوب.

طال صمتي، فيما كنت أقضم البصلة الثانية، مستغرقاً في البحث عن طريقة أتحدث بها مع الرجل، لكنه انتشلني للمرة الثانية، حين دنا مني قليلاً وقال بلغة عبرية ضعيفة:

- من أي بلد أنت؟

أجبته قبل أن ينطلق الحرف الأخير من فمه:

- أنا روسي ولكني سكنت رغماً عني في كيبوتس بتاح تكفا[28]

ساد بيننا صمت حذر وقَلِق، تذكرت جوزيف العجوز حين التقيته للمرة الأولى، وسألني عن بلدي، كادت أن تسحبني ذكرياتي القريبة إلى راحيل، ورحلة البحر من فياتسكو إلى هنا، لكنني التفتت حين انتفض الرجل وهب واقفاً وكأن كل حواسه أذعنت لثورة عينيه، أخذ يجمع أغراضه المتناثرة، ثم أخرج مفتاح كبير من حفرة في جدار الكهف، مسحه بطرف جلبابه، ثم أخفاه في جيبه، وحين هم بالخروج، قلت له بصوت ضعيف، أقرب إلى الرجاء:

- أنا لست يهودياً، إنما هربت من زوجتي كي لا أخوض حرباً ضدكم، ولحضوري هنا قصة سأرويها لك لو قبلت أن تنتظر قليلاً.

وقف الرجل بباب الكهف، نظر إلى السماء، ثم عاد ينظر في عيني، وحين فاضت عينيه، توارى عني، ثم مسح وجهه بكم جلبابه وعاد ليجلس أمامي، كان وجهه مختلف وكأن سحابة من الحزن أمطرت

[28] بتاح تكفا هي اول مستوطنة يهودية على ارض فلسطين، مقامة على جزء كبير من أراضي قرية ملبس الفلسطينية

على وجهه، فشحب لونه، وتفصد بعرق تساقط من أسفل لحيته النابتة، شممت به رائحة القهر، كتلك التي اجتاحتني حين تركتني راحيل في معسكر التحقيق بعد هروبي الأول ، إقتربت منه وبدأت أروي له كيف أحضروني إلى هنا، وكل ما مضى من حياتي، كانت نظراته وقسمات وجهه توحي بأنه يفهم ما أقول، وحين شعرت بأنني أفرغت كل آنيتي من الكلام المكدس بها، قال لي بصوت ضعيف:

- اسمي "كريم" أنا من القرية المجاورة للكيبوتس، فقدت هناك زوجتي، وأبنائي، وفقدت أمي حين حملتها هارباً من النار والموت، ودفنتها هنا خلف هذه التلة.

وأشار بيده إلى تلة صغيرة تقع في ساحة تمتد أمام باب الكهف، ثم بدأ يروي كيف سقطت قذيفة مورتر وسط فناء منزله، فلم يستطيع جمع أشلائهم التي تناثرت خارج أسوار منزله، كان حديثه متقطعاً وممزوجاً ببحة بكاء خافت، ارتجفت شفته السفلى ، وفاضت أجفانه بسيل الدموع التي تأرجحت في جفنيه حتى غلبه الحزن فاندفقت كسيل من حمم، ذلك الرجل علمني كيف يكون شكل الحزن وملمسه الخانق وكيف تتناثر شظاياه في ذرات الروح، فتحفر جروحاً لا تبرأ و لا تندمل، لم أشأ أن أقطع تلك اللحظات التي يمنحها الحزن للمقهورين ليبكوا، تلك الدقائق التي نستقطعها

من وقت الحزن يهديها لنا كهدنة ليجمع كل جيش أشلاء جنده، يسمح لنا بالبكاء كي لا نضيق به ذرعاً، تمنيت لو أنني بكيت منذ زمن طويل، ليتني أبكي الآن كما يفعل الكهل، لكن حزني كان قاسياً، ومتسلطا و فاسداً لم يمنحني رفاهية البكاء.

تضاءل ظل الأشياء من حولنا، فشعرت برغبة في النوم، حاولت أن أنزع قميصي الملتصق بجرحي، فاندفق منه الدم وكأني أصبت لتوي، هرع كريم إلى خارج الكهف، ثم عاد بعد لحظة يحمل أعشاب تيبس بعضها، وضعها على حجر صخري ناتئ من فناء الكهف، دقها بحجر آخر، وبيده الأخرى أمسك قطعة من القماش، يمسح بها عصارة الأعشاب التي تسيل على حواف الحجر، اقترب مني ووضع جزء من الأعشاب فوق الجرح، ثم ضمده بقطعة القماش المبللة بعصارة العشب، شعرت بأن مبضع ملتهب ينكأ جرحي، اغتسلت بعرق بدأ يرشح من مسامات قميصي، فأفسح لي مكاناً لأنام، غبت في نوم عميق، لم تراودني خلاله أحلامي المعتادة، ورغم أنني كنت أفترش التراب، شعرت بنشوة الراحة، كانت ذراعي باردة إلى الحد الذي دفعني لأن أحاول فك ضمادة القماش لأرى على أي حال أصبح جرحي، باغتني قائلاً:

- لا تنزع الضمادة، غداً سننزعها عن ذراعك وسترى كيف كنا نشفي جراحنا.

كان ودوداً كأعشابه التي أطفأت نار جرحي، وكالساعات القليلة التي نمت فيها أمامه، كأن ما كنت أمارسه في ليل الكيبوتس كان إغماءات متفرقة تتناوب في الليل على رأسي، فأسقط مغشياً عليَّ في بئر الكوابيس حتى الصباح.

اذعنت لرأيه، وعدت أرتكز بجذعي إلى جدار الكهف، وقلت له:

- ألن نخرج لنبحث عن شيء نأكله؟

رد بملامح جادة وصارمة:

- نحن هنا على مشارف مدينة يافا، هناك تحتدم المعارك.

نظرت خارج الكهف أحدث نفسي، أيعقل أنني سرت من بتاح تكفا إلى مشارف يافا دون أن أشعر بطول الطريق، للخوف مسافات أقصر رغم ثقل المشاعر المزدحمة والمضطربة، كما للطمأنينة هذا المتسع من الراحة.

أذعنت لرأي كريم حين علا هدير المدافع، وعدت أسأله:

- في القرية رجل إسمه قاسم، كان طويلاً، أسمر، كنت أراه عائداً من حقله، أهداني برتقالتين، أتعرفه؟

أشاح كريم بعينيه باتجاه باب الكهف، كأنه ينظر إلى نقطة ما في المدى الرحب أمامه، وحين عاد لينظر إلي، كانت دمعة تتماوج فوق جفنيه، كأنها تتنظر إذن الانسياب، ازدرد ريقه في حركات متتالية، كأن بداخله رجل آخر، يبكي نيابة عنه، إلى أن تأذن له عزة النفس بالبكاء، أنا إختبرت قدرة مشاعره على الاختباء، وهو الذي استطاع أن يحفظ ملامحه، حين اشتعلت عينيه بثورة حمراء.

أدركتُ أن سؤالي قد نكأ جرحاً لم أرهُ راعفاً في قلبه، أعرف تلك الجراح، تكون غائرة وبعيدة، يعلن الألم عن حضورها كلما عصف بنا الوجد، أعرفها جيداً، فقد عاشت معي ردحاً من الزمن، ولم أبرأ منها، أنا أراوغها فقط، كي لا تضج في أحشائي، لعله مثلي، يعرف قاسم، كان تجهمه نصف إجابة، سقطت في صدري كتحطم المرايا المعلقة، أخبرني صمته، أن شيئاً غير محمود قد حل بقاسم، فآثرت الصمت وتركت لضجيج الأسئلة يصفعني من كل جانب.

أذعن كلانا لرغبة الصمت ما يقارب ساعتين، تركناه يعيث فينا، إلى أن تسلل نوم مضطرب إلى عينيه، جلست أراقب قسمات وجهه التي تتغير مع إيماءات جسده العشوائية، كان في نومه يمارس صحو من نوع لا يألفه إلا غصن تقصف عن جسد شجرته الأولى، وأعرف ذلك الصحو المباغت حين يتنكر في لباس حلم، يبدأ ناعماً

في طقوس الهذيان بين الغفوة والاستفاقة، ثم يُحكم احتلالنا، أعرفه ولكن على نحو أقل وجعاً من صاحبي.

بعد قليل، إستيقظ فزعاً، كأنه يلوذ بالصحو من قاتل يتلصص في أحلامه، شهق بصوت عميق، كأنه يخرج من بئر لا قرار له، بدا كئيباً كاصفرار الشمس حين غابت خلفنا، إقتربت منه وهمست:

- ما تبقى من ماء وخبز لن يكفينا حتى نصبح، حري بنا ان نبحث عما نأكله، لقد استبد بي الجوع، ثم أنه لا ذنب لك كي تقاسمني خبزك ومائك.

بدا وجهه أكثر ارتياحا بعد غفوته القصيرة، فقال بصوت هادئ ورصين:

- لدينا بعض الماء وما يكفي من الخبز لأن نأكل قبل ان ننام، سنقتل إن خرجنا الآن.

رغم هدوء أصوات المدافع البعيدة، أذعنت لرغبته، وعدت إلى مكاني، فأردف:

- كنت أنوي الذهاب إلى يافا، أخوالي هناك، يسكنون في حي العجمي، لكن يبدو اننا سنقضي وقت أطول هنا، ليس هناك ما يجعلني أخاطر أكثر، بعد أن ماتت أمي، فقدت الرغبة في

الذهاب إلى هناك، كما ان أصوات المدافع التي تحملها ريح الغرب، تنبؤ بأن يافا ستسقط كما سقطت كل قرى الشمال.

أثار حديثه فضولي، فأردت أن أعرف أكثر، شعرت لوهلة أن هذا الرجل قد صادف هروبي كي يأخذ دوره في ثنائية الحديث بينه وبين جوزيف العجوز، ثمة قصة توزعت فصولها، بين جوزيف العجوز وبينه، وربما أصادف من يحمل أجزاء أخرى.

لم يكن لدي ما أقوله سوى تلك الحكاية التي صحبتني من فياتسكو إلى هنا، فبدأت بسردها، كان كريم مصغياً لحديثي، حتى أدغمت قسماته مع وتيرة الحزن التي تفيض من حواف كلماتي، كما أن لغتينا لم تكن بقدر ما نشعر، نحفظ من الكلمات العبرية ما يفهم منه مقاصد كلامنا فقط، أما إحساسنا بالحديث، فقد تكفلت به شراكتنا في الهروب وتشابه الأحداث.

إقتربنا من منتصف الليل، حتى شعرت بجفاف حلقي، فكرعت دون وعي مني ما تبقى في القلة من ماء، ولم يعترض، استمر في إصغائه لقصتي، وحين ذكرت قاسم مرة أخرى، فاضت عيناه، لم يكن ثمة ما أفعله سوى الصمت، لعلي أسمع منه إجابات الأسئلة التي راودتني حين غفا، وبعد أن مسح عينيه، قال:

أخي قاسم، كان في مقتبل العمر حين بدأت غارات اليهود، ولد في نفس العام الذي القي فيه الكيبوتس على أرضنا، كتعويذة سقطت علينا من برج الشيطان، كوصمة شوهت وجه الحقول من حولنا، في ذلك الوقت كنت قد أكملت عامي الخامس عشر، وفي ذلك العام قتل الإنجليز عمي وثمانية آخرون من شباب القرية، حين تصدوا لعمال الأسلاك الشائكة وهم يجرحون وجه الأرض بمعاولهم كي يزرعوا سياجاً بيننا وبين حقولنا، ثم اكتمل البناء، فيما كنا نرقب عربات العسكر الإنجليز وهي تتقيأ مزيداً من اليهود، وخلال أشهر قليلة، تكاثرت البيوت داخل السياج المحكم، كالولادة من السِفاحٍ، كان زواجاً محرماً بين مغتصِببَينِ، أنتج ذلك المسخ المشوه، الذي نما في أحشاءِ الأرض، حتى إكتملت لعبة الوصاية، بعد ثلاثة سنوات من ولادة قاسم، أخذني أخوالي إلى يافا، وهناك تعلمت التاريخ في مدارسها، وحين عدت بعد خمس سنوات، كان قاسم قد أصبح يافعاً، عملنا معاً في رعاية أرض قريبة من سياج الكيبوتس، وبيارة للبرتقال تبعد قليلاً عنها، لكن العائد منها، لا بد ان يقطع الطريق من امام بوابة الكيبوتس، لعله أعطاك البرتقالتين في طريق عودته، كنا نعمل معاً أو أذهب أنا لرعاية أشجار البرتقال وتقليمها و تنظيف عمالات[29] الري بعد إنتهاء موسم قطف البرتقال، بينما

29 عمالات الري هي القنوات التي يحفرها الفلاحين بين الأشجار الكبيرة لتوصيل مياه الري

يبقى قاسم في الأرض القريبة كي يرعى حقول القمح، كنا نلتقي في المساءات الصيفية، نجتمع على ضوء القمر مع جيراننا، نتقاسم الضحكات والخبز، ثم نغفو على صبر جميل، لم يكن للتعب معنى سوى ذلك الشيء الذي يعتري أجسادنا بعد يوم طويل من العمل، لكننا جربنا طعمه المر، بعد أن جثم هذا الكيبوتس فوق أرضنا، أصبح للتعب معان أخرى، أعمق وأدل على الشقاء، ننام كأوتار مشدودة، يكاد توترها أن ينثر عظامنا، أتعرف كيف تنتظر شيئاً لا تعرفه، ذلك الترقب الموتور كان هاجس الحلم واليقظة، تعرف انك ستنتفض من نومك كملسوع، ولكنك لا تعلم أي خراب سيوقظك، ذلك ما حدث يوم أصيب قاسم في كتفه بطلقة لانعرف سبباً لها، ويوم أن حرقوا حقول القمح، هرعنا حين لكزنا سنى النار التي تفشت في حقل القمح، إذ كان على وشك الحصاد، كانت دائرة من النار تتسع مع كل نسمة تهب، اعتقدنا اننا قادرون على محاصرتها، لكننا حين توسطنا الحقل اشتعلت أطرافه، كنا في كمين جدرانه من النار، فانشغلنا بانتشال أطفالنا الذين دفعهم فضول الطفولة ليقفوا على حدود الحقل، منذ ذلك اليوم تراودني رائحة اللحم المحروق، ولا تفارقني صورة الشيخ الذي احتضن النار المستعرة في جسد طفله، الذي جاء إلى الدنيا بعد طول إنتظار، فماتا ملتصقين.

منذ تلك الليلة لم يعد قاسم، بحثت عنه بعد الفجر بين الأشلاء المتفحمة، ووسط حلقات النائحات اللاتي توشحن بالسواد، ولم أعثر عليه، بعد أشهر عديدة، داهمتنا فرقة من الإنجليز، أيقضني نباح كلابهم، كانت لمعة احداقهم أكثر توهجاً من أعين الكلاب، وبعد أن فتشوا كل ركن وخلف كل شجرة، سألوني عن قاسم، فرحت لأنهم يسألون عنه، إنهم لا يسألون عن الأموات، أيقنت أنه حي، وما كان سعارهم إلا لأنه انتقم للقمح وللبرتقال ولحم الأطفال، لكني لم أره حين اشتد قصف المدافع، وهدم ما تبقى من دور فوق رؤوس ساكنيها، كنت أرقب مدخل القرية لعل قاسم يعود مشرعاً بندقيته، فتطمئن قلوب أمهاتنا، ولكنه لم يعد، وذات مساء أتانا تاجر من صفد، أخبرنا أنه تركها خلفه خاوية، وأن الضباع فقط تجوب أرجائها، لتفترس ما تبقى من حثث الأجنة والأطفال، كنت أعلم إلى أي حد بلغ السعار بهم، لكني لم أتخيل هذا القدر من الشراهة للدم، وحين لاذ المسكين بنا، سمع الناس بحكايات من سبقوهم فغادر عدد من سكان أطراف القرية، حملوا ما يستطيعون وساروا تحت ستر الليل إلى الجنوب، ورحلنا بعدهم لكننا لم نجد ما نحمله معنا، كانت الحرائق و قذائف المدافع تنثر نارها في كل شبر.

صمت كريم قليلاً فبادرته:

- لماذا طردوكم وتركوا القرى خالية؟

نهرني بصوت مدجج، وكأن روحاً أخرى تتحدث من صدره:

- لم يطردونا، صاحب الدار لا يُطرد، وليس للدار صاحب سواه فيطرده، إنه ُيُقتلع من داره رغماً عنه، لقد عاصرت الوعد الذي قطعه آرثر بلفور إلى اللورد ليونيل دي روتشيلد، كنت صغيراً آنذاك، أجري في غبار المظاهرات خلف الرجال، أبي كان معهم، وكنت أسمعهم في أحاديث المساءات أمام دارنا، طالما تساءلت، مم يخافون؟، وحين كنت في مدارس يافا، فهمت أي نوع من القلق كان يعيث في صدور أولئك الرجال، سمعت أحدهم يتساءل يوماً، ماذا سأفعل بقبر جدي وأبيه وأجداده، هناك في زاوية الأرض الشرقية دفنوهم، واحداً تلو الآخر كي لا أفرط فيها، سأموت هناك وليكن قبري فوق الأرض أو تحتها، لن أتركها لعرباتهم تدوسها، أي رواية أختلقها لأحفادي، أأقول لهم أنهم حفظوها واحداً تلو الآخر، وتركتها أنا خوفاً ثم هروباً، سأموت هناك، ولن أتخلى عنهم، مسكين ذلك الرجل، أتراه مات فوق قبر جده، أم أنه خالف العهد وتركهم لوقع الأقدام الغريبة.

قاطعته معتذراً وطلبت منه أن يكمل قصته، فقال:

- لم يتبق ما أقصه عليك، ها أنا أمامك، أختبئ في حفرة كالخلد، وقد فقدت كل شيء.

أثقلت كلماته صدري، كان علي أن أنظر إلى الجهة الأخرى من الحائط الذي بنته راحيل امامي، فقد حجب عني ما تبقى من الرواية، ولم يكن لدي ما أقوله، فتظاهرت بالنعاس، كنت بين الحين والآخر أنظر نحوه خلسة، وفي كل مرة أرى ذبالة ضوء خافتة تتأرجح في عينيه، ولا أدري كيف غفوت إذ غلبني النعاس، وفي فجر اليوم التالي، أيقضني كي نخرج قبل أن تعلو الشمس، خرجنا معاً نسير باتجاه يافا، هممت ان أخبره أن يافا لن تكون بعيدة، وأنها الميناء الوحيد على امتداد الساحل، ولن يغفلوا عنه، لكني آثرت الصمت، لسبب ما زلت أجهله، لعلي كنت بحاجة إلى رفقته كي أخرج من دائرة النار التي تحاصرني، كنت أخشى أن يثأر مني القرويين العرب، وأخشى رفاق راحيل أكثر، لقد عذبوني لمجرد أنهم رأوني أسير بمحاذاة معسكرهم، ما تراهم يفعلون بي وقد هربت منهم، لن تشفع لي راحيل، بل ربما تنتقم مني.

أدركت ان يافا ساحة قتال محتدمة، قالت لي راحيل ذات يوم، سنحيل منازلهم إلى حقول نزرعها، أما المدن الكبرى، فستكون لأبنائنا، لكنني لم أجرؤ على إخباره، كنت أنظر في عينيه فأرى كم تضاءل الفرق بين الحزن والغضب في نظراته وتجوال أحداقه

على غير هدى، لكني أخبرته أن الطريق إلى يافا، سهل و منبسط إلا من بعض المرتفعات التي لن نجد فيها مأوى، لكن شيء ما كان يشده إلى هناك، تلك القوة الخفية التي تسلب الرجل إرادته، خبرتها، وأعرف كل ألاعيبها، التفت حول عنقي حبالها بعد هروبي الأول، فعرفت كيف كنت أتقدم هارباً فأسير خطوة، ويجذبني شيء ما لأعود خطوتين، أيقنت أنه لن يعود قبل أن يحقق ما يدور في رأسه الأشيب.

كنا على سفح تلة عالية، ربما كانت في منتصف الطريق من الكيبوتس والقرية إلى يافا، على جانب التلة الشمالي كانت أشجار السرو متراصة في خط مستقيم، كأنها حدود طريق قديم، لم يعد يستخدمه أحد، أمعنت النظر في الأفق الموشح بشيء من ضباب الصبح، أنا أعرف هذا المكان، كأنه مر يوماً بأحلامي، كان الرجل على وشك أن ينحدر مع الطريق، لكنني أمسكته قبل أن يخطو، التفت إلي حانقاً:

- لماذا تشدني؟
- تلك الطريق تؤدي إلى كيبوتس آخر، أذكر أن راحيل إصطحبتني معها ذات يوم إلى هنا، كانوا مجموعة من الفتية، أقلتهم حافلة إنجليزية، ليساعدوا في تركيب سياجه الشائك.

تراجع كريم قليلًا حتى توارى على جانب التلة، وعاد يرمقني قائلاً:

- الكيبوتس الذي تزعم، بعيد عنا، أنا أعرف الطرق المؤدية إلى يافا.

أخبرته أن هبوطنا من على هذه التلة، سيضعنا في طريق لا يؤدي إلا إلى الكيبوتس، ولو انحرفنا قليلاً داخل الحقول، لن نكون في مأمن، فرد بهدوء بعد أن أسند رأسه إلى حجر ناتئ:

- أشعر أنك أخفيت الكثير من قصتك عني، لقد مررت في كل الطرق من يافا إلى ملبس، وبالكاد أعرف أين نمشي، كيف لك أن تحفظ الطريق وقد سرت فيه مرة واحدة؟
- لم أخف عنك شيئاً، لعلك لا تعلم أن ما قصصته عليك هو كل حياتي، أما ترحالك بين يافا وقريتك كان جزء هين من حياتك، أنا لم أعرف من حياتي سوى بعض الضباب يلف إسطبل الخيل الذي ماتت فيه أمي، والكوخ الخشبي الذي توارى فيه أبي حياً وميتاً، وراحيل وإيستر.

ثم أكملت:

- أرى أن نسير شمالاً بمحاذاة التلال، سنبتعد عن الكيبوتس، وسنجد طريقاً يؤدي إلى يافا بمحاذاة البحر.

راق له حديثي، فهب واقفاً، وقبل أن نكمل مسيرنا، توقف ليسألني عن ذراعي، أخبرته أنني لم أعد أشعر بأي ألم منذ أن ضمده بالعشب المهروس، لكنه أخرج قليلاً من العشب من جيبه، مضغه حتى تكور على جانب فمه، ثم أمسك بذراعي، نزع عنه الضمادة الأولى، وضع العشب عليه ثم أعاد تضميده.

كانت الشمس تعلو شيئاً فشيئاً، غير بعيد عنا، كان الكثير من الناس يلتفون حول عربة بيضاء، تشبه تلك التي كان يستخدمها رفاق راحيل، لا يختلف عنها إلا لونها الأبيض، كانت ملابس الناس تدل على أنهم من العرب الذين تركوا قراهم، بعضهم ينتظر دوره ليأخذ من العربة قطعة خبز و تمرتين، فيما يتكئ كبارهم على أكياس متاعهم المتراصة على جانب الطريق، وكلما تقدمنا، أصبح المشهد أكثر وضوحاً، كثير من الأطفال ذوو سمرة خفيفة، يقفون تحت الشمس في إنتظار عودة ذويهم بالخبز والتمر وبعض الماء، يحدقون في الشمس وكأنهم يتوعدونها، فيما تطوف النسوة بين الكبار والعجائز تارة، وبين الرجال المتزاحمين على حدود العربة التي تبينت أنها عربة الصليب الأحمر، ، كان كريم يسير أمامي، وحين أصبحنا على بعد أمتار منهم، اعترضني بذراعه كي أقف، ثم التفت إلي قائلاً، لن تنجو من أسنانهم بهذا الوجه و بهذه الملابس، لا بد أن نعود قبل أن يدركوا قدومنا، فعدنا ببطء، وحين توارينا

خلف شجرة، خلع جلبابه و طلب مني أن ألبسه، وحين أصبح جذعه عارياً، طلب مني أن أبقى مكاني حتى يعود، أخبرني أنه سيقول لهم أنني أخيه، و أنني أبكم، ومصاب، فهمت مقصده، فلبست جلبابه واستلقيت بجانب الشجرة، كنت أرقب حواره معهم، ورأيت كيف هب بعضهم يفتش في أكياسهم المتناثرة، وبعد لحظة عاد بقطعة خبز وجلباب وكوفية بيضاء، ربطها على رأسي كي يخفي شعري الأشقر، وارتدى الجلباب الذي استعاره، بعد لحظات، تقدم نحونا شابين يهرولان، خلفهم يقف رجل عجوز يشير بعكازه نحونا، وكلما اقتربوا أكثر، كنت أسمع ضجيج صدري يعلو كطبل في غرفة مغلقة، وقف كريم متأهباً، وحين وصلوا إليه، تحدثوا قليلاً ثم تقدما نحوي، من خلفهم أومأ لي كريم ألا أتحدث إليهم، وقفا متقابلين كل منهم على جانب مني، ثم جعلوا ذراعي حول أعناقهم وحملوني إلى العجوز، ثمة شجرة كينيا صغيرة، يجلس في ظلها بعض الرجال، أفسحوا لي بجانبهم، ومهدوا الأرض من تحتي.

قضينا هناك ليلتين، ولم تغادرنا عربة الصليب، كأن اتفاق أُبرم بأن يبقى الناس هنا في حماية رجال الصليب الأحمر، تلك الليالي لم يكن في طولها ليل إلا تلك الليلة التي قضيتها في معسكر التحقيق بعد هروبي الأول، لم أتفوه بكلمة واحدة، ولم أفهم ما يتحدثون به، لا أظنني رأيتهم يضحكون، كان لمعظم حديثهم رائحة مرة،

إستطعت أن أتذوق طعمها المعدني بين أسناني، حيث تتفلت تنهيدة من أحدهم، جلس العجوز الذي أرسل الشابين لحملي مواجهاً ضوء القمر، كان انعكاس ماسية الضوء على وجهه المحفور بغضون بعيدة أشبه بخارطة الهروب والعودة، كان يجاذبهم أطراف الحديث، لكنه كان أكثرهم صمتاً، وفي لحظات صمته ، كان يهز رأسه بين الحين والآخر، وكانه يدير حوار في دواخله، وفي فجر الليلة الثانية، استيقظنا جميعاً على صوت انفجار قوي، لكن الدخان المتصاعد من جهة الغرب كان بعيداً، حين فتحت عيناي رأيت كيف يقف العجوز أحياناً، ينظر في الأفق شمالاً، فأدركت أنه ينظر نحو قريته، أخبرني كريم، أنهم قدموا من قرية أبو زريق[30]، وأن بعضاً من أهالي القرى الأخرى انضموا إليهم في مسيرهم إلى هنا.

رأيته يلوك قطعة خبز، يحركها في فمه، ثم يحرك رأسه، ويجهش في بكاء أدل على الألم وعمق الجرح، ومنذ ذلك الفجر، أدركت ان أولئك القرويون كانوا كأيتام ترك لهم أبيهم مالاً، فتكالب عليهم الناس يمزقون ثيابهم وينهبون أموالهم، حتى باتوا في العراء دون مال ومأوى، كنت أشعر ببرودة إشفاقي عليهم تسري في ظهري، فأكون على وشك الانفجار، وددت لو أني أستطيع أن أقول لهم، أنا

30 قرية أبو زريق قرية مهجرة منذ النكبة وهي من قرى مدينة حيفا

مثلكم، مغتصب ومسلوب ومرهون، لكن الخوف كان يحيطني وكأنه يَعدُّني ليوم أقص فيه حكاية الغرباء وقصتي.

تسربت بعض خيوط الشمس، من بين أغصان الشجرة التي ننام بجوار جذعها، فأيقظتنا، لحظات بين النوم واليقظة، تمر بأرواحنا كطيف، لكن هدير محرك عربة الصليب البيضاء، لم يأتوا بالخبز، وحين هدأ ضجيج المحرك القديم، وقفنا ننتظر ما أتت به العربة، وحين ترجل أحدهم، اقتربوا منه حتى أصبحوا دائرة تحيط به من كل جانب، كان يمسك بمكبر صوت يدوي، تحدث إليهم بنبرة جادة، تفرقوا كأنهم طابور جند تلقوا أمراً من قائدهم، فأسرعوا ينفذون ما طلب، لم أفهم منه ومنهم ما يحدث، إلا حين عاد كريم، إقترب وهمس:

- أخبروا الناس أن فرق عسكرية من اليهود تتحرك باتجاهنا، وأن عليهم يغادروا هذا المكان، وإلا أصبحوا هدفاً لمدافع اليهود.

نهضت من مكاني أتكئ على كتف كريم، ثار غبار الطريق المترب خلف الناس الذين ساروا باتجاه الجنوب، ملتصقين كأنهم يلوذون بأجساد بعضهم، أما كريم فقد سار ببطء نحو الشمال، إلى أن بلغنا نهر العوجا، كان شيء أكبر من جدول وأصغر من نهر، لكن

الحشائش التي نمت على حوافه، كانت كفيلة بأن تخفي أجسادنا، سنجد ما نشرب على الأقل، قال كريم محاولاً أن يبتسم، وكي أتجاوز معه خط الحزن الموشى بجرح ما زال يرعف، سألته عن وجهتنا بعد أن نقطع النهر، أجابني بثقة من يعرف شعاب المنطقة كلها، سنذهب إلى يافا، وللمرة الثانية لم أجرؤ على إخباره أن يافا لن تكون أحسن حالاً من المدن والقرى الأخرى، لم أجرؤ على الحديث، لأني كنت أخشى أن أفقده، فقررت ان أكون مرافقاً أليفاً، كنا نسمع دوي المدافع، وأزيز الرصاص على نحو أكثر صخباً، تملكني الخوف ولكني كنت اخفي وجهي الشاحب عنه كي لا يرى الخوف في عيوني، لكنه كان مشدود إلى يافا كأن قوة ما تسحبه إلى هناك، كم أخافني شعور اللهفة الذي يسبق المجهول، كرحالة يتلهف لاستكشاف غابة ما، وحين وصلها، لم يكن لقدميه متسع بين تزاحم الأفاعي، في غمرة شرودي، كنت أخفي عنه وجهي، فاعتقد أنني نائم، كان ظل الحشائش الطويلة رطباً وبارداً، يبعث على النوم، لولا هدير المدافع والترقب الموتور الذي يطحن اعصابنا، راقبت خطواته يبتعد بهدوء حتى غاب، أردت ان أتبعه، لكني تعلمت في رحلة هروبي القصيرة، أن المجهول مخيف ومريب، فأمعنت في الاختباء حتى عاد بعد قليل يحمل خبزاً وكيس من التين المجفف، الذي لم نهنأ بتناوله، إذ باغتتنا صراخ لكتيبة من الجند

كانوا يهرولون بجوارنا، لم يكن على أحدهم سوى أن ينظر إلى يمينه كي يرانا، لكن هرولتهم كانت تدل على أنهم في تلبية نداء، وبعد أن ابتعد صراخهم قليلاً، همست في أذن كريم:

- نحن في المكان الخاطئ يا صديقي، يبدو أنها طريقهم، وإن لم يرونا هذه المرة، سيمر غيرهم ويرانا، لن ننجو في كل مرة.

رد كريم:

- نعم، أعلم، كان علينا أن نسير مع الناس جنوباً، لكني خفت أن يكتشفوا أمرك، لذا يجب أن نقطع النهر، وسنصل يافا من شمالها.
- لا أعتقد يا صديقي أن طريقنا إلى هناك سيكون آمناً، سمعتهم ذات مرة يتهامسون بأن قرى الساحل ستكون أول ما سيسقط تحت أيديهم.
- عودتنا لنلحق بالناس جنوباً لن يكون آمناً أيضاً، لا سبيل لنا إلا أن نسير في أزقة تل الربيع، وبياراته، على الأقل سنكون قادرين على رؤيتهم، إن أفضل ما تستطيع عمله كهارب، هو السير في طرق لا يتوقعها عدوك.

كان حديثه مقنعاً إلى حد ما، أو لعلي شعرت بتبعيتي له، ذلك الكهل الذي لم أعرفه إلا منذ أيام معدودة، أصبحت أشعر أنني آمن معه،

شيء في قسمات وجهه يوحي بالطمأنينة والإرتياح، فأقنعني بأن ننسل بجانب الجدران وخلف الأشجار، خير من أن يباغتنا رفاق راحيل، الذين لن يترددوا في قتلنا.

كنا نختبئ بمحاذاة الشاطئ الجنوبي للنهر، وتل الربيع تبعد عنا بضع مئات من الأمتار، كان التوتر على أشده في الشارع التجاري الذي يصل يافا بحي المنشية، أكياس الرمل مكدسة تغلق أبواب المحال التجارية، وجنود يتحينون الفرصة كي يطلقوا عدة طلقات بين كل قذيفتين، إلا أن أحداً لم يجرؤ على السير مكشوفاً في الشارع، إذ تركزت كل القوة العربية هناك، دفاعاً عن المدينة الأخيرة، ولذلك انحرف كريم باتجاه البحر، كان شاطئ البحر أكثر هدوءً مما كنا نعتقد، فاستترنا بالشجر كلما قطعنا بضعة أمتار، إلى أن أدركنا الليل، ثمة مسجد بالقرب منا، لكن دائرة الصمت والظلمة التي تحيط به لم تكن توحي بالطمأنينة، طلبت من كريم هامساً، أن أذهب لأرى إن كان المسجد آمناً لمبيتنا أم لا، لكنه رفض، وبعد لحظة من الصمت، علا ضجيج العربات العسكرية حول المسجد، ألقى أحد الجند قنبلة داخل المسجد، فأضاء وميض الانفجار كل المنطقة حولنا، ولم يكن أمامنا إلا أن نتكور ملتصقين في حفرة تطل على البحر، ومع ساعات الفجر الأولى، طلب مني

كريم أن نسير بمحاذاة الشاطئ حتى نصل إلى يافا، وفي الطريق قال لي:

- إن كانوا قد استولوا على مسجد حسن بيك، ذلك يعني أن المنشية بأكملها قد سقطت، وستسقط يافا قريباً، ربما قبل أن نصلها.

كان لحشرجة صوته دلالة على عمق الأسى والألم، لم أشعر بحزنه هذا حين قابلته لأول مرة،

كنا قد وصلنا إلى كنيسة القديس بطرس، فتسللنا إلى داخلها، قضينا ليلة لم تهدأ خلالها أصوات المدافع، ولم نجرؤ على النظر إلى الشارع عبر نوافذ الكنيسة.

لم يكن في الكنيسة ما نأكله، سوى بضع حبات من التين المجفف بقيت في جيب كريم، وكانت كافية لإسكات قرقرة بطوننا، وفي ساعات الفجر الأولى، أيقظني كريم، ثمة صوت يأتي من الممر الغربي المؤدي إلى قاعة الصلاة التي بتنا فيها، التصقنا ببعضنا حين تماوج امامنا ضوء سراج يتبع ظل متطاول وصل إلى باب القاعة قبل صاحبه، لم يكن لنا مخرج من القاعة إلا ذلك الممر المشغول بصاحب السراج، وحين وقف بسراجه أمامنا، كان شاباً لم يتجاوز العشرين من عمره، ذو ملامح محايدة ووادعة، لباسه

الكنسي الطويل زاده وقاراً وكي يخرجنا من هالة الذهول التي أحاطت بنا، قال بصوت وديع:

- أعلم أنكم هنا منذ ساعات المساء الأولى، رغم أن أسقفية الكنيسة عقدت اتفاقا بعدم إيواء أي من المحاربين، لكنني حين رأيت أنكم مجرد قرويين مهاجرين، غضضت الطرف عنكم لتبيتوا هنا بسلام.

لم أكن قادراً على الكلام، ومرة أخرى كان عليَّ أن أتقن دور الأبكم، كي ننجو، كانت نظرة الرجل بلباسه الكنسي تبعث على الطمأنينة، لكن شيء ما بداخلي كان متوثب وحذر، كن أخشى أن نقع في أيدي رفاق راحيل، لا بد أنها أخبرتهم بهروبي، إقترب الرجل المسيحي بسراجه من وجوهنا، أمعن النظر في قسمات وجهي الأشقر، سألني من أي القرى أنت، فبادره كريم:

- إنه أخي، نحن من قرية ملبس، إنه أبكم، لا يغرنك بياض وجهه ولون عينيه، إنه أخي غير الشقيق، كان والدنا تاجر، وخلال رحلاته تزوج بامرأة قبرصية، وأنجب منها أخي هذا، وأخت قتلها اليهود قبل أن نهرب إلى هنا.

بدا وجه الشاب المسيحي أكثر ارتياحا، فبادرنا قائلاً:

- أنا جرجس، أعمل شماساً في هذه الكنيسة منذ مات أبي، قبل سنتين، قبل هذه الحرب اللعينة، منحني الأسقف مرتبة دياكون[31]، بعد أن كنت مساعداً للشماس.

صمت جرجس قليلاً كأنه تدارك شيء ما وقال بلهفة:

- لقد أخذنا الحديث معكم، لا بد أن لم تأكلوا شيئاً منذ قدمتم إلى هنا، سأعود بعد قليل بشيء من الطعام، كنت أود ان أسألكم، كيف وصلتم إلى هنا، ستخبرونني حين أعود بالطعام، أليس كذلك؟

خرج جرجس يرفل في ثوبه الكنسي، فالتصقت بكريم وسألته:

- مال الذي قلته له، حتى بدا أكثر ارتياحا؟

أجابني كريم هامساً:

- أخبرته أنك أخي غير الشقيق، وأن والدي تزوج من سيدة قبرصية أثناء رحلات تجارته، وأنك أبكم، ستكون هذه روايتنا لننجو.

---

[31] الدياكون هو الشماس مسئول التنبيه على المصلين ببدء الصلوات وحفظ النظام والسكون أثناء الصلاة، وتنظيف الهيكل

بعد عدة دقائق عاد جرجس الشماس، يحمل طبقاً من القش، وضعه بيننا، ثم غاب بين مقاعد القاعة، كأنه يبحث عن شيء ما، انشغلنا بتناول الطعام، كان شهياً بعد موجات الجوع التي تكالبت علينا، كان الزعتر حراقاً، لكنه شهي مع مسحة من زيت الزيتون، بعد أن شبعنا، عاد الشماس جرجس وقدم لنا آنية من الفخار، وحين شربت منها، كادت لذة الشراب أن تنسيني رواية الأبكم التي اختلقها كريم، مزيج الليمون مع العسل كان شهياً ولو قدم لنا وحده لكان كافياً.

تسلل نور الشمس من زجاج النوافذ الملونة، فاكتشفنا أننا نجلس في وسط القاعة، وبمقدور أي سائرٍ بجوار نوافذ الكنيسة أن يرانا، تغيرت ملامح كريم، بدا مضطرباً وخائفاً، التفت إلينا جرجس الذي انشغل لبعض الوقت في مسح الغبار عن زخارف الهيكل، فأدرك خوفنا، فأومأ لنا بيده أن نتبعه، وسار أمامنا في ممر طويل بين غرف بدت صغيرة لقرب أبوابها، كان يلتفت إلينا بين الحين والآخر، وكي يبدد خوفنا قال:

- لا يوجد في الكنيسة أحد سواي، ولا أحد يجرؤ على الدخول إلى هنا، منذ عدة شهور، عقدت الكنيسة اتفاقاً مع كل أطراف الحرب، على أن تبقى دور العبادة المسيحية آمنة.

قال كريم مستهزئاً:

- أتراهم يحفظون العهد.

ابتسم جرجس وقال:

- حتى هذه اللحظة لم يدخل هنا سواكم، وهذا يكفي.

صمت جرجس قليلاً، ثم عاد يسألنا، كيف وصلتم إلى هنا؟ فبادره كريم قائلاً:

- خرجنا معاً من قرية ملبس، كنا نقصد يافا، أخوالي يسكنون هناك، وحين جن علينا الليل، اختبأنا في حفرة أشبه بكهف صغير، ثم سرنا حتى شاطئ نهر العوجة، تلك الطريق كانت أكثر أماناً لنا، إذ قابلنا الكثير من الناس، ثم تركناهم بعد ان توجهوا جنوباً، سرنا بمحاذاة الشاطئ، كان مسيرنا بمحاذاة حي المنشية، وكان الموت أقرب إلينا من كل شيء، لم يكن بين التلال الرملية غيرنا، ومع ذلك عدد القذائف التي سقطت بجوارنا كانت كفيلة بإبادة جيش بأكمله، وحين وصلنا شارع حسن بيك، كان هادئاً على غير ما توقعنا، لكن الحجارة المتناثرة وسط الشارع، والخراب والدخان الأسود المنبعث من المحلات التجارية والمقاهي، كان يروي حكاية معركة لم تبقي خلفها أحد، لذلك عدنا نسير بمحاذاة التلال القريبة من البحر، إلى أن وصلنا بعد عناء إلى هنا.

كان جرجس الشماس يستمع إلى كريم بكثير من الشغف والاهتمام، ويتفاعل بقسمات وجهه وحركات يديه العشوائية مع كل كلمة، وحين انتهى كريم من حديثه، قفز جرجس راكضاً خارج الغرفة التي وضعنا بها، وعاد بعد لحظات يحمل بندقيتين، أذهلني ما رأيت، ما زال يافعاً، لكنه متوقد، وفي عينيه لمعة ذكاء غريب تراه في نظراته الحادة، وبابتسامة خجولة يرسمها على شفتيه، كلما مر الحديث على خبر القتال والسلاح، سأله كريم، لم أحضر البندقيتين، فأجاب بكلمة واحدة، سنحتاجها، وبنبرة واثقة استأذن في الذهاب إلى غرفته لينام.

بعد خروجه هممت بسؤال كريم عنه، لكنه أسرع بتكميم فمي براحة يده، واقترب حتى شعرت أن كلماته تلفح أذني بما يشبه الفحيح، قال

- علينا ان نحذر من هذا الفتى، إلى أن نعرف من هو وما الذي أرادنا أن نعرفه حين أحضر البندقيتين، حتى يتسنى لنا ذلك، ستبقى أبكماً، أفهمت.

أومأت برأسي موافقاً، وتكورت على أحد السريرين الملتصقين بجدران الغرفة الضيقة، أسرة الرهبان مبنية من الحجارة وملتصقة من أحد أطرافها بحائط مجاور، غبت في سبات عميق، لكن سرعان

ما أيقظتني حركة جرجس في الغرفة، فتحت عيناي ببطء حين تأكدت أنه هو، كنت أخشى أن يدرك أن صوت حركته في الغرفة أيقظني، رأيته من بين رموشي المتشابكة، يطيل النظر إلى وجهي، كانت هيئته مختلفة بدون ثوبه الكنسي، بزي عسكري كامل، وشريط من الرصاص يمتد بين خاصرته اليسرى وكتفه اليمين، بدا لي جندياً فتي ، بجسد ممشوق، و أكتاف رأيتها أعرض مما كانت عليه حين رأيته في المرة الأولى، كان من الصعب أن أستمر في افتعال النوم، كان اضطراب أجفاني سيشي بيقظتي، فانقلبت بجسدي إلى الناحية الأخرى.

تمنيت لو اننا لم نلفق لأنفسنا هذه الكذبة التي سترافقني طوال رحلتي مع كريم، سأبقى أبكماً إلى أن نبتعد عن الأحداق التي تتفحص كل شيء حولها، ومن ارتياب الوجوه حين تتضح زرقة عيناي، وقبل أن يغادر جرجس، إستيقظ كريم، ودار بينهما حديث قصير، لم أفهم جل ما قالوه، كانوا يتحدثون بالعربية، لكني قَدّرت أن كريماً سأله عن الزي العسكري، لذلك استدرت بسرعة بعدما سمعت صرير الباب يغلق خلف جرجس، فأومأت لكريم بيدي مستفسراً عما يحدث، لكنه تجاهلني وقفز إلى كوة في الحائط المجاور لسريري، أدركت أنه يراقب جرجس، حين سمعت وقع خطاه يبتعد، وحين عاد إلى سريره سألته بصوت خفيض:

- ترى ما الذي يفعله هذا الشاب؟
- إنه مجرد صبي يلهو، ..... أتعلم؟ سأسأله حين يعود.

شعرت بأن كريم يريد أن يخفي حقيقة الصبي، خمنت انه من الثوار، أو لعله يساعدهم في نقل العتاد والأسلحة، لو كنت مكانه لما بدلت ملابس الكنيسة، الزي الديني أفضل ما يمكن أن يستتر به المرء.

انتابني شيء من القلق، حين شعرت بأن كريم لم يثق بي بعد، محاولات الكتمان التي انبجست من بين شفتيه في كلمات مقتضبة، أشعرتني بأنني ما زلت في دائرة النقيض، لم أبرحها بعد رغم مشوارنا الطويل معاً، ورغم ما قصصت له.

صامت ومتوجس، قضيت ساعتين بين خروج فتى الكنيسة جرجس وبين تنفس الكون بين في رحاب شمس خجلي، كأنها لم تعتد وجه الأرض قبل ذلك، كأنها عروس تجلس على حافة سريرها ليلة الزفاف، مُطرقة، تتأرجح بين الترقب والسعادة، كذلك كانت شمس ذلك الصباح، حين تسلل ضوئها من كوة الصومعة التي بتنا بها، خرج كريم يبحث في أرجاء الكنيسة عما نأكله، وبعد مرور ما يقارب الساعة، تركني خلالها وَحِيدًا تتناوب على صدري المثقل موجات القلق و استبدت بي الخوف، وكأنني التصقت بسريري، لم

أشأ أن أبرحه، وأريد أن أقفز منه لأعلم ما يخفي كريم وذلك الصبي، ليس لشيء إلا ليعود إلى شعوري بالطمأنينة والارتياح، في الحقيقة كانت مشاعري رخوة وهلامية، تنفرج وتتمدد خلف كل كلمة جميلة، وتنكفئ كما هي الآن مع كلمة مريبة.

عاد كريم يحمل تفاحتين فقط، كأني أرى قاسم مع برتقالتيه، كانت لكريم نفس الهيئة حين يبتسم، كانشطار الزمن، بينما أقف مترنحاً على الحد الفاصل بين برتقالتي قاسم وتفاحتي كريم، وحين استعدت توازن روحي بعد أن طردت شيئاً من القلق والتوتر، سألت كريم:

- ألم يعد جرجس؟
- ليس جرجس ما يشغلني، لقد طفت أرجاء الكنيسة وصوامع الرهبان وقاعات الصلاة وغرفة الأسقف، وكل مكان يمكن لأحدهم أن يختبئ ولم أجد أحداً، هناك شيء مريب يخفيه هذا الصبي.
- لماذا لا تسأله حين يعود؟
- لا أريده أن ينفر من أسئلتنا، الكنيسة توفر لنا مكان آمن، وإن كان مؤقتاً، لكني سأعرف ما يخفي هذا الفتى.
- الحقيقة أنني لم أجد منه ما يريب سوى لباسه العسكري، والبندقيتين.

- ذلك يكفي لأن نرتاب، لكن حذاري أن تظهر أمامه ما يجعله يجفل منا.

في غمرة حديثنا، سمعنا وقع أقدام يقترب، توقف فجأة حين إقترب منا، فأدركنا أن الصبي يسترق السمع، عاد كريم إلى سريره، وأخفى التفاحتين، وقف جرجس بباب الصومعة و أومأ لنا أن نتبعه، كان يسير أمامنا بزيه العسكري، فيما كان كريم يلتفت بين الفينة والأخرى ويشير لي بسبابته أن أبقى صامتاً، خرجنا معاً إلى فناء الكنيسة، كانت أصوات القنابل واضحة وقريبة، يتخللها رشقات من أزير مكتوم، أسرع جرجس أمامنا متجهاً إلى غرفة عند بوابة الكنيسة، فتبعناه مهرولين حتى توارينا في غرفة معتمة، تبددت ظلمة الغرفة شيئاً فشيئاً، فاتضحت لنا محتوياتها، كانت تعج بأكياس الأرز و المعلبات و جرار الزيت، التفت الينا جرجس وقال هامساً:

- يجب أن ننقل كل ما في هذه الغرفة إلى داخل الكنيسة، لو اشتد الأمر علينا سنموت جوعاً داخل الكنيسة.

قال كريم:

- ولكن يمكن لأي عابر بجوار الكنيسة أن يرانا.

أجاب جرجس بابتسامة خفيفة:

- جهزت لكما لباس كنسي، ستردديانه، إلى أن ننقل كل ما في الغرفة إلى مكان آمن.

كان يخفي سترتين خلف أكياس الأرز، قلبهما بين يديه، ثم أعطى كل منا لباسه، وقال:

- هذا كونتاراسون[32]، يرتديه الرهبان، سترتديانه خلال تنقلنا من الغرفة إلى الكنيسة، ذهلت حين وجدت أن الفتى قد رمى لكل منا لباس مناسب لقياسه، لا طول فيه ولا اتساع، وبدأنا بنقل أكياس الأرز والمعلبات والزيت إلى داخل الكنيسة، للغرفة التي وضعنا بها الكياس شباك كبير يطل على الفناء الخلفي للكنيسة، وحين طلب كريم أن نضعها في غرفة من تلك الغرف التي تتوسط الكنيسة، رفض جرجس، وأصر أن نضعها في تلك الغرفة، كان لانفعاله دلالة غريبة، كأن اقتراح كريم كان سيفسد عليه ما يخطط له، بدا متربد الوجه، وحانق بما لا يتناسب مع بساطة الطلب، وبراءته، تصادفت نظراتي مع كريم، وكأنه كان يقول لي، اصبر وسنعرف كل شيء.

32 كونتاراسون هو لباس الرهبان خلال الشتاء

وحين انتهينا، غادرنا جرجس إلى داخل الكنيسة، فطلب مني كريم أن أعد أكياس الأرز، بدا طلبه غريباً على نحو ما، لكنني فعلت ما طلبت مني.

مرت بضعة أيام أخرى، يجللها الترقب والخوف، بعض الانفجارات كانت قريبة، بما يجعلنا نلتصق بجدران الصومعة، أو نلقي بأجسادنا أرضاً، وحين تبتعد الأصوات، كان الهدوء حول الكنيسة أكثر رهبة من الضجيج، كان جرجس قد خرج صباحاً على غير عادته، وحين اطمأن كريم إلى غيابه، ذهب إلى غرفة الطعام، كانت أكياس الأرز قد أوشكت على النفاذ، التفت الي بأحداق لامعه، شيء ما أكد ظنونه فانتشى كأن ظنونه قد انتصرت، وسألني كم كان عدد أكياس الأرز حين نقلناها، أجبته أنها كانت ثمانية وعشرون كيساً، فقال مبتسماً:

- نحن لم نأكل عشرون كيساً في بضعة أيام، صحيح؟

أومأت برأسي موافقاً، ثم قلت:

- لعله وضعها هنا كي يسرقها.
- لا أحد ينازعه ملكيتها، لم يسرق من نفسه؟

لم يكن لوقوفنا داخل غرفة الطعام ما يبرره لو أن جرجس عاد ووجدنا هناك، لذلك عدنا إلى صومعتنا، وبعد غياب شمس ذلك

اليوم، كان جرجس يتحدث مع كريم بكثير من الإيماءات والانفعال، ودون مقدمات، انتفض واقفاً وقال لكريم:

- لا تغادروا الصومعة حتى أعود إليكم.

بعد خروجه، طلب مني كريم أن أبقى في الصومعة وألا أغادرها، ثم تسلل خارج الصومعة حذراً، وملتصق بجدران الصوامع.

عدت إلى مكاني في انتظار عودته، وحين عاد بهيئة أخرى، صامتاً ومطرقاً كأنه يحدث نفسه، سألته، فلم يجب، ولم ينظر نحوي، كأن صدمة ما زالت تكبل حواسه، بعد أن هدأ، وقف ينظر عن يمين ويسار باب الصومعة، ثم عاد وهمس في أذني:

- كل المؤن الذي حملناه كان للثوار، رأيتهم ينقلونه بعرباتهم المجرورة بالأحصنة، الآن عرفت لم كان الفتى يضعها في غرفة قرب باب الكنيسة ولماذا قام بنقلها، أتعلم يا إيفانوف، ما فعله الفتى دليل على أن الوضع يزداد سوءً، وأنه لم يعد بمقدور الثوار أن يسلكوا الطريق العام، فلجأوا إلى التسلل من خلف الكنيسة حيث التلال الرملية وأشجار الصنوبر والسرو والعوسج الممتدة.

كان حديثه يحتاج إلى مزيد من التفصيل كي أفهمه، بعض الكلمات لم أعرف مقاصدها، وسرعة لهجته جعلتني أدرك أن الأمر مهم، وكل ما فهمته أن الفتى يعطي الثوار من طعام الكنيسة المخزون، لكن معاودة الصمت الذي يجلله أعادني إلى لقائه الأول، حين كان يتكئ واجماً في صدر الثغرة، أثار صمته خوفي من شيء لم أدركه، ولم تفلح كلماته القليلة في استعادة توازن نفسي المضطربة، لم أفهمه ولكني أحجمت عن سؤاله، كان بمثابة سراج أحمله أو يحملني على السير دون السقوط في حفرة ما، كان خوفي يزداد كلما مر بخاطري إسم راحيل، أخشى أن يظفر بي جيشها، فأعود ذليلاً ومنكسراً، وربما تعمدت قتلي كما فعلت أمها بأبي، لعل يقينها بأني أحبها، كان شفيعي، أما بعد أن أعود لها مكبلاً، ستتبدل قناعتها، وستكرهني.

عدت من شرودي على وقع أقدام جرجس، كان يسير ببطء مبالغ فيه، كأنه آتٍ ليسترق السمع، وحين وقف بباب الصومعة، سألني عن كريم، فأشرت بيدي مستفسراً عما يقول، فبدأ يشير بكلتا يديه، لم تكن إشاراته تدل على سؤاله عن كريم، لكني أشرت له أنه خرج باتجاه فناء الكنيسة.

عدت أنظر من شباك الصومعة، كانا متقابلين، يقف كريم صامتاً، فيما تتحرك أيدي جرجس باتجاهات عدة، وحين عاد كريم كان

واجماً، شاحب الوجه، مطرقاً، لم ينظر إلي إلا بعد أن أوشك أن يحدث نفسه، رأيت شفتيه ترتجفان، لم أشأ أن أسأله، تركته يجتر حزنه، تلك اللحظات التي نحزن خلالها، تستدعي مئات الصور لتمر من امامنا، نشعر بها رغم مسحة الحزن، وقد نستعيد ذكرى سعيدة، لكن الماضي لا يفلح أبداً في تضميد جرح الحاضر الراعف، وقد نكره من يخرجنا من هذا العالم، نميل بفطرتنا إلى الاختلاء بذكرياتنا، تلك اللحظات المقدسة قد ترمم نفسها، لذا لم أشأ أن أشق صمته المطبق، إلا أنه التفت إلي بحركة سريعة ومفاجئة من رأسه، وقال:

- ألا تفكر في العودة إلى زوجتك وابنك؟

اضطربت لوقع السؤال، لم أفكر في الأمر، كان الخوف من جنودهم أن يمسكوني، فأجلد ثم يعيدوني إليها، لم يخطر لي ببال أن تقودني قدماي طوعاً إليها، أربكني سؤاله فلم أجب.

- هز رأسه وكأنه قرأ الرد في اضطرابي وتربد وجهي، أدركت أنه يخفي شيئاً لا يريدني أن أعرفه، اقتربت منه حبواً حتى لامست ركبته المعقوفة تحته، رجوته أن يخبرني بما حدث، ولمَ ألقى في وجهي سؤالاً قد يكون أعلم مني بإجابته؟، لكنه تركني وخرج مسرعاً من الصومعة، وقع أقدامه على بلاط

الممرات المصقولة كان متسارعاً كأنه يركض، ثم ما لبث أن تلاشى، ولم يمر الكثير من الوقت، حتى عاد ممسكاً بساعد جرجس، كأنه يقوده ليثبت شيء ما، وقف كلاهما بباب الصومعة، فقال كريم:

- أخبره يا إيفانوف.

زاد ارتباكي، منذ فجر هذا اليوم تتلقفني المفاجآت واحدة تلو الأخرى، أشعر أنها مقدمة لحدث قد لا يعيدنا إلى سابق عهدنا، صرت أرى عودتي إلى راحيل أقرب الحلول وأقدرني على مواجهتها، صرت أطرد الخوف لألوذ بخوف آخر، رغم أني لا أعلم شيئاً عما يدور حولي، ولكن لا بأس، لن أبقى في ثوب الأبكم إلى الأبد، لا بد لكل حكاية من نهاية، والادعاءات نهايتها أقرب، وحين بدأت بالحديث، قفز جرجس خطوتين خارج باب الصومعة، كأنه يعيد ترتيب نفسه للانقضاض مرة أخرى، ناداه كريم:

- تعال يا جرجس، هناك ما هو أعظم من ذهولك، ما تراه هو غلاف الكتاب، اجلس لأتلو عليك سيرتنا.

عاد جرجس وجلاً، يلتفت حوله، رمقني بنظرات مضطربة، ثم جلس محتبياً إلى جانب كريم، ربت كريم على كتفه وقال:

- إنه إيفانوف، روسي أتوا به صغيراً مع زوجة والده اليهودية إلى المستوطنة التي أقيمت على أرض قريتنا، كبر رغماً عنه، وحين أدرك ما يدور حوله هرب منهم، إلى أن وجدني مختبئاً بعيداً عن القرية، هربت بوالدتي بعد أن أتت قذيفة على بيتي ومن فيه، ثم ماتت والدتي، لم تقوى على طول الطريق، لكن شيء آخر قتلها، لم يكن ليقتلها التعب، قتلها الحزن على ما تركت خلفها.

كنت بحاجة إلى فهم ما يقولون، استبد الفضول بصدري، فبدوت كخائف مضطرب، كان جرجس يتحدث إلى كريم وعيناه مثبتتين في وجهي، كانت ملامحي تتفلت من محاولاتي لضبطها، وكلما أمعنت في إمساكها تربد وجهي، وطفحت حمرته، حتى بدأت أتعرق، حينها التفت إلي كريم وقال بعبرية ثقيلة:

- اهدأ يا صديقي، سأحكي لك كل ما دار بيننا.

لم تفلح كلماته أيضاً في تهدئتي، تسللت بعض الظنون من ثقوب القلق الذي مزقت جلدي، شعرت برغبة جامحة في الهروب، أن أخرج من باب الصومعة وأطلق ساقاي للريح، بهذا سينتهي كل شيء، لن يأسرني هذا الموقف، ولن يعود مرة أخرى، لكن خوفي من أزيز الرصاص الذي لم ينقطع أقعدني، مرة أخرى تسيرني

نوبات الخوف، كم كرهت نفسي، حين بدأت أشتم رائحة الخوف في ريقي المر، كان حديثهم كطنين موجع، يدور في رأسي، إلى أن قام جرجس ببطء، نظر إلى بصمت، ثم استدار باتجاه كريم أومأ برأسه موافقاً، وخرج.

لم أكن لأطيق صبراً حتى يبتعد جرجس، أمسكت بطرف قميصه، وسألت مستجدياً:

- ستقول لي كل شيء، أليس كذلك؟

رسم كريم بسمة مغتصبة على وجهه، ثم قال:

- الأمر يزداد سوءً يا صديقي، لن يقف أولئك الجند المدججين عند حدود يافا إلى الأبد، لا بد أن يجدوا من يعينهم على دخولها، سيكون علينا أن نغادر هذه الكنيسة قبل أن ندفن فيها.
- لماذا لا نغادر الآن؟
- جرجس وعدني أن يأتي ليلاً برجل من الثوار، قد يكون على معرفة بأخي قاسم.

شعرت بحموضة البرتقال تسري في تحت لساني، حين مر بخاطري قاسم، وبرتقالتيه، ثم اضطربت حين قادتني الذكرى إلى

سلة البرتقال التي أتت بها راحيل، وبعد لحظة نفضت رأسي وعدت أسأل كريم:

- وهل سنبقى في مأمن حتى يجن الليل؟
- لن تضيع فرصة قد أعرف من خلالها مكان قاسم، أفهمت؟

كانت لهجته حادة، لكني أذعنت لأن شيء ما بداخلي أيضاً يتوق لمعرفة أخبار قاسم.

بدأ الكون يخبو من حولنا، كأن أحدهم يدير قرص الشمس بعيداً عن أفقنا، طلبت نفسي أن أخرج إلى فناء الكنيسة، كي أمارس عادة المشي مساءً كما كنت أفعل في مساءات الكيبوتس، لكن كريم أشار على أن أسير خلف الصوامع والغرف، كي لا يراني مار ما.

وحين عدت من جولتي القصيرة، كان جرجس قد أتى بأحدهم، كان رجل في متوسط العمر، يرتدي زي القرويين الذين كنت أراهم عائدين من حقولهم، تبدو سمرة وجهه لامعة، وشارب كثيف يغطي شفته العليا، يربط على رأسه كوفية، بدا طرف رأسه أبيضاً حين أزاحها قليلاً، نظر الرجل في وجهي بأحداق ضيقة، كأنه يتفحص ملامحي، ثم أدار رأسه نحو كريم وجرجس، تحدث إليه كريم بكلمات قليلة لم أفهمها، فعاد يلوك حكايته، مرت ساعتين لم تهدأ خلالهما ظنوني، كنت أرقب إيماءاتهم، و تقاسيم ووجوههم، فأشعر

بجدية الحديث حين يقطب الرجل حاجبيه، و يتسلل إلى صدري شيء من الراحة حين يضحكون، بعض المشاعر لا تحتاج إلى لغة لتفسيرها، كان أب يقول أن الموسيقى لغة عالمية، رغم صخب المذياع حين يبث مقطوعة لإيجور ستراڤينيسكى[33]، ما زلت أحفظ هذا الاسم رغم صغري آنذاك، ورغم صخب الموسيقى خلف بيانو إيجور، كنت أشعر بلذة عارمة تجتاحه و تظهر جلية في دخانه الكثيف وارتخائه على كرسيه الهزاز، كذلك كانت ضحكاتهم بين الحين والآخر، كنت أفهمها على نحو ما، فتشعرني بالطمأنينة لوهلة ما تلبث أن تذوب في تعرق جباههم، و عقد حواجبهم، فيعاودني قلق من النوع الثقيل، يجثم على صدري حتى موعد الضحكة التالية، في غمرة شرودي، تحرك الرجل فظننت أنه سيقف ليغادرنا، إلا أنه أخرج من محفظة جلدية عريضة كان يلفها على وسطه، بعض الأوراق القديمة و الصور المتآكلة، التقف كريم إحداها، حتى كاد أن يمزقها، نظر إليها مطرقاً، لم أتبين من صمته سوى دموعه التي انهمرت، ثم شهقاته المكبوتة، اقترب الرجل منه وربت على كتفه، فانفجر بنحيب مخنوق، بكى جرجس أيضاً، واقتربنا جميعاً حول كريم، لم أبك مثلهم، لكني شعرت بكل شيء في داخلي ينفجر بكاؤنا، تلك المشاعر التي بحثت عنها حين ماتت

33 ايجور سترافينيسكي من أشهر الموسيقيين الروس في القرن العشرين

أمي، ها أنا أعرفها، وأعيشها، عرفت الآن كيف يحزن الناس، ولم تكن أيامي المقفرة مع راحيل وأمها كافية لتذيقني هذا الشعور رغم مرارتها وثقلها على نفسي، ومن وسط هذا السكون المخيف، تطل شهقات البكاء المر، والرغبة في الانزواء بعيداً، مد كريم يده ليعطيني الصورة التي تبللت أطرافها، حين بكى وقبلها، نظرت ملياً في الصورة، كانت ملامح شخوصها بعيدة وصغيرة، لكن لبكاء كريم دلالة ربطت معها صورة أحدهم، يقف متكئ على بندقية طويلة، صرخت بلغة لم يفهموها، إنه قاسم، التفت الجميع نحوي، كنت أقبض على الصورة كأني أستأثر بها عنهم، شعرت بشيء من السعادة تتسلل إلى صدري، كريم آثرني بالصورة من دونهم، لم يعطيها لجرجس رغم أني كنت أشعر مؤخراً بقربهم، أسعدني ذلك الشعور الباطن في نفس كريم، في ذروة حزنه يذيب كل فتور بيننا، يشعرني بقربي ومكانتي منه، راحيل كانت تعطيني كل شيء، لكني لم أشعر يوما بالقرب كما أشعرني كريم حين مد يده بالصورة نحوي.

شق جرجس دائرة الصمت من حولنا، وخرج يرفل في ثوبه الكنسي، يتبعه الرجل، فاقتربت من كريم، سألته عن قاسم فأخبرني أن الرجل يقول، أنه كان ضمن قوات عبد القادر الحسيني، وأنه

كان معه هناك بالقرب من عكا، ولم يعد يسمع أخباره بعد سقوط الجليل، أطرق كريم مرة أخرى وبكى، ثم رفع رأسه فجأة وقال:

- وعدني الرجل بالسؤال عنه، وإخبار جرجس بكل ما يسمع.

سألته متسرعاً:

- لكنكم تكلمتم كثيراً.

لم أكمل حديثي فقاطعني كريم قائلاً:

- استولت منظمة الأرغون على قطار كان يحمل السلاح إلى مخازن الإنجليز، وقريباً سيدوسون بنعالهم أرض هذه الكنيسة، يقول الرجل أن المنشية أصبحت خاوية، وما زال الطريق الذي يمر منها إلى البلدة محاصراً بمئات الجند والعربات المصفحة ومدافع المورتر المنتصبة على جوانب الطرق.

- هل سنغادر الآن؟

- نعم سنجد في حي العجمي ملاذاً مؤقتاً، إلى أن نرى ما سنفعل، شيء ما بداخلي يا ايفانوف يريدني أن أبقى، أشعر أن لقائي بقاسم قريب.

- لكننا سنفقد قاسم ونفقد أنفسنا إن بقينا هنا، وإن صدق الرجل بأن الجليل سقط، حتماً سيتحرك قاسم جنوباً، وقد نلتقي في حي العجمي.

كان صمت تلك الليلة قاتلا ومريبا، كشيء كامن ومتوثب ينتظر الانقضاض، تفقدنا كل ما نريد حمله معنا، بعض المعلبات والخبز والتين المجفف والماء، انتظرنا خلف الكنيسة يحمل كل منا صرته ، إلى أن أتى جرجس يجر خلفه بغلة، تناوبها على ركوبها في طريقنا إلى حي العجمي، ومع ساعات الفجر الأولى، كان هدير المدافع وقذائف المورتر قد ضج من جديد، فحثنا جرجس على الإسراع لنتوارى خلف تلة ليست بالقريبة، في طريقنا كان بعض العرب يسيرون بمحاذاتنا، لعلهم ذاهبون إلى العجمي مثلنا، كانوا يسيرون كجثث خرجت للتو من قبورها، يحملون غبار الأرض على جباههم، كانوا ينظرون إلينا بكثير من التوجس والحذر، وحين تعامدت الشمس مع هاماتنا، جلسنا نستريح في ظل شجرة وارفة، بعضهم أتى يطلب الماء، أكلنا وشربنا معاً، وعاد كريم ليخبرهم أنني أخوه الأبكم، على أي حال لن تطول صحبتنا معهم، سنفترق قريباً.

بعد يوم من المسير الحذر وصلنا أطراف العجمي، كان متوتراً، ومشدوداً كقوس، يقف الناس ملتصقين بأبواب الدكاكين وجدران

المنازل، وكان صوت المدافع والقنابل يصلهم كلما هبت الريح تحمل نذر مخيفة كعواء وحش من الأساطير، يتفقد الواقفين من بجوارهم، فيما يمسك الأطفال بأطراف جلابيب آبائهم، لم أعايش انتظار الموت مثلهم، لكني رأيته، كنت دوماً كمتلصص سكير وظمئ يسترق النظر إلى كاسات الآخرين وهم يسكبون في أجوافهم شرابا حارقا ونفاثا، أتخيل الخمر تطيش برؤوسهم، ويجري ريقي بشيء من حامض يعيد حضوره مع الذكريات، مثله، كنت أرى الحزن وأرى الموت، وشممته أيضاً حين أحرقنا حقوق القمح، وحين التصق الناس بأطفالهم مؤثرين الحرق عما قد يصيب أطفالهم، شممت شواء الأرواح الغضة بين السنابل التي لم تحمهم من سعار الدم الذي رأيته في أحداق راحيل ورفاقها، إلا أن بلادتي حالت دون تذوق طعم إنتظار الموت كما كان يخبرني جوزيف العجوز، حين سألني هل تحبها، وقبل أن يسمع إجابتي قال لي، لن تنجو قبل أن تتعلم كيف تقول لا.

لم تفلح كل الأهوال في جعلي قاسياً، لكن بلادتي تؤدي دور القسوة، جعلتني محايداً، لا رأي لي، أعدو لاهثاً خلف كل من يمسح رأسي، خطر ببالي أن أنظر خلفي ربما تشكل لي ذيل على حين غفلة، أحببت راحيل، وأشفقت على إيستر رغم سماعي مباهاتها بقتل أبي بتلك الأعشاب المخدرة، والآن أحب كريم، وأشعر بفقدان قاسم

ويملؤني أملا بعودته، رغم أني لم أبادله كلمة واحدة، كانت لغاتنا بين برتقالتين أفسدتهما راحيل.

قضينا ما يقارب الساعتين في ظل الشجرة، إلى أن انتفض كريم واقفاً، فتبعناه، سار امامنا باتجاه الجنوب، وحين أصبحنا على مشارف حي العجمي، كان الناس يتزاحمون في ظلال المحال التجارية المتراصة على جانبي الطريق، ثمة مباني بطراز قديم، ملتصقة ببعضها، كأنها متعانقة، تلوذ ببعضها، كأنها ممتدة في أفق من غبار، كانت وجوه الناس أشبه بتماثيل نحاسية، كل المشاعر تبدو قريبة، يمكن أن تلمس باليدين، فتقرأ فيها كل شيء إلا الطمأنينة، كانوا ينظرون إلينا كلما تجاوزنا مجموعة منهم، ثم يلتفتون نحو هدير المدافع والمصفحات، فيما ينطلق آخرون من شوارع تتفرع باتجاه البحر، أسرعت الخطى حتى لحقت بكريم، وحين التفت نحوي، أومأت برأسي باتجاه أحد الشوارع المتجهة غرباً، ثمة أكياس رمل مرصوصة يركض حولها بعض المسلحين بلباس عربي، يشبه ذلك الذي كان الرجل يرتديه حين أحضره جرجس إلى الكنيسة، التفت كريم بسرعة، واستدار باتجاه الشارع غير آبه بصراخ المقاتلين من خلف أكياس الرمل، القى ما على كتفه، ورفع كلتا يديه حتى وصلنا إليهم، تقدم نحونا أحدهم، للوهلة الأولى اعتقدت أنه ذات الرجل، كان زيهم متشابه بألوانه وهيئته،

وكوفيتهم التي تلتف حول وجوههم، تجعلهم رجل بعدة نسخ، وببنادقهم الألمانية الطويلة بدوا كأنهم جيش منظم، وبعد ان تفحص الرجل وجوهنا، عاد مرة أخرى ينظر في عيني، فتدارك كريم الموقف وقال له:

- هذا أخي، إنه أبكم

نظر الرجل في عيني كريم ثم عاد يدحجني بعينيه الصغيرتين وكأنه يتفحص شيء في وجهي، فاصطنع كريم ضحكة فاترة وقال:

- أعلم أنك تنظر إلى إختلاف لوننا، أمه قبرصية تزوجها والدي أثناء رحلات تجارته.

ضحك الرجل، فانسرب الدم من وجهي حتى اطمأنت نفسي وشاركتهم ضحكاتهم، وبعد لحظة ساد الصمت حين أمال كريم رأسه ليهمس في أذن الرجل، قدرت أنه يسأله عن قاسم، وأيقنت أن كريم لم يجد إجابة لدى الرجل، حين رأيته يهز رأسه بأسى، لكننا حين ابتعدنا قليلاً، جلسنا أمام واجهة أحد المحلات التجارية، أخرج كريم من كيسه بعض التين المجفف، إلا أنه لم يسعني الصبر حتى نبتعد، فسألته عما إذا وجد لدى الرجل خبرعن قاسم، دار كريم برأسه ثم دنا مني وقال هامساً:

- قال لي الرجل أنه لا يعرف قاسم على وجه التحديد، لكنه يعلم أن مجموعة من المقاتلين كانت محاصرة قرب جبل راشين[34]، وأن من نجا منهم في طريقه إلينا.
- تلك أخبار جيدة، قلت

تجهم وجه كريم من جديد، وقال:

- لعله أسوأ خبر، من قال لك أنه معهم؟ وإن كان معهم، من أخبرك بأنه نجا؟

كان كريم غاضب كما لم أراه منذ رافقته في ترحالنا الطويل، بعد أن صرخ في وجهي، أخذ يلوك جزء من تينة جافة، ويجهش في بكاء مكتوم، فانسحبت بهدوء حتى التصقت بجرجس.

التفتنا جميعاً على ضجيج الناس يتراكضون باتجاه الجنوب مارين من الشارع المتقاطع معنا، ومن بعيد بعض الرجال يركضون ببنادقهم من امام وخلف أكياس الرمل المكدسة، هب كريم واقفاً، ثم بدأنا نركض باتجاه الشارع المقابل، وحين قطعنا ربع المسافة بين البيوت القديمة، قابلنا سيل من أناس يحملون أطفالهم، وبعض متاعهم، كانت ملامحهم تضج بالذعر، وخوف يعلن عن كينونته

[34] جبل راشين هو جبل تاريخي في دولة فلسطين، ويعد أعلى منطقة في محافظة طولكرم ويقع الى الغرب من المدينة

بلهفتهم في حث أطفالهم على الركض، كنا ملتصقين بجدار أحد المنازل، فمر بمحاذاتنا عجوز، حفرت الأيام الطويلة أسماؤها على جبينه فبدا مقطباً، كان يرفل في عباءة طويلة، وحين كاد أن يمر من امامنا، انفلت حزامه الجلدي العريض، ثمة شيء معدني ارتطم بالأرض، فالتفت الرجل يبحث بين أقدام الناس حتى أسقطه اندفاعهم، القيت الكيس عن كتفي، أمسكت بكتفيه وحاولت أن أعينه على الوقوف، لكنه تملص من بين يدي حين سقطت عيناه على مفتاح، فلم يأبه لأقدام المارة أن تدوس وهنه ودقة ساقيه وذراعيه، التقط المفتاح ثم هب واقفاً كانه انحنى شيخاً واستقام شاباً.

ذلك المشهد بقي محفوراً في ذاكرتي إلى ما تبقى من حياتي، وحتى زمن ليس بالقصير، لم أكن أدرك تلك العلاقة التي ارتبط بها العجوز مع قطعة من الحديد القديم.

بعض المنازل أصبحت خاوية، تصفر الريح في أفنيتها، فانسربنا حذرين إلى إحداها، كان بناؤه بحجر صخري قديم، وغرفه المتلاصقة تبدو نظيفة، كأن أصحابها كانوا على موعد مع العودة القريبة، بعض الفراش ما يزال دافئاً، ومن موقد النار يتصاعد دخان أبيض، كأن أحدهم أطفأها على عجل، وفي الفناء الواسع تنتصب عدة شجرات من البرتقال، وضعنا أكياسنا في إحدى الغرف، فيما ذهب جرجس إلى المطبخ ليبحث عما يمكننا أكله ،

إلى أن عاد بعد دقائق قليلة، يحمل خبزاً على طبق من القش، وضعه أمامنا ثم عاد مرة أخرى يحمل أطباقا من السمن وزيت الزيتون والبصل، كنا جوعى بعد يومين من الترحال على رمال السهل المحاذي للبحر، فاستلقى كل منا مكانه، وقبل أن نغط في النوم، طلب منا كريم أن نختبئ في الغرفة البعيدة عن سور المنزل، كانت غرفة دخلنا إليها من غرفة أخرى تتقدمها، ليس فيها إلا شباك وحيد يطل على فناء المنزل، لا أذكر كمْ من الوقت نمنا، لكنني لا أذكر أنني نمت بذلك العمق والغياب.

نظرت حولي، لم أجد جرجس حيث تركته حين نمنا، أيقظت كريم، الذي استيقظ مذعوراً، كأنني أنقذته من كابوس جثم على صدره، سألني عن جرجس بمجرد أن دار في أرجاء الغرفة بعينتين ما زالتا مغمضتين، فخرج سؤالينا معاً:

- أين جرجس؟

وكأننا متفقون، أسرعنا نبحث في غرف المنزل والفناء، لم نعثر على أثره وكأنه لم يكن معنا، اقترب كريم من باب المنزل متوجساً، كان صوت الرصاص والمدافع ما زال بعيداً ويقترب، رجوته ألا يخرج قبل أن نعرف ما يدور في الخارج، وبعد جهد ولحظات من الترقب الموتور، لم أقوى على الإنتظار، كنا صامتين يرمق كل

منا الآخر، وكأننا نتحدث صامتين، جالت في صدري مخاوف جمة، أيكون كريم صادقاً ليسمح لي بمرافقته على النحو اللصيق؟ أم تراه يتوكأ عليَّ حتى يجد قاسم؟ ولكن بم سأنفعه، انا الهارب من خوفي إلى أهوال لا أدري أين ستصحبني، ثم تعود الفكرة تنقر رأسي كطائر القراع[35]، كيف أمن جانبي بهذا القدر من الارتياح، فيغفو بجانبي كطفل، ويخبرني عن كل شيء كأنه يحدث نفسه، أخبرني كثير مما دار بينه وبين جرجس و الرجل الذي اتانا به حين كنا في الكنيسة، كان بمقدوره أن يكذب، أو لعله يكذب فعلاً، ولكن لم لا يأمن جانبي، وقد أظهرت له من الوداعة أكثر مما ساقني إليه الخنوع في حياتي مع راحيل وإيستر، ثم إنني لم أخالفه في شيء، حكم أن أبقى صامتاً ففعلت، لعله خائف على نفسه إن افتضح أمري، ولكن كان بمقدوره أن يطردني منذ التقيته في الكهف، ما الذي دفعه ليحمل جيبه قنبلة قد تنفجر في أي لحظة.

تدارك كريم وقوفنا الطويل خلف باب المنزل، فاقترب مني وهمس:

- سأخرج لأنظر باتجاه معسكر المقاتلين، وجوده سيخبرنا بكل شيء.

[35] القراع هو طائر نقار الخشب

أطل كريم برأسه من بين مصراعي الباب، ثم أدخل رأسه بسرعة لم أتوقعها، دفعتني لأن أقف مكانه وأسترق النظر إلى الشارع الممتد، إن رهبة ما رأيت تفوق قدرتي على تخيل أي نوع من الحروب مر بجوارنا دون أن ندري، كان الشارع خالياً إلا من بعض الأشلاء المركومة على جانبي الشارع، يغطيها تراب ناعم، يسفعه هواء الأزقة في الوجوه التي تحجرت فوق دم تخثرت فوقه طبقات من الغبار، وفي المدى البعيد، كانت أكياس الرمل متناثرة، أحدهم تدلى من فوقها باسط ذراعيه إلى أسفل، و آخر ملقى بجوار بندقية ما زالت فوهتها تنفث دخانا أبيض، أطلت النظر حولي، حتى سحبني كريم إلى داخل المنزل، عدنا واجمين، وجلسنا غير بعيد من الباب، لعل جرجس يعود قبل أن يهبط الليل.

مرت الساعات ثقيلة، كأن عقارب الساعة محملة بأكياس من الصخر تعيق حركتها، إلى أن اصطبغ الأفق الشرقي أمامنا بلونه البنفسجي الذي بدأ يتفشى في السماء بكثير من الكآبة و الضيق، كان صمتنا شاهد على الهوان و الترقب الثقيل، إنتظرنا طويلاً حتى كدت أن أغيب في نوبة من النعاس، لكن خشخشة أقدام أتية من خلف أشجار البرتقال، جعلتنا ننتفض كأقواس مشدودة، وكلما اقترب الصوت، زاد التصاقنا ببعضنا البعض، ومع كل خطوة تقترب، نعود بخطوتين مرتجفتين إلى الخلف، حتى كدنا أن نرتطم

بالحائط المحاذي لباب الغرفة، كان الظلام حولنا حالكاً، فلم نتبين من ذلك الذي تسلل إلينا، لكن نداءه المكتوم أزاح الخوف عن صدورنا، إنه جرجس، قلت لكريم، فأطلق تنهيدة كان ارتخاء يديه دليلاً على عمقها.

جلس جرجس إلى جانب كريم، لم أفهم كثير مما كانا يتحدثان به، ولست أدري لم كان جرجس يهمس لكريم تارة وينظر باتجاهي تارة أخرى، زاد قلقي واضطرابي، ولم أقوى على الإنتظار كي يخبرني كريم بما دار بينهم، فالتفتت إليه وطلبت منه أن يخبرني بما يحدث، ولكني حين اقتربت منه، قرأت في ملامحه كثير من الراحة، فأثار فضولي في معرفة ما يدور، فقال كريم مقاطعاً جرجس:

- كان جرجس في جنوب الحي، ما زال بعض المقاتلين يتمركزون هناك بعد أن قصفت دبابات اليهود المعسكر المقابل لنا، ويقول إن بعض المحاصرين الذين أخبرنا عنهم ذلك المقاتل، نجحوا في الوصول إلى هنا، وربما يكون قاسم معهم، سنذهب إلى هناك صباحاً، قد أجد قاسم.

قضيت تلك الليلة أتقلب في الفراش، وأظن أن نوم كريم وجرجس كان مثل نومي، سيل من الظنون وكثير من الأمل، وسألت نفسي:

لم أترقب عودة قاسم، وفي أي درب أسير، يبحث كريم عن أخيه، ولديه حلم مشترك يقاسمه به جرجس، الفتى الجريء الغض، وأنا أي حلم أطوي عليه ضلوعي، لم أكن أحلم إلا بالهروب من عبودية الجنس والقوة، التي أحاطتني بها راحيل، أهرب كي أعود إلى بلدي، كما يحلمون، ولكنهم يقتربون وأنا أبتعد، تمنيت لو أنني لم أقابل كريم، ولكن إلى أين كنت سأذهب، لو لم أجده لعثر عليَّ رفاق راحيل.

ظلت الظنون تطل من رأسي وتختبئ، حتى توشح الأفق بنوره الفضي، يتسلل بحذر كأنه أتى على استحياء، ولم أعد أقوى على افتعال النوم، فاعتدلت أرقب وجوههم، إلى أن هرعنا نركض معاً إلى داخل الغرفة، حين علا أزيز الرصاص ودوي المدافع، مروا من امام المنزل يتصايحون، أحدهم يصرخ لآخر:

- دعك من المنازل، لا أحد يسكنها، جميعهم رحلوا جنوباً.

كنت أشعر بوقع أقدامهم كأنها تدوس ضلوعي، شعرت بثقل يتفشى في صدري، لاهثاً كأني أنازع أنفاسي الأخيرة، وبدأت أتعرق حين باغتتني فكرة أنني بين أيديهم، مطأطئ الرأس، يحملونني من ذراعي، بينما أخر خلفي قدماي، أرعبتني الصورة التي ارتسمت امام عيناي، حين كنت معلقاً في معسكرهم، ولم أنسى نظرات

راحيل الشامتة حين غادرتني بين سياطهم وعادت إلى سريرها الوثير.

وحين ابتعد صوتهم، تسلل كريم مقترباً من باب المنزل، التصق بالباب، كي يتأكد أنهم ذهبوا، فقال جرجس:

- لن نخرج من الباب، سنكون مضطرين لأن نعبر الشارع الرئيسي كي نذهب إلى هناك، سنقفز عن سو المنزل، في الخلف كثير من المنازل المتلاصقة، وستكون الأزقة أكثر أماناً.

ازدرد كريم ريقه، ثم قال متوجهاً نحوي:

- سأذهب مع جرجس لأرى إن كان قاسم هناك أم لا، لن نطيل غيابنا، وعليك أن تبقى في الغرفة الداخلية، حتى نعود.

رجوته أن يأخذني معهم، كدت أن أبكي، كان بقائي وحيداً هو موت من نوع آخر، كان يقتلني الإنتظار حين يتحدثون بلغتهم، إلى أن يعيد كريم ما دار بينهم، لن أطيق البقاء وحدي، سيقتلني الضجر والترقب والخوف، هذا مزيج قاتل، لن يطيقه صدري، فعزمت أن أتسلل خلفهم، أن أتحسس خطاهم، وسأعود حين يجدون قاسم،

تظاهرت بالرضى، تظاهرت بدخول الغرفة، فيما اتجه كريم وجرجس إلى سور المنزل من خلف شجرات البرتقال.

بعد لحظات، تسلقت سور المنزل خلفهم، وسرت في زقاق طويل، استتر بأعمدة الأبواب القديمة، كلما خفت أن يروني خلفهم، بعد عدة أزقة، كنا على مشارف ساحة رملية واسعة، تنحدر الطريق عن بدايتها، لذلك لم أستطع اللحاق بهم إلا بعد أن هبطوا في طريق ترابي يؤدي إلي بيارة برتقال، كان إسمها بيارة حلاوة كما أخبرني كريم لاحقاً، كانت أشجار البرتقال متلاصقة، ولقربها من الأرض كان السير تحتها يتطلب قدراً أكبر من الحذر، هم يسيرون بحذرين وانا ألحق بهم بثلاثة محاذير، أخشى رفاق راحيل، وأخاف أن يروني خلفهم، وأتفادى عيدان البرتقال القريبة من الأرض، أسعفني صوت انفجار تبعه اطلاق رصاص من رشاش آلي، جعلتهم يحثون الخطى غير مبالين بخشخشة أوراق البرتقال اليابسة تحت أقدامهم، على أي حال لم يطل سيري خلفهم حتى كنا على الجانب الآخر من البيارة، هناك تلة رملية يستتر خلفها بعض الرجال المسلحين، هناك قناة منخفضة، بعرض ذراعين، تفصل بين البيارة والتلة الرملية، كان عليهم أن يجتازوها قفزاً، رأيتهم يقفزون عنها، ثم يعودون إليها، وحين هبط كريم داخلها، لم أعد أرى سوى رأسه يعلو ويهبط كأنه يقلب شيء ما داخل تلك القناة، حثه جرجس على الخروج

وأمسك بذراع حتى سار معاً مبتعدين خلف التلة، تلك النقطة التي لم أستطع تجاوزها، الأرض حولنا شبه خالية، وسيدركون أني خلف لو استداروا فجأة، لكن فضولي لمعرفة ما دفع كريم للنزول في القناة، اقتربت بحذر، وكلما اقتربت أكثر كانت رائحة كريهة تكاد أن تطيش برأسي، لم أعد أقوى على الاقتراب أكثر، لكني كنت على بعد يسمح لي برؤية طرف القناة البعيد، رأيت كومة من الجثث مكدسة فوق بعضها، بعضها تفسخ وانتشر الدود على بقعة أخرى، وبعضها ما يزال راعفاً، استطعت بعد جهد أن أقطع كم قميصي، وأن أتلثم به، كانت القناة ممتدة إلى أخر ما يمكنني رؤيته، وعلى طولها تتكدس جثث متفحمة وأخرى مبقورة البطن، أكثرها حظاً كانت تلك التي نالت رصاصة في الجبهة، لم أر في حياتي هذا القدر من الجثث متلاصق كأن الأموات أيضاً يلوذون ببعضهم بحثاً عن الدفء، ثمة أحلام لم تنضج بعد، بقيت حبيسة الصدور التي انفجرت، وفي الناحية الأخرى، ثمة أطفال تلتصق وجوههم بالطين في قعر القناة، وأمهات تكشفت عوراتهن، بين غابة من أطراف مبتورة، أذهلني ما رأيت، لكن رأسي ضاق بطيف عابر تخيلت بين ثنياه آدمي يبقر بطون المرضعات و الحوامل، ثم يلهو بأطراف الأطفال كطفل يمزق دميته، أي نوع من الطين المسنون قد يستمرئ هذا القدر من الدم والعظام، لكل جثة هيئة تكورت

عليها، وبعضها انكفأ على ذاته، اكاد أجزم أن القتيل حلم، لم يكن محض جسد يتناوب على غرائزه الآدمية، جثة ذلك الكهل تطبق ذراعيها على جثة صبي لم يتجاوز حدود الحلم، وتلك مرأة ما زالت تقبض على يد طفلها، لم تقتلي الأجساد يا راحيل، صرخت كأن بركاناً يثور بداخلي، لم تقتلي الأجساد يا راحيل، فريق السعار الذي تحتمين به لم يقتل أجسادهم، كانت حياة تضج بأحلام بسيطة، أحدهم يخبره والده أن زواجه قريب، فيتفقد جسده أمام مرآة قديمة، يتفحص ذراعيه، فيما ذهبت جارته، العروس الموعودة تحدث جاراتها البنات عن زواج قريب، ذلك الفتى كان برفقة جده يتكئ على كتفه ليريه أي قطعة من الأرض سيبني له بيت عليها حين يكبر، تلك الحياة التي سرقها رفاق راحيل.

كنت خارج مدارات الوقت، أتفحص طبقات الموت المكدس فوق أحلام الناس، وحين نظرت خلفي، أخبرني ظل الأشجار الممتد أن كثير من الوقت قد مضى في رحلتي بين جثة وحلم، قررت أن أعود إلى البيارة زاحفاً، كي لا يراني احد، عدت أتلوى كثعبان مصاب، وددت لو ان ثقباً في الأرض يسحبني إلى هناك، أن أغيب في ظلمته كي لا أرى، ولا أسمع، بكيت كما لم أفعل من قبل، وبعد أن أسندت ظهري إلى جذع شجرة قريبة، كان علي أن أتماسك قليلاً كي أقوى على العودة إلى المنزل قبل أن يعودوا، أصبح

اللحاق بهم خلف التلة ضرب من الجنون والإنتحار، أنا لا أعرف ما تخفي تلك التلة، لذلك إنسحبت ككلب يطوي ذيله بين ساقيه.

عدت أتسلل بين شجر البرتقال، إلى أن خرجت إلى الساحة التي تفصلني عن الحي، كنت أعلم أن طريقا محفوفا برسائل الموت، لن يعيد لي أيام طفولتي الأولى، لكني لم أقرأها، ثمة شعور ثقيل يجثم على صدري منذ وطأت قدماي أرض الدم، حيث لا شيء أنتظره من غدي، لا هدف يحملني على السير باتجاهه، أتعجل الأيام كي تنقضي، وأعلم أن ما أتعجله من الأيام لينقضي، إنما هو عمري الذي بدأ ينسرب من كل مساماتي.

سرت بين الأزقة المرصوفة في حي العجمي، أتحسس جدرانه الصخرية، والتصق بنتوءات المباني القديمة حين أسمع وقع أقدام أحدهم، أرضية الشوارع الصخرية منحتني قدرة التفريق بين وقع خطى الجند وخطى الناس الهاربين من سونكي البنادق المسعورة.

بعد وقت ليس بالقصير، دخلت المنزل كما خرجت منه، كنت ظمئا حتى تكوم زبد أبيض على حواف فمي، فسكبت ما تبقى من ماء في جوفي الملتهب، حاولت أن أمسح عرقي اللزج، كي أبقى بنفس الهيئة التي تركوني عليها، وبعد أن هدأ لهاثي، ألقيت بجسدي

المتعب فوق كومة الفراش، وغبت في نوم، لم ينتشلني منه إلا صوت كريم حين عاد مع جرجس.

اعتدلت مفتعلاً تأثير النوم على جفني ووجهي، كان وجه كريم أكثر ارتياحاً، وعيناه أوسع على نحو ما، شعرت براحة تسري في صدري لمجرد رؤيته مستبشراً، كان السؤال عن قاسم قد تفلت من لساني، فانبرى جرجس صارخاً:

- وجدنا قاسم

تلفت حولي باحثاً عنه، فقال كريم مبتسماً:

- أخبرونا أنه كان واحداً من المحاصرين قرب جبل راشين، وقد نجحت فرقة مقاتلة من الشمال في تحريرهم، حتى وصل معظمهم إلى هنا، قاسم كان معهم، أخبروني أنه اتجه جنوباً يقصد المجدل مع رفاقه

قال جرجس وقد بدا متحمساً:

- سنقتفي أثرهم، لا بد أن نتحرك الآن خلفهم، وجودنا في هذا المنزل لن يطول، قد يعود أصحابه، أو يقتحمه اليهود.

أطرق كريم حائراً، فاقتربت منه سائلاً:

- ألا تفكر في اللحاق به؟
- سنلحق به، لكنهم أخبروني أن قرى الوسط سقطت، وأن كثير جند اليهود يقطعون الطريق من قرية يبنا إلى القدس شرقاً.

قال جرجس حانقاً:

- تبا لهم، من أين أتوا بكل هذا الجيش؟

تجاهل كريم سؤال جرجس وانبرى قائلاً:

سنتحرك فجر غد، لكن قبل أن نغادر هذا الحي، سأبحث عن أخوالي، إنهم يسكنون في هذا الحي، أعرف الطرق المؤدية إليهم جيداً، ربما نبيت عندهم، وسنتحرك فجراً في أعقاب قاسم.

انسحب جرجس من بيننا إلى داخل المنزل، وعاد بعد لحظة يحمل بعض الطعام، قال كريم بينما كان يلوك آخر قطعة خبز:

- بعد أن ننهي عشاؤنا، سنتحرك إلى منزل خالي.

سرنا حفاة بين الأزقة المصقولة، لم نسمع سوى ريح تعوي بين جدران الحي، مررنا ببعض البيوت، مفتوحة كانت، تتلاعب الريح بمصراعيها، لا شيء حولنا سوى الظلمة وطنين صمت متوجس، أربك الليل معرفة كريم بالطرقات والأزقة، فدخلنا في شارع مغلق، وحين استدرنا للعودة من حيث ولجنا، استوقفنا صخب الجند في

شارع قريب، أشار علينا كريم بأن نستلقي أرضاً كي لا يرانا أحد، لكن باب قريب كان صريره ملفتاً، ومن خلفه أتى صوت ضعيف وراجف ، فاقترب كريم زاحفاً باتجاه الصوت، تبعناه بحذر، حتى اقتربنا من سيدة عجوز، كانت تقف خلف بابها تستجدي عودة أبنائها.

كان لبيت العجوز خابية للقمح، لكنها كانت خالية، تقول:

- كان القمح يكفي لمؤونة عام وأكثر، طحنت أكثره ووزعته خبزاً للناس، ولم يتبقى لدي سوى جرة الزيت وبعض الأرغفة، لا بد أنكم جوعى.

همت بالوقوف فأخبرها كريم بأننا أكلنا لتونا، يكفينا قليل من الماء.

لم تجادله العجوز، هزت رأسها وقالت:

- على أي حال ستكونون في مأمن هنا إلى أن يأتي فرج الله.

وفي ركن مقابل لنا، تكومت العجوز على حزنها، رتابة أنفاسها المطمئنة تجافي وقفتها خلف الباب في انتظار عودة أولادها، عجيب هذا الجسد الواهن، كيف يحمل كل هذا الثقل وألم الإنتظار، إن الوداعة التي تضج بها ملامح العجوز، تخفي ثورة ما زالت

تستعر في أحشائها، لقد عايشتُ ذلك الشعور الخانق، حين تكون مرغماً على إخفاء ثورتك بهدوء مصطنع، مثلها كنت أخفي حنقي وناري، فأسدل عليها ستار ابتسامة زائفة، كي ترضى راحيل، أي قوة أحالت وهن هذه العجوز إلى صبرٍ وترقب الأمل.

طاشت رأسي بكل موقف كنت مرغماً فيه على الرضى، وكل ما قدمته خانعاً قبل أن تتكلف راحيل عناء الابتزاز.

من وسط تزاحم الرؤى، قفزت صورتك يا "أندرو" أمام عيناي، كنت أراك كسراج وحيد ينير ظلمة حياتي، أخاطبك صغيراً حين كانت تغيب راحيل، لطالما راودني إحساس راسخ حد القناعة بأنك تعي ما أقول، تدرك جيداً حياة والدك التي صيرته دمية، يلهو بها من يشاء، ويضعها من يشاء حيث يشاء، أخبرتني حركات يديك العشوائية بأنك تعي ما أقول.

حاولت مراراً ألا أختلي بنفسي كي لا تعاودني صورتك، كي لا يعيدني الشوق إلى حالات ضعفي، وللحقيقة يا بني، لم أفلح في الكف عن توقي لرؤيتك، ولا أن أكون قوياً.

قضيت ليلتي تقلبني الرؤى والذكريات، وحياة العجوز التي تنتظر أبنائها، مسكينة كانت تلك العجوز، من أخبرها بأن أبنائها سيعودون، من مسح على وجهها بهذه السكينة والطمأنينة، إنه الأمل

يا بني، آخر ما يمكن للمرء أن يفقده، لأن فقده يحيلنا إلى كائنات أخرى، لا تشبه الإنسان إلا في هيكله الخارجي.

ومع ساعات الفجر الأولى، استيقظا على أجيج حركة العجوز في فناء المنزل، جلسنا ننتظر أن تتضح هيئة الصبح أكثر، وانسحبنا بهدوء بعد أن أعطتنا العجوز عدة أرغفة وقلة من الفخار ملأتها بالزيت.

كان منزل العجوز بعيداً عن منزل خال كريم، وكان علينا أن ندور حول الحي كي نصل إليه في الجانب الآخر من الحي، إذ لم يكن السير في أزقة الحي آمناً، كنا نسمع أزيز الرصاص قريباً وصاخباً، وانفجار قنابل المورتر كان على بعد زقاقين من مسيرنا، عدنا نسير بجوار القناة التي احتوت مئات الجثث، اقترح جرجس أن نقوم بتغطيتها بالرمل، لم يوافق كريم، قال إن وقوفنا هنا ينضوي على الكثير من الخطر، إنها الطريق الأوسع حول الحي، ولا بد أنها ستكون ممراً لمدرعاتهم، بل وحثنا على الإسراع كي نصل منزل خاله قبل أن يصل إلينا جندهم، كان جرجس يتوسط مسيرنا، فانبرى قائلاً:

- أرى أنه لا مبرر لهذا الهلع، إنهم أكثر ذكاءً من أن يتورطوا في حرب شوارع.

ثم سكت فجأة ووضع يده على فمه، كأنه يقضم الكلمات الأخيرة قبل أن تتفلت من بين شفتيه، وحين أوضح كريم ما قاله جرجس، لم يثيرني، أو لعلي لم أفهم ما يقصد، لكن ما بدا من حديث كريم بعد ذلك كان يوحي بأنه يعرف ما لا أعرفه عن جرجس.

إقتربنا من منزل خال كريم، كما قال لنا، كانت معظم البيوت في هذا الجانب من الحي مهدمة، أكوام من الحجارة والصخر، حلت مكان المنازل، ما زال الدخان ينبعث من بعضها، ورائحة البارود تملأ المكان، كان من الصعب على كريم أن يتعرف على بيت خاله، كل الأزقة المؤدية إليه كانت مغلقة بالركام، إلا أنه أعتلى أحد الأكوام وأشار لنا أن نتبعه، وصلنا معاً إلي بيت خاله بعد عناء، كان الباب مغلقاً، وعجوز تجلس في ظل السور بجانب الباب، إقترب منها كريم وسألها عن خاله فأخبرته أنه ترك المنزل مع زوجته وأبنائه وإثنان من إخوته، رأيته يسير مع جموع الناس القادمين من المنشية ويافا قالت، وحين سألها عن وقت خروجهم، قالت أنهم خرجوا قبل الغارة الأخيرة، عصر الأمس، وأردفت العجوز، لا تلحق بهم، يقولون أن اليهود

وقف كريم حائراً، ينظر في كل اتجاه دون هدى، ولم يكن أمامنا إلا أن نستتر بعض الوقت في منزل أخواله، دلفنا تباعاً إلى فناء المنزل، كان من تلك المنازل الصخرية ذات الأبواب العالية،

والبلاط المزخرف، يبدو من نظافته وترتيبه أن أصحابه كانوا من الميسورين في العجمي، وتأكدت ظنوني بعد استطلعت الصور المعلقة، والمكتبة الكبيرة التي تحتل حائطين من غرفة يتوسطها مكتب وكراسي وثيرة، قال كريم:

- خالي الأكبر كان صحفي محرر في صحيفة فلسطين، كان يعد من أعيان يافا.

سأل جرجس:

- لماذا هاجر؟ كان من الممكن أن يبقى في بيته، كحال الكثير ممن لم يتركوا منازلهم.

رد كريم:

- كان خالي مثقف، وكثيراً ما تحدث في السياسة وكثير من حديثه لم نكن نفهمه، لا بد من أن يكون على بشيء لم يعرفه عامة الناس، ولذلك هاجر، إن هجرته تنبئ بأن القادم أسوأ مما نعتقد.

علي أي حال أصبحنا داخل المنزل، و

لا نملك إلا الإنتظار حتى تهدأ الحرب، فنلحق بهم أو نبحث عن قاسم.

كانت مدافع الهاون لا تهدأ، وأزيز الرصاص ينذر في كل لحظة باقتحام قريب، كان من الخطر أن نبقى في المنزل، ولكن خروجنا فيه من الخطر ما لا نتوقعه، ومرت الأيام متتابعة، تهدأ وتيرة الحرب ليلاً لتتجدد مع ساعات الفجر الأولى، وحده جرجس كان يخرج بين الحين والآخر، يأتينا بأخبار الشوارع والمنازل والقصف وما تطاله يديه من طعام، وفي يوم ربيعي من أيام نيسان، خرج جرجس يبحث عن ماء قريب، فسألت كريم:

- كيف عرف جرجس أنهم لن يدخلوا حرب شوارع.

قلب كريم شفته السفلى، وقال:

- لا أعلم، ربما عرف ذلك من الثوار حين كان يساعدهم أثناء وجوده في الكنيسة.

سألته مرة أخرى:

- لماذا أحضر البندقيتين حين نمنا في قاعة الصلاة في الكنيسة؟
- نعم أذكر ذلك، ولم يخطر ببالي أن أسأله، ولكن قل لي أتشك في ذلك الصبي.

- لا ولكن أمره يدعو إلى الحيرة، إنه مجرد صبي، يساعد الثوار، ويعرف أنواع السلاح وخطط الحرب، ويدير مؤونة المقاتلين، ويخرج دون خوف، ألا يدعو ذلك كله إلى الريبة والشك.
- لا، إنه مجرد صبي شجاع، ثم أنه ما زال بإمكاننا ان نسأله، ولكن ألم نقضي الأيام السابقة معاً، ولم نجد منه ما يثير توجسنا.

كان رد كريم مقنعاً، فشعرت لوهلة أنني أخطأت حين سألت، وأصبحت أرى اللوم في نظرات كريم بعد ذلك، حين خرجنا معاً ذات مساء نتحسس أخبار الطرق جنوباً، كدت أن أهوي في حفرة عميقة، لولا أن القى جرجس بنفسه أمامي لكنت في عداد الموتى، وأصبحت تلك الحادثة ذريعة كريم في كل موقف كان مضطراً فيه للدفاع عن جرجس أمامي.

مرت الأيام متتالية، وبدأت وتيرة الحرب تهدأ، ومعالم البلدان تتضح، سقطت فلسطين، بكل قسوة المعنى قالها كريم، بينما انحدرت دموعه كطفل أضاع أبويه، وبكى بمرارة حين عاد جرجس لاهثاً، وقال إن بن غوريون سيعلن قيام دولة إسرائيل مساء اليوم، بكينا معه، ولكن بكاؤه كان أدل على الحرقة والألم.

بعد أيام من إعلان بن غوريون، عاد بعض من رحلوا يتفقدون دورهم، كانت أصول العائدين من أحياء يافا الجنوبية، العجمي

والجبلية وهرميش، أما بقية الأحياء والبلدة القديمة لم يعد إليها الكثير ممن هاجروا، إذ أن ما بقي من منازلهم واقفاً، سكنه اليهود القادمين من تل الربيع وتخوم يافا، بيد أن الحركة بين الأحياء كانت محصورة في إطار خانق، ينازعه تسلل البعض ليلاً ليزوروا أقاربهم، أو بدواعي الفضول.

أصبح منزل أخوال كريم بيتنا، تقبلنا الناس هناك كأننا منهم، كانوا يعرفون صلة كريم بالمنزل، إلا أن الأيام كانت تمر حذرة ومتوجسة، إذ تواردت أخبار القتال جنوباً وشمالاً، كنا لا نغادر المنزل إلا قليلاً، جرجس كان يأتينا بما نحتاج، ولم نسأله يوماً من أين يأتي بكل هذا الطعام، فكنا نأكل، ونستمع لأحلام كريم، وفي نهاية كل حكاية، كان مقولته، سيعود قاسم على رأس جيش كبير، وسنعود معه إلى قريتنا، بعد أن يعيد أخوالي، إلا أن الأيام كانت تأتي كإعصار يهدم أبراج الأحلام التي بناها كريم في رؤوسنا، تمر الأيام كأنها تعود إلى الخلف بأحلام كريم، إلى أن توقف عن حلمه المعهود، ولم يعد يكرره أمامنا.

الواقع مقتلة الأحلام، ذلك الحجاب السميك، يزداد سمكاً بمرور الأيام، وكلما زاد ثقله وسمكه إختنقت الأحلام، كنا نلوك الحكايات وما يتبادر من أخبار الجيوش العربية في الفالوجة جنوباً وتخوم

حيفا شمالاً، إلا أن جذوة الاهتمام خبت، وأصبح ذكرها حديث عابر يجلله الأسى، والبحث عن نهج لحياة جديدة من اجل البقاء.

توقف القتال في كل مكان، وعدنا لرتابة تسير بوقع ما يفرضه علينا جيشهم، ذلك المصطلح الذي لم أفهمه إلا لاحقاً، الإقامة الجبرية، يعني أننا كحجارة الدور، نقصف فنصبح ركاماً أو نبقى في أماكننا ولا نبرحها، إلا بإذن المقيم الجديد، على هذا النحو مرت أشهر تتابع بوتيرة واجفة، في بيت خال كريم الذي أصبح بيتنا بحكم الإقامة الطويلة، وفي ركن يقع خلف الغرف الصخرية العالية، كنت أختبئ حين يداهمنا جيش اليهود، وبذلك كنت محكوماً بإقامتين جبريتين، ومحكوم بالبكم إذا سمحت الفجوة بين مداهمة وأخرى أن اخرج إلى أزقة الحي.

نجحت في تعلم بعض الكلمات العربية بالقدر الذي يسمح لمن يسمعني أن يعي مقصدي، وأن أفهم ما يقال أمامي، لكن الكلمات العربية أيضاً كانت تؤلم فمي حين أتحدث بها، أو في خلواتي محدثاً نفسي، لأني ما زلت أنطقها بلهجة غريبة.

وفي عصر يوم صيفي، ارتدى كريم لباسه العربي، وخرج يرافقه جرجس، لم يخبراني بمقصدهم، وأنا لم أسألهم، إلى أن هبط الليل بسكونه الحذر، أغلقت باب المنزل بإحكام وعدت أجلس قريباً من

مخبأي، وعقدت النية ألا أفتح الباب لأحد، غفوت رغماً عني، إلى أن استيقظت فزعاً، على قرع الباب، أظنه كان يركل الباب بقدمه، هرعت إلى مخبأي، وانكفأت على نفسي، زاد طرق الباب وبوتيرة محمومة ومتعجلة، لم أكن شجاعاً بما يكفي لأفتح الباب، أصخت السمع من خلف الباب، سمعت صوت كريم، كانت حروفاً تتناثر بين لهاثه وصوته الراجف، فأسرعت أفتح الباب، كان يحمل جرجس بين ذراعيه، فأسرعت أحمله، كدث أن أتعثر في ظلمة الفناء، أحسست بسائل لزج وساخن، يسري بين جسدينا، كريم أيضاً كان جريحاً يسير مترنحاً، وهو يقبض على ذراعة الأيسر، وضعت جرجس برفق على بلاط الغرفة، فيما ذهب كريم إلى غرفة أخرى يضمد جرحه بنفسه، كان أنين جرجس خافتاً ومكتوماً، بينما ينفجر صدره بنافورة من دم مع كل حركة، ارتبكت كل حواسي، وارتجفت يداي، كنت أقترب منه، أنظر إلى ثقب في صدره ونافورة من دم ساخن تنثعب من صدره، ثم أبتعد فأبحث عن شيء لا أعرفه، أتى كريم بيد مدلاة إلى جانبه، يقطر الدم من أطراف أصابعه، والقى بنفسه على الأرض واستند إلى حائط الغرفة، ساد صمت مخيف بين أحداقنا، ومع كل ثانية تمر، كأنت عينا جرجس تجحظ أكثر، وصدره يعلو ويهبط ببطء شديد، حتى شعرت أنه لا يتنفس، هرعت خارج الدار، لعلي أجد من يساعدنا، كانت الشوارع خالية،

إلا من بعض الكلاب تجتمع على جيفة ما، لم يسعفني أحد، وخفت أن أتوغل داخل الحي أكثر، وقفت أمام باب المنزل مشدوهاً، أبكي بنحيب مسموع، وحين لكزني خوفي على جرجس وكريم، هممت بالعودة إلى المنزل، فأدركني صوت من الباب المقابل، كان كهلاً تجاوز الستين من عمره، سألني عما يحدث، فأجبته بعربية مكسورة، رفاقي يموتون داخل المنزل، هرع الرجل خلفي، وحين وصلنا إلى الغرفة، كلاهما كان فاقداً للوعي، طلب الرجل أن أحضر له قطع من قماش نظيف، لفها حول صدر جرجس، ثم بدأ يمسح الدم عن جسمه، لكنه لم يفلح في إيقاظه، فخرج مسرعاً، ثم عاد بعد لحظة يصرخ بأن أحمل إليه جرجس وكريم، وضعناهم على عربة خشبية كتلك التي تجرها الأحصنة، وسرنا نرتطم في جدران الأزقة، كان الرجل يحثني أن أسرع قبل أن يقابلنا جند اليهود، وحين سألته عن وجهتنا، صمت قليلاً ثم أجابني :

- إلى المستشفى الإنجليزي في الحي المجاور.

لم أرد لكن الرجل أردف، المستشفى الإنجليزي ما زال يعمل، لم يبرحه الأطباء منذ بداية الحرب، كان حديثه رد على سؤال كاد ينبعث من صدري.

كان حي دولة ملاصق لحي العجمي، لكن الطريق إليه تمر بأرض مكشوفة، وغالباً ما تضاء بفوانيس تحملها العربات العسكرية، لكن لسبب ما، كانت الساحة معتمة جداً، فاستطعنا اجتيازها بسرعة، عند بوابة المستشفى، ثمة عربة عسكرية مدرعة، أيقنت انها تنتظر المصابين، توقفنا على بعد منها، ثم أشار الرجل بأن ندخل المستشفى من باب خلفي، يستخدمه عمال النظافة وبعض الأطباء، وحين استقر بنا الحال في بهو المستشفى أسرع أحد الممرضين إلينا، وضعنا جرجس على حمالة وأسرعوا به داخل غرفة خاصة، بعد لحظات خرج ذات الممرض يطلب متبرعين بالدم، تقدمت مع الرجل، وبعد لحظات كنت ممداً على سرير المستشفى المجاور لجرجس، أخبرني الطبيب فيما بعد أن جرجس نجا من الموت بأعجوبة، بينما تم تضميد جرح كريم، رغم أنه سطحي، كان التعب والمرض بادياً عليه أكثر من جرجس الذي بدأ يتعافى شيئاً فشيئاً.

لم يكن وجودنا الدائم في المستشفى ليمر دونما ثمن ندفعه، في فترة غيابي القصيرة عنهم، داهمت دورية من جند اليهود غرف المستشفى، واحتجزوا كلاهما.

عدت إلى المنزل أقص على وحدتي مسير قطعته منذ سنوات، أهرب من موت لأجد نفسي في أتون موت آخر، لم يقطع وحدتي سوى ذلك الكهل الذي لم تنطلي عليه أكذوبة الأبكم، لم يكن أمامي

إلا أن أشرح له بكلمات عربية ضعيفة مختلطة بعبرية أضعف، كنت خائفاً متوجساً، ولم أقص عليه كثير من الأحداث التي كانت بمثابة مفترقات حكمت حياتي فيما بعد، لكن خوفي تبدد حين قال الرجل:

- لا عليك، نحن نراك هنا منذ انتهت الحرب، ولم نرى منك ما يسيء، ولتعلم كنا نعرف الكثير من اليهود الذين سكنوا شمال يافا، لم تكن تلك العلاقة العلنية معنا مسيئة، إلا أن إساءتها وقعت حين تكشفت النار التي تسري في كومة من القش دون أن نشعر.

أراحتني كلماته وأزعجتني مقارنته، لم أكن يهودياً ولا أريد أن أكون، لكن ما أثارني لاحقاً هو ما قابلتني به عائلة الرجل، كان طعامي يصل في موعده كل يوم، ويسألني الرجل عن حال رفاقي كلما تصادفنا، وقد عرف معظم سكان الحي أنني لست أبكم، وأنني أخفيت حقيقتي كي أهرب من اليهود، فانقلب ما كنا نخشاه إلى طمأنينة وألفة، وبمرور الأيام كنت أفتقد جرجس وكريم لكن ألفة الجيران كانت عوضاً مؤقتاً عن فقدي المؤقت.

ثلاثة سنوات مرت، وأنا أحيا هناك، كواحد منهم، تعلمت لهجتهم، وأتقنت الحديث بما تقتضي ثقافة لغتهم، وبمرور الوقت أصبحت

الحركة بين الأحياء والمدن ميسورة أكثر، كان جاري يأتيني بأخبار كريم وجرجس، فرحت لأنهم تعافوا من جروحهم، وأحزنني أنهم سيقضون أربعة سنوات أخرى في السجن.

لكن ما شملني به الحي من قبول بينهم، خفف من وطأة وحدتي، على هذا النحو مرت الأيام رتيبة ومتشابهة، إلى أن أتى يوم الإفراج عنهم، خرجنا في موكب من معظم شباب ورجال الحي، استقبلناهم كما يستقبل الأبطال، لم يغلق باب منزلنا، كأن كل سكان الحي تداعوا لزيارتنا، أنكر علي كريم حديثي مع الجيران والضيوف، لكن جارنا المنقذ مال برأسه وهمس في أذنه، فقدرت أنه يخبره بأن كل الحي يعرف قصتي، ابتسامة كريم كان بها من الرضى ما انتشيت لأجله، أصبح كل شيء واضح ومعلن، لا شيء تخشى عواقبه، وحين هدأت زيارات المهنئين، قال لي كريم بعيون ضاحكة:

- أتعلم، أثناء وجودنا في سجن عسقلان، أتوا ذات ليلة بأحد الثوار، قضى شهر في التحقيق، ثم ألقوه بيننا، وبعد أن هدأت أحواله، سألته عن قاسم، فأخبرني أنه كان في سجن المسكوبية، وكان قاسم شريكه في الزنزانة.

صمت كريم لبعض الوقت، ثم أردف:

- المحزن يا ايفانوف أنه سيقضي هناك عشر سنوات أخرى.

لم أكن أعلم ما يجب قوله في وضع مماثل، لكني اكتفيت بالتربيت على كتفة، وقلت مؤازراً:

- ستمر السنوات بأسرع مما تتخيل، بالأمس القريب كنا نختبئ في الكنيسة، وها قد مرت سبع سنوات.

كان جرجس على حاله من الخفة وكثرة التجوال والحركة، وكأنه لم يسجن ولم يصب، لذا كنت أقضي جل وقتي في تجاذب الأحاديث مع كريم، فأخبرني ذات مساء:

- حين كنا نختبئ في الكنيسة، كانت مقاومة الثوار على أشدها في مناطق الشمال وتخوم حيفا، كل المقاتلين وطلائع الجيش العراقي، استطاعت أن تحرر الكثير من الأراضي حول حيفا، لكنها توقفت فجأة، ولم تعد تتقدم نحو حيفا، أمر ما أوقف الجيش الذي كان من الممكن أن ينتصر.

أتعلم يا ايفانوف، بعد أن خرجنا من الكنيسة باتجاه البلدة القديمة، كان ثمة قطار إنجليزي يتجه نحو حيفا، كان محملاً بالقذائف ومدافع الهاون والذخيرة، رصد الثوار حركة القطار، لكن عصابة الأرغون كانت أسرع إليه، أذ وضعوا عبوة صغيرة استطاعوا إيقاف القطار بعد تفجيرها، وبعد اشتباك

قصير، كان الجنود الإنجليز يحملون بأنفسهم صناديق الذخيرة و قذائف الهاون إلى عربات اليهود التي اصطفت على طول سكة الحديد، أخبرني رفيق قاسم أنهم حاولوا منع السرقة المفتعلة، لكن واجهتم قوة من الإنجليز، وبعض الجند اليهود، في تلك الليلة أسروا قاسم، حين تفلت من قبضة الإنجليز وتوجه برشاشه نحو القطار، أخذوه مصاباً إلى مركز للتحقيق في الكيبوتس الذي كنت تحيا به، ثم أتوا به إلى سجن المسكوبية.

كانت قصة قاسم أمل آخر، كي لا ننتظر الفراغ، أن نقضي وقتنا على أمل لا يفصلنا عنه إلا الوقت، والوقت رغم ثقله سريع.

كان جارنا يأتينا بأخبار قاسم، لا نعرف من أين يأتي بأخباره لكننا كنا نأنس لسماعها، بل ونسأله إن غاب عنا بضعة أيام، فيعود لنا في اليوم التالي بأخبار جديدة.

كنت أشعر بشوقي لرؤية قاسم أكثر مما تحتمل علاقتي به، لقد كانت تلك المرة الوحيدة التي رأيته فيها، حين أهداني برتقالتين، وفي المرة الأخرى التي أصيب فيها، لم أكن لأرى وجهه من تلك المسافة البعيدة، تلك البرتقالتين كانتا فجوة بين حاضري وأحداث الماضي، سألت نفسي ذات ليلة، لماذا يرى المرء ماضيه بأفضل مما يرى حاضره، لماذا نرى طفولتنا أكثر جمالاً من صبانا، هل

ننسى الألم ونذكر فقط ما يريحنا، اكتشفت بعد عناء أننا نهرب من ذكرياتنا المؤلمة، فتساعدنا أدمغتنا على ذلك، لذا بقيت برتقالات قاسم غضة وطازجة، تحيا معي حيثما ارتحلت.

لم يكن يعكر صفو حياتنا في الحي سوى مرور الدوريات العسكرية بين الحين والآخر، وما يرد إلينا من أخبار البلدات العربية في الضفة وغزة، تمنينا لو أننا واصلنا المسير لنصل إلى غزة، لا احتلال هناك، وقد نلجأ إلى مصر ومنها أعود إلى بلدي، كان ذلك الحلم يؤرقني، ينثعب بكل الألم والذكريات المرة، لذلك توقفت عن الحلم.

كانت تفصلنا سنوات ثلاث عن خروج قاسم من السجن، فامتلأت جدران المنزل بعلامات يرسمها كريم بقطعة من الفحم كلما مر يوم آخر، إلى أن أتى اليوم الذي غربت فيه شمس السكون التي نحياها، بعد أن كانت حياتنا تسير بوتيرة هادئة، لم يشوبها إلا ما طرأ على أيامنا من هموم، كنا نسير معاً حين باغتتنا دورية يرافقها بعض الرجال بملابس مدنية، طلبوا أن نقف بجوار حائط قريب، أحدهم ضرب جرجس بعقب بندقيته، وطلب أن نرفع أيدينا، وحين أتى دوري، أخرج أحدهم صورة من جيبه، وصرخ بأعلى صوته، ها هو.

طلب ضابط الدورية من كريم وجرجس أن يعودا من حيث أتيا، واقتادوني معصوب العينين، كان لهاثهم وصراخهم ينبئ بأهمية صيدهم، أحدهم ركلني قائلاً:

- تركت زوجتك لتختبئ عند العرب، ستدفع ثمن ما اقترفت سنوات من عمرك في السجن وربما تموت.

كان حديثهم كدوي طبول تقرع بعنف ثم تخبو، لم أسمع كثير من كلامهم الذي أعقب ركلاتهم، شعرت بأحدهم يقترب مني إلى أن داس قدمي بعنف كأنه يهصر حشرة، ثم بصق في وجهي، لم يكن بمقدوري ان أمسح وجهي، فسال لعابه الكريه على وجهي، فتقيأت كل ما يحتويه جوفي، كنت مطأطئ الرأس فانهالت ركلاتهم حتى شعرت بأن أضلاعي تتهشم، سمعت لها صوتاً أشبه بصوت تفسخ الخشب، علق في حلقي شيء ما، تضاءلت قدرتي على التنفس شيئاً فشيئاً إلى أن أغمي علي، ولم أعد إلى وعيي إلا بعد غمرتني المياه الآسنة التي سكبوها فوق رأسي، أزالوا العصبة عن عيني، فيما بقيت أيدي مكبلة خلف ظهري، كنت جاثياً على ركبتي، أترنح مع كل ركلة، فيسندني أحدهم بمقدمة قدمه، لم أكن قادر على الكلام، ولم يسألني أحد، كنت أرى وجوههم تشتعل غضباً، وأسمعهم يتصايحون كذئاب حول طريدة طازجة، استمروا على هذا الحال ليومين، قدرت أنها يومين رغم أني لم أر سوى ضوء الغرفة

الضيقة الخافت، وفي اليوم الثالث، سحبني إثنان منهم إلى غرفة مجاورة، وضعوا كيساً من القماش الخشن في رأسي، كنت أرى من خلال ثقوب الكيس حركتهم الدؤوبة والمحمومة، أحضر أحدهم كرسي صغير، وأمسك بذراعي حتى أجلسني عليه، شعرت بالراحة على نحو ما، تبددت بعد ساعة واحدة، صرت أتمنى أن أقف، أن أستند إلى حائط ما، لكن أسئلتهم المباغتة والسريعة أضاعت شيء من تفكيري بتيبس قدماي وظهري، وفي الفجوة بين سؤالين، حاولت أن أقف، لكني دون أن أشعر، كنت مربوطاً إلى الكرسي الصغير، فانفجر المحقق ضاحكاً، ثم قال نبرة تفيض منها الغطرسة:

- أنت الآن بين أيدينا، أتعلم أن رفاقك العرب ماتوا، بعد أن قبضنا عليك أطلقنا النار عليهم فخروا كخراف ذبيحة، ستلحق بهم، ولكن لتنجو يجب أن تخبرنا بكل شيء، كل شيء دون انتقاص.

جمعت قدرتي كي أخبره أني سأخبره بكل شيء، فأكمل قائلاً:

- كل ما حدث منذ أن هربت من الكيبوتس بعد إصابتك، نعرفه جيداً، نحن الآن نختبر قدرتك على الصدق، لن تنجو بغير الصدق.

ساد الصمت للحظات قليلة، إذ بأحدهم يرفع الكيس عن رأسي، ويفك وثاق يداي، فقال المحقق:

- قف إن أردت، ولكنك لن تجلس مرة أخرى، عليك أن تختار، إما الجلوس طوال الوقت أو الوقوف حتى يغمى عليك.

كانت رغبتي في الوقوف كي أتخلص من ألم ظهري وقدماي أكثر إلحاحاً من التهديد، فوقفت، فبدأ يسأل:

- لماذا تركت الكيبوتس؟
- كنت أشعر أني سجين في بيت راحيل وإيستر، لذلك هربت
- كيف التقيت بالعرب؟
- التقيت أحدهم في كهف يقع على بعد نصف يوم من هنا، في منتصف المسافة بين الكيبوتس ويافا
- كيف وصلت إلى يافا؟
- سرت مع العربي كريم من المنشية واختبأنا في كنيسة القديس بطرس، ثم أكملنا مسيرنا إلى حي العجمي.
- الم تحارب معهم؟
- لا، أنا لم أمسك سلاحاً في حياتي سوى في المرات القليلة التي خرجت فيها مع راحيل.

- بالتأكيد أخبرتهم عن لقاءات البلماح و جيش الهاجاناه التي كنت تحضرها برفقة راحيل.
- لم أخبرهم بأي شيء، لأنهم لم يسألوني
- كيف تقبلك العرب بينهم
- في البداية إدعى كريم أنني أخاه غير الشقيق، ثم عرفوا حكايتي فتعاطفوا معي، هم يقبلون كل ما يتفق مع طباعهم.

توقفت وتيرة الأسئلة المتسارعة والمتلاحقة، تقدم المحقق نحوي ببطء، ينظر إلي من بين نظارته وحاجبيه، ثم ركلني في أسفل بطني فارتطم رأسي بالحائط الخلفي، وصرخ بجندي كان يرقبنا من جانب الباب:

- خذوا هذا الكلب إلى زنزانته، واحرصوا ألا ينام ولو لدقيقة.

مرت الأيام كأثقل ما يمكن لصخرة أن تفعل ببيضة صغيرة، كنت أشعر أن كل أضلاعي مهشمة، ولم أعد قادراً على التفكير، كل ما يشغلني الآن هي جولات التحقيق والضرب الذي أتعرض له كل لحظة، كنت أتحسس عظامي في كل مرة، وللمرة الأولى أتحسس وجهي، شعرت بنتوء وجنتاي، وكثافة لحيتي، وأفزعني الضباب الذي كان يحجز رؤية الأشياء عني، أيقنت أني أسير في أخر

محطات حياتي، وإن لم تكن فعودتي إلى راحيل ستكون موت بطعم آخر.

مرت سنة كاملة، شعرت بتقلبات فصولها، من تسلل البرد تارة والدفء تارة أخرى إلى زنزانتي الصغيرة، كانوا قد كفوا عن التحقيق منذ أسابيع مضت، تخللتها زيارة طبيب، كان يأتي كل يومين، يسألني عن كل شيء:
" صف مشاعرك حين يضربك الجند؟ هل تكره راحيل؟ هل خطر ببالك يوماً أن تقتل إبنك أندرو؟ هل كنت تخاف عليه من إيستر" أسئلة كثيرة، وكثير منها لا إجابات له عندي، بيد أن الرجل كان يسجل كل ما يسأل وكل ما اجيب، ثم يرسم خطوطاً متشابكة أشبه بطلاسم قديمة، وعلى حالي هذا قضيت أياماً بين نوبات الأسئلة و النوم، إلى أن فتح أحدهم زنزانتي صباح يوم بارد، إذ براحيل بلباس عسكري مهندم، تقف مسندة أيديها إلى جانبي الباب، رفعت رأسي محدقاُ بعينين ضيقتين إلى وجهها، فأدارت وجهها عني، وابتعدت عن الزنزانة بالقدر الذي بقيت تراني فيه، أدركت أن رائحتي المنتنة أزعجتها، وبإشارة منها تقدم نحوي جنديين، قاداني معهما إلى أخر الردهة الطويلة، أحدهم رمي إلي بقطعة صابون، وأمرني الآخر أن أغتسل، رغم برودة الطقس، تركت الماء البارد ينساب فوقي، إلى أن أتى أحدهم وجرني عارياً إلى خارج الحمام،

تقدم جندي آخر نحوي والقى إلي بملابس نظيفة، ارتديتها على عجل، فأشارت راحيل بيدها للجنديين بمرافقتي خلفها، حتى دخلنا إلى غرفة المحقق، لم يستغرق وجودنا كثير من الوقت، بعد أن وقعت راحيل على بعض الأوراق، أمسكت بيدي وقادتني إلى سيارتها الواقفة خارج المعسكر.

وصلنا بعد وقت قصير إلى الكيبوتس، كل شيء هناك تغير، لم يبق أثر لمنازل القرويين القريبة، استبدلت بحقول ممتدة في الأفق، وتغير شكل المنازل والطرقات، ممرنا من ذات الركن حيث كنت أرى جوزيف العجوز، لكني لم أجرؤ على السؤال عنه، راحيل لم تلتفت إلي، ولم تكلمني، كان صمتنا معاً حوار من نوع آخر، توقعت أن تنفجر صارخة في وجهي بمجرد ان نصل، لكنها بقيت صامتة، دلفت إلى غرفتها بصمت وتركتني واقفاً خارج الباب، جلت بعيناي باحثاً عن إيستر لكني لم أراها، طال وقوفي هناك، إلى أن أتى أحدهم من خلفي، كان صبياً يافعاً، نظر إلي مستغرباً، سار باتجاه المنزل، يرمقني كلما خطى خطوتين، أدركت أنه أنت يا أندرو، اشتعل صدري بحنين لم أعهده من قبل، لو أني نظرت في عينيك قبل أن أهرب لما فعلت، لكني في الحقيقة هربت من حنيني إليك، لأزداد شوقاً، وددت لو أني أستطيع أن أضمك إلي، أن أشم

رائحتك، ثم لا أفارقك للحظة واحدة، لكن صرخة إيستر كانت أسرع، صرخت بكل طاقتها:

- لماذا تقف هناك، ألا تريد الدخول؟

نظرت يا أندرو خلفك، فأردفت راحيل:

- نعم إنه أبوك، إنه الهارب إيفانوف.

كنت مثلي، لا تجيد إنتقاء المشاعر المناسبة، لا تفرح لأنك لا تعرف كيف يفرح الناس، ولا تحزن لأنك لم تتعلم على أي شاكلة يكون الحزن أبلغ، أما انا فقد تعلمت، عايشت المشاعر كلها، ولمستها بيدي، ذقت طعمها، بعضها مر كزهرة الصبار، وبعضها حلو المذاق، بعضها ناعم كأثواب زوجات الأغنياء، وبعضها خشن كأنه قد من الصخر.

التفتت إلى الكشك الذي دفن فيه أبي، لم يعد قائماً، أرضه مستوية تنبت منها بعض الأعشاب، وحين سألتها قالت:

- كثير من الأمور تغيرت في غيابك، كنا مجبرين على إزالته، كما أزلنا الكثير من مشاعرنا.

وحين سألتها عن إيستر، أشارت إلى قبر غير بعيد، ثم دلفت إلى داخل المنزل باكية.

وددت لو أنها تفصح عن عما تشعر به، كنت أعلم أن الطبيب الذي زارني في مركز التحقيق كان بتوصية منها، أرادت أن تسجلني كمريض نفسي، كي لا أحاسب على هروبي، لكن أن تدعي بأنها أزلت الكثير من مشاعرها، ذلك يعني أنها أعادتني، وساعدتني مرة أخرى لهدف آخر، لكل الأسباب ولكن ليس من اجل المشاعر.

لم أكن بحاجة إلى توضيح حقيقة مشاعرها، كانت معركة خسرتها لبعض الوقت، وها قد حانت فرصتها لتسجل نصراً تلو الآخر، كنت أستعيض عن جفائها بعلاقتي مع أندرو، نقضي يومنا معاً، وفي الليل تأسرني غريزة مسعورة تسري تحت جلدها، لم تكن بذات الشبق القديم، برتابة قاتلة تمتص من جسدي متعتها المؤقتة، ثم تنأى بجسدها المنتفخ شهوة حامضة بعيداً عنها، لم أكن لها أكثر من فحل مكتوف إلى قوائم السرير، وكنت مرغماً على الرضى، أتعرفون كيف يكون السخط مكتوماً وحبيساً في الصدر، ذلك الشعور الذي يشبه الرضى المزيف.

عام مر، وقد أعتدت الدوران في ساقيتها، لم نتحدث كثيراً، لكل منا صمته كحاوية تجمع مئات الكلمات التي لا تُنطق، وبمرور الوقت اعتادت نفسي ما أكرره يوماً بعد يوم، إلى أن أخبرتني أنها حامل، وبعد عدة شهور أتت "ناتاشا"، كان قدومها منعطف جديد، وقد قمت على رعايتها في الأوقات التي تغيب راحيل فيها، كان تخرج

بزيها العسكري صباحاً، وتعود في منتصف اليوم، ذلك الوقت الذي كنت أتنفس فيه عشقي لأندرو وناتاشا، وبذات الرتابة أتى "بيتر"، أصبحنا عائلة كبيرة، كبرت معها المسافة بيننا، إلى أن انتهي بي المطاف في كشك خشبي بنيته بجوار قبر أبي، كنت أقضي جل وقتي هناك، وفي المرة الوحيدة التي ذهبت أبحث فيها عن جوزيف العجوز، أمسكتني من تلابيب قميصي وقالت:

- لقد مات جوزيف، أما زلت تفكر في الهروب، كنت أعلم أنه من وضع في رأسك خطة الهروب مرتين، وها قد تعلمت درساً لن تنساه ما حييت، ستكون مجبراً على ان تتعلم أكثر، كان باستطاعتي أن أتركك هناك في مركز التحقيق لتموت ببطء، لترى بعينيك كيف تموت أقدامك، تليها يديك، ثم عينيك.

صمتت قليلاً ثم أردفت:

- أتعلم لم يعد يعنيني بقاؤك، فلتهرب إن استطعت، ولكني أجزم أنك ستموت هنا، في هذا الكشك الخرب، كما مات والدك.

استجمعت كل ذرة قوة في صدري وصرخت:

- والدي لم يمت، قتلته إيستر بأعشابها المخدرة.

ضحكت بمجون وهي تلقي برأسها إلى الخلف، ثم قالت:

- وستموت أنت أيضاً كما مات.

على هذا النحو من الكراهية، مضت أيامنا ثقيلة، لم يكن في صحرائها القاحلة إلا ثلاث زهرات أراها تتفتح الواحدة تلو أخرى، كنتم عزائي وأكسير ايامي القاحلة.

خمس سنوات مرت، كبرتم خلالها، ولم أعد أفكر فيما قد يحدث لي، تساوت أمام عيناي كل التناقضات، الموت رديف الحياة، والحزن رديف الفرح، حتى أبنائي، مسحة الفرح الوحيدة التي تجلل كياني المتعب، كلما كبروا سنة يراودني شعور بأن موعد قاسم قد اقترب، ذلك الشعور الذي يستدعيني بكليتي كلما جلست وحيداً.

رغم تعاقب الأيام رتيبة وكئيبة، لم يكن بمقدوري أن أخرج من بوابة الكيبوتس، لم يكن لدي ما يثبت هويتي، رغم ديانة أبنائي المسجلة في شهادات ميلادهم، تقدمت راحيل بأكثر من طلب كي أحصل على بطاقة الهوية، وفي كل مرة يكون الطلب حبيساً في أروقة المكاتب الحكومية، ثم لا يأتي أي رد، حاولت مراراً أن أستعطف ضيوف راحيل، الذين كانت تدعوهم في أوقات متقاربة، فيقضون ليلتهم بين الشواء والرقص حول النار كقبيلة من الهنود الحمر، ثم يتساقطون بفعل الشراب، كسرب بعوض تساقط حول شعلة نار، لكن أحداً منهم لم يلتفت إلي، كانوا يتجاهلون وجودي،

يعانقون راحيل، ويسقط أحدهم فوق الآخر، وتعلو ضحكاتهم، فيما تنهرني راحيل بين الحين والآخر على مسمع منهم، تأمرني أن أحضر مزيداً من الشراب، فأفعل حانقاً أو راضياً، لم أعد أذكر حقيقة إحساسي في ذلك الحين.

وذات يوم كنت احمل بيتر على كتفي، ممسكاً بيد ناتاشا، فيما كان أندرو يجري أمامنا خلف الفراشات يصطادها ثم يفلتها في وجه ناتاشا، فتغيب في ضحكة بريئة وحالمة، كنت أقصد كرسي خشبي على جانب ممر الحديقة، فباغتني صوت راحيل، تقدمت نحوي يرافقها رجل بزي عسكري، يبدو من لباسة المنمق أنه ذو شأن، جلس الرجل إلى جواري، بينما افتعلت راحيل انشغالها بناتاشا وأندرو، سألني الرجل:

- نعرف أنك قضيت الوقت منذ هروبك حتى عودتك برفقة العربي كريم، ألم يذكر لك شيئاً يخص أخ له يدعى قاسم؟

حاولت إخفاء ارتباكي، وأومأت برأسي نافياً، نظر الرجل إلى راحيل، ثم توجه نحوي بسؤال آخر:

- أتذكر الصبي الشماس الذي أخفاكم في كنيسة القديس بطرس؟
- نعم اذكره، كان صغيراً، ولعل خوفه من الحرب أبقاه هناك.
- أما زال كريم يسكن بيت خاله في حي العجمي؟

- لا أعرف، لقد غادرته منذ ستة سنوات، ولم أعد أعرف شيئاً عنه.
- لكنك تعلم أنه أصيب واعتقل.
- نعم أعرف، كنت أسكن معهم حينئذ.
- سنطلب منك شيئاً ربما يكفر عن جريمتك التي اقترفت، سنعيدك إلى هناك، ستفتعل هروبك مرة أخرى، وسنجد طريقة للاتصال بك، كل ما لدينا هو بضع أسئلة نريد إجاباتها من هناك، من حي العجمي.

نظرت إلى راحيل، بدت راضية، إذ أومأت برأسها تحرضني على الموافقة، التفتت إلى الرجل، كان يحدق بي تارة ثم يلتفت نحو راحيل، وأنا لم أقوى على الرد، فوقف الرجل، وسار خطوتين مبتعداً عني، ثم استدار وقال:

- يملؤني اليقين بانك تود أن تكفر عن خطيئتك، ولهذا ستوافق.

ثم سار مبتعداً باتجاه عربة عسكرية كانت تنتظره قرب بوابة الكيبوتس، إقتربت راحيل والتصقت بي، ثم بدأت تمسد شعري وتقول بصوت غنوج:

- وافق يا ايفانوف، اذهب إلى هناك، ستكون عودتك اليهم ميلاد جديد يمحو كل خطاياك السابقة، وقد تحصل على بطاقة هوية،

وعمل يليق بك، وافق من أجل أبنائنا، لم تعد لنا حياة خارج هذه الدولة، فلنعيشها كما يجب أن يعيش كل من تعبوا لأجلها.

وبعد عدة أيام، كنت خارج بوابة الكيبوتس، أحمل بعض الطعام في كيس ورقي، كان ذلك الرجل في انتظاري بعربته العسكرية، سارت بنا نقطع الحقول، كانت ركام بيوت القرويين بمثابة مشهد يتكرر على طول الطريق، وعندما اقتربنا من نهر العوجة، قال الرجل:

- لا بد ان تترجل الآن، كي تبدو بمظهر الهاربين، لا تخف، ستقطع حي المنشية وصولاً إلى عمق يافا، ومن هناك ستصل إلى حي العجمي، لن يعترض طريقك أحد، لكن عليك أن تسرع.

قطعت مسافة ليست بالقصيرة، حتى وصلت إلى ذات الشجرة التي اختبأنا خلفها، جلست هناك كي أستعيد قوتي، ثم أكملت طريقي باتجاه المنشية، كان الشارع الخرب الذي سلكناه سابقاً قد استعاد شيئاً من الحياة ولكن بوجوه جديدة، أكثر غرابة، وكأنها نبتة من الزوان المسكر[36] بين سنابل القمح، سرت بوجل بين مئات العيون التي تحدق بي، إلى أن قطعت الطريق الممتد إلى عمق يافا، ومن

[36] الزوان المسكر هو أحد الأعشاب الضارة تنمو في حقول القمح فتفسده وهي شبيهة بالقمح إلى حد كبير

هناك استطعت استئجار عربة يجرها حصان، حتى وصلت إلى بوابة الحي، وقفت غير بعيد عن دورية عسكرية، تغلق مدخل الحي، حاولت أن أتقدم نحوي، فصرخ أحد الجند بأن أبتعد، تذكرت الطريق المحاذي لبيارة البرتقال، الذي سرت فيه خلف كريم وجرجس، فاستدرت من فوري، قطعت الساحة المكشوفة بين الحي و بيارة حلاوة، سرت بين الأزقة حتى وصلت إلى منزل خال كريم، كان العرق ينضح من ملابسي ووجهي، طرقت الباب متصنعاً الخوف واللهفة، زاد صرير الباب من لهفتي وتوتري، شعرت بصدري مضطرباً، ودفات قلبي المتسارعة كدرداب طبل أجوف، فتح كريم الباب، فالقيت بنفسي بين ذراعيه، أما هو فقد أمسكني من ذراعي ودلف مسرعاً داخل المنزل، لم يكن جرجس قد عاد منذ خروجه صباحاً كم أخبرني كريم، لكن لدي مفاجأة ستبهرك، قال ضاحكاً، ثم سحبني مرة أخرى إلى غرفة داخلية، ثمة رجل يستلقي في وسط الغرفة، اعتدل الرجل، فاقتربت منه، فقال بصوت أجش وقور:

- أنت إيفانوف، أليس كذلك؟ حدثني عنك كريم.

فرحت بلقائه، فجلست إلى جواره، وسألت:

- أتذكر ذلك الرجل الذي أعطيته برتقالتين عند بوابة الكيبوتس؟

ضحك قاسم، ثم اعتدل وقال:

- أخبرني كريم أيضاً عن البرتقالتين، نعم أذكرك يا رجل.

وسط ضحكاتنا الصاخبة، سألني كريم:

- أخبرني يا إيفانوف، ماذا فعلوا بك، وكيف نجحت في الهروب مرة أخرى؟

أجبت بأسى لم أتصنعه:

- ضربوني حتى تكسرت ضلوعي، ثم تركوني في السجن إلى أن أتت راحيل فحررتني، يغلبني اليقين بأنها اتفقت معهم على أني مختل، ويجب معالجتي، ولذلك تركوني.
- وكيف هربت مرة أخرى؟
- ذلك أمر يستوجب سرية الحديث.

قاطعنا قاسم قائلاً:

- لن تخبرنا بشيء قبل أن تغتسل ثم تأكل.

كنت أعرف المنزل بأكثر مما أعرف منزل راحيل، دلفت إلى الحمام واغتسلت، إلى أن أتم كريم تحضير الطعام، لم أذكر أنني أكلت ما هو أشهى منه.

بعد أن شربنا الشاي، حضر جرجس، فأخبرتهم بكل ما حدث معي، وأنني لم أهرب، بل كلفني أحدهم أن بالتجسس، ثار كريم حتى بدا كقنبلة انفجرت، وحده قاسم كان متماسكاً، مطرقاً بصمت، ثم اعتدل طالباً من كريم أن يهدأ، وقال:

- ستكمل مهمتك كما أرادوا لك.

زاد حنق كريم حتى قفز من مكانه، فصرخ قاسم قائلاً:

- عليك ان تهدأ، سيخبرنا إيفانوف بما يبحثون عنه، واي أخبار يريدون سماعها، وسنعطيهم ما نريد أن يسمعوه فقط.

هدأت ثورة كريم، وساد الصمت بيننا، إلى أن سألني قاسم:

- ألم يخبروك كيف سيتصلون بك، وفي أي وقت.

أجبته بسرعة:

- لا لم يخبرني أحد بذلك، لكنهم أخبروني أنهم سيتصلون بي بطريقة ما.

هز قاسم رأسه وقال:

- من المفيد أن ننتظر اتصالهم بك، سيتضح حينها كثير من الغموض.

قضيت أياماً أعيد حكايتي لقاسم، كان ينصت بجدية لم أعهدها من أحد، لم يسألني كثيراً، كان يكتفي بهز رأسه، ويستغرق أحياناً في تفكير عميق، كنت أراه في شرود عينيه، ثم ينفض رأسه كأنه غائب عاد.

بعد انقضاء الأسبوع الأول، كنا على وشك تناول فطورنا، سمعنا أحدهم يطرق الباب بعصاه، هرع جرجس ليفتح الباب، ثم عاد مسرعاً، وقال:

- أعرابي يبيع البيض.

هم كريم بالوقوف، فأمسك قاسم ذراعه، وطلب منه الجلوس، ثم همس بيننا:

- لعله حلقة الوصل مع إيفانوف، فليخرج إيفانوف لشراء البيض.

كان حدس قاسم صائباً، أعطاني الرجل سلة من البيض، وورقة مطوية بعناية، وضعها في يدي وانصرف مسرعاً، توثب جرجس، وهم باللحاق به فمنعه قاسم، إن لحقت به سيعرفون أننا على علم بما يجري، لا تفسد علينا ما هو قادم باندفاعك هذا، قال قاسم.

فتحنا الورقة معاً، كانت مكتوبة باللغة الروسية " بجانب مكتب البريد في يافا، كشك لبيع المثلجات والسجائر، ستعطيه ورقة فيعطيك أخرى، ولا تنسى أن تقول له ميخائيل ارسلني إليك"

حسناً قال قاسم:

- تلك أول الخطوات لمعرفة ما يكيدون، ستكتب له أنك وجدت قاسم هناك وأنك ما زلت تحاول الحصول على أي معلومة ذات قيمة.
- ألا يعرفون أنك هنا؟
- بلى، يعرفون، ولكنهم تعمدوا ألا يسألوك عن شيء حين أرسلوك، ليعرفوا أي نوع من المعلومات ستهتم به أولاً، ثم إن فرصتنا للحصول على سؤالهم التالي تستوجب رد سريع.

في اليوم التالي، ذهبت باكراً إلى الكشك، وقفت أمام رجل، يبدو طويلاً، يبرز رأسه الأشيب من ياقة معطف كبير، شاربه يغطي ثلثي فمه، ذو فك عريض، ورقبة ناتئة بخطين منغرسين من أعلى صدره إلى أسفل وجهه، كأن رأسه مستند إلى جسده بعصاتين جافتين، رفع نظارته قليلاً، ورمقني بنظرة حادة، كأنه يتفحص ثوباً يشتريه، تداركت وقوفي الطويل أمامه، فقلت له:

- أرسلني إليك ميخائيل.

انفرجت شفتاه عن أسنان مغروسة في لثته كأوتاد دقت في صخرة على غير هدى، ثم التف خلف كشكه الخشبي، وعاد يقبض على ورقة تشبه الورقة الأولى، أعطيته ورقتي، فأخفاها بسرعة البرق في جيب معطفه، وقبضت أنا على ورقته، حتى عدت بها إلى قاسم.

كان كريم متوتر إلى الحد الذي قطع فيه فناء المنزل مرات عدة، وفي كل مرة كان يخرج رأسه من الباب، يستطلع كل الجهات، ثم يعود لمسيره المكوكي بين الباب وأخر الفناء، كما أخبرني جرجس.

عدت بالورقة أقبض عليها، انتبذنا ركن في الغرفة الداخلية، وقرأتها عليهم:

" في المرة القادمة، ستحضر معلومات وافية عن ترحك قاسم، متى يخرج، من يقابله، ماذا يحضر معه حين يعود، رسالتك ستغطي تحركاته من ساعة استلامك للرسالة ولمدة عشرة أيام أخرى"

تنهد قاسم، بينما نترقب ما سيقوله، جال بعينيه في وجوهنا، ثم قال:

- ستكتب له الآن رسالة عاجلة، تخبره فيها ان ذهابك الدائم إلى كشك المثلجات قد يثير ريبة البعض، لذلك قد أنجح في تجنيد جرجس، لينوب عني في إستلام الرسائل وتوصيلها.

عدت في اليوم التالي إلى الكشك، جحضت عينا الرجل حين رآني قادماً نحوه، شعرت انه يهم بطردي، لولا أنني كنت أسرع في الوصول إليه، سلمته الورقة، وعدت مسرعاً من حيث أتيت.

أخبرني قاسم ألا أعود إلى الكشك حتى نهاية المهلة الممنوحة لي في الرسالة الأولى.

انقضت تسعة أيام، والوقت رطب ولزج وبطيء، ألوك مرارة طوله، ينازعه قلق كذبابة صيف دبقة، فيستجير صدري بالأحلام، كي أغفو، فأسقط في بئر الكوابيس، أخبرت قاسم بأن القلق يقتلني، فنظر بصمت يتفرس وجهي، ثم قال:

- هم أيضاً قلقون مثلك، رسالتك لهم أحدثت زوبعة، وأربكت حساباتهم، كانوا يتوقعون أن تشكو لهم سوء استقبالنا لك، وتراهم أعدوا ما سيجيبون به.
- ألم نتسرع في رسالتنا؟
- لا، لم نتسرع، وسنرسل رسائل أخرى، بمحتوى مختلف، يجب أن يستمر لهاثهم خلف رسائلك، سنضعهم في أتون حرب قاسية، بطليها في أدمغتنا.

هدأت نفسي قليلاً، بعد حديثي القصير مع قاسم، فأردت أن أنام، إلا أنه طلب مني احضار ورقة وقلم، وطلب مني ان اكتب ما سيمليه.

" لم يخرج قاسم من المنزل، إلا ثلاث مرات، الأولى كانت إلى البلدة القديمة، وعاد من هناك وقد حل الظلام، لم أتمكن من اللحاق به، لأن كريم وجرجس كانا ملتصقين بي طوال اليوم، وفي المرة الثاني، ذهب بيارة حلاوة وأحضر معه صندوقاً من البرتقال، وفي المرة الأخيرة، ذهب إلى السوق، وعاد محملاً بالخضار والحبوب، لكني رأيته عصر ذلك اليوم، يخفي رزمة من الأوراق في صندوق ملابسه... لا تنسوا إخباري برأيكم في تشغيل جرجس".

بعد أن انتهيت من الكتابة، سألته عن الأوراق التي أخفاها في صندوق ملابسه، فضحك حتى استلقى على ظهره، ثم قال وهو يحاول الكف عن الضحك:

- ذلك هو الطُعم الثاني يا صديقي، لا تسأل أكثر، عليك أن تذهب باكراً إلى صديقك بائع المثلجات.

في صباح اليوم التالي، خرجت باكراً، كان الرجل قد فتح أبواب كشكه للتو، تفاجأ بي واقفاً خلفه، لم يكلمني، رمقني بنظرة غاضبة، ثم دخل إلى كشكه، مد يده بعلبة من السجائر يخفي تحتها ورقة وبعض الأوراق النقدية، وضعتها في جيبي على عجل، واعطيته الورقة التي كتبناها.

كان قاسم ينتظرني عند باب المنزل، وحين دخلت، أقفل خلفنا الباب، ثم توجه مسرعاً إلى الغرفة الداخلية، قرأت له الورقة:

" كن متأكداً أن تشغيل جرجس ينضوي على الكثير من الخطر، عليك أولاً أن تتقرب منه أكثر، وأن تغدق عليه المال، ولا تتعجل في إقناعه، دعه يرتبط بالنقود التي تعطيها له، وإحذر أن يعلم قاسم وكريم بكل ما تفعل، سيتساءلون عن مصدر نقودك، لذلك عليك أن تخفيها عنهم حتى يصلك منا خبر، وجدنا لك عملاً قريب من الحي، ليكون غطاء لنقودك، بعد شهر ستطلب من جرجس أن يرافقك للعمل، بداعي الحاجة إلى عمال.

وعليك أن تحاول معرفة حقيقة الأوراق التي أخفاها قاسم.

كنا جميعاً نجلس متلاصقين في حلقة صغيرة، كأننا نستعرض أحداث فيلم بوليسي مضحك ومبكي في آن واحد، فالتفتت قاسم نحوي منتشياً بنصر صغير حققه للتو، وقال:

- أرأيت؟ صنعنا لهم سؤالاً جديداً، وسنضع أسئلة أخرى في أفواههم، لقد أرسلك الله إلينا يا ايفانوف، كي تكون غطاءنا، لأننا لن نستمرئ الصمت ثمناً لمخاوفنا، قريباً سنصنع الأسئلة وإجاباتها.

كان علي بعد أيام قليلة أن أجد مبرراً لغيابي الطويل، فكفاني كريم عناء الكذب، حين أخبر جارنا:

- لقد هرب ذات ليلة من دورية عسكرية، فوجد نفسه بين التلال والحقول، ودون أن يشعر كان قد قطع المسافة بين يافا وطولكرم سيراً على الأقدام، وحين هبط عن ربوة جبلية، وجد نفسه في وسط المدينة الكبيرة، ومنذ ذلك الحين يحاول الخروج من هناك، إلى أتت الرياح مواتية، حين قُرِعت طبول الحرب من جديد، جيش بكامل عدته وعتاده يتحين فرصة الانقضاض على ما تبقى من الأرض، هاجر بعض السكان العرب، ممن يسكنون قرب الحدود، فسار معه متخفياً حتى عاد الينا كما ترى.

كانت قصة لا شائبة في تفاصيلها وعمومها، وهكذا انتشرت قصتي بين الناس كالنار تستعر في كومة من القش.

عملت في أحد المتاجر الكبيرة التي أنشئت على أطلال المنازل والمدارس والمستشفيات، وعمل معي جرجس، الذي أصبح مرسالنا مع صاحب المثلجات.

كنت أقتطع من الوقت ما يجلله السكون والفراغ، كي أعود إلى الكيبوتس فأراكم وأقضي بعض الليل مع راحيل، ثم أعود إلى

الحي، كل شيء كان يسير وفق إيقاع منتظم، يرسمه قاسم وفق كل سؤال جديد، إلى أن بدأوا يتجاهلون كل ما هو خارج إطار أسئلتهم، وحين تكرر تجاهلهم، أيقن قاسم أنهم اكتشفوا حقيقة أمري، قد يكون لهم أعوان غيرك، فيكذبون ما تكتب، تلك إشارة لا تحتمل الإجتهاد في تفسيرها، عليك أن تهرب يا صديقي، يبدو أن الرحيل هو شقيقك التوأم، اهرب بنفسك ولا تنظر خلفك كي لا يسوئك ما ترى.

سألت قاسم:

- إلى أي جهة سأهرب؟
- ستهرب إلى موطنك، أرأيت كيف لفظك الوطن الورقي، عد إلى هناك يا صديقي، سأتدبر مع أحد الأصدقاء متسع لك على سفن البضائع.
- لن أهرب وأبنائي هناك، ألسنا نخطط وفق خيالات قد تكون مخادعة.
- نعم، ولكنك قد تقتل إن عدت لأخذهم، ولن تشفع لك راحيل مرة أخرى.
- عليك أن تساعدني إذاً كي أهرب بهم، أنا لن أبرح الحي بدونهم.

أطرق قاسم قليلاً ثم فرك جبيبنه وقال:

- قد نساعدك في أخذهم، لكن الطريق إليهم سيكون مخضباً بالدم.

- لا يهمني ولو قُتلت.

قال كريم بصوته الحماسي المعهود:

- ألا نستطيع اختطافهم؟

قلت له مقاطعاً سؤاله:

- أندرو أصبح يافعاً، ولن يكون من السهل إختطافه، ثم إنهم لا يخرجون من الكيبوتس، لا يا صديقي، الأمر أعقد مما تتخيل.

قال قاسم بعد لحظات من الصمت:

- ستراسلهم لتطلب أن يأتوا لك بأبنائك كي تقضي معهم بعض الوقت في حدائق يافا وبياراتها، وقد تتضح لنا نواياهم، وإلى أن يصل ردهم، سنغادر جميعاً هذا البيت دون أن يشعر بنا أحد.

وفي اليوم التالي، ذهب جرجس إلى كشك المثلجات برسالتي، وعاد برسالة أخرى، يسألون فيها أي من سكان العجمي يملك سلاحاً من بقايا الحرب.

أشار قاسم أن يكون ردي عليهم سريعاً، برسالة مفادها ان هذا الأمر يتطلب مزيداً من الوقت، الناس هنا لا يتحدثون عن الحرب

والسلاح، وبالطبع لا يحملونه معهم، لذا فإن المعرفة تحتاج إلى القرب بأكثر مما انا عليه، وفي نهاية الرسالة كنت قد دونت ملاحظة صغيرة، أرجو إخباري بموعد حضور أبنائي.

بعد يومين أرسلنا جرجس إلى كشك المثلجات، فعاد برسالة تؤكد موعد حضوركم في حافلة تصل إلى ميدان برج الساعة في عصراً.

انتظرتكم في ميدان الساعة، إلى أن وصلتم، لم يكن بمقدوري أن أعود إلى الحي لتروا قاسم وكريم وجرجس، تلك الأسماء التي سأدونها بين جلدي وعظمي ما حييت، كانت خطة قاسم تقضي بأن يطلق أحدهم بعض الأعيرة النارية بالقرب منكم، كنا حينئذ نسير على رصيف الميناء، في الوقت الذي ستبحر فيه سفينة محملة بالبرتقال إلى قبرص، كانت ساعاتنا جميعاً مضبوطة على توقيت موحد، رتبه ربان السفينة مع قاسم، فعرفت متى سأسير بكم على رصيف الميناء، مقترباً من السفينة، وجرجس علم توقيت مسدسه المضبوط على إشارة قاسم، وربان السفينة يعلم تصاعد الوقت ومتى سيبحر، فهربنا إلى السفينة نلوذ بها من الرصاص، وسط ضجيج الجند وهلعهم، وها أنتم الآن شهوداً على رحلة البحر والبر، كأن ما بدأ قبل سنوات بعيدة، يعيد لبس ثيابه القديمة، حين أتيت طفلا وها أنا أغادر كهلا بلحية بيضاء طويلة وعينان خافتتان تشبهان زرقة البحر حين يثور، أتذكرون ما قاله ذلك الرجل ذو

الزي العربي القديم، حين نظرنا اليه من بين صناديق البرتقال، بينما كانت السفينة تبتعد بنا عن شاطئ الدم والأحلام، ربما لم تفهموا لغته، لكني سمعته يقول: "سر وأن كنت تعلم أنك لن تصل، قاتل بروح المنتصر، وان كنت تعلم أنك لن تشارك في احتفالات النصر".